جامعة مؤتة
عمادة الدراسات العليا

بيبرس المنصوري حياته ودوره في التأريخ لدولة المماليك البحرية

إعداد الطالب
وائل عبدالحق عبدالله الضمور

إشراف
الأستاذ الدكتور أحمد عبدالله الحسّو

رسالة مقدمة إلى عمادة الدراسات العليا
استكمالاً لمتطلبات الحصول على درجة الماجستير
في التاريخ قسم التاريخ

جامعة مؤتة، 2008م

الآراء الواردة في الرسالة لا تُعبر بالضرورة عن وجهة نظر جامعة مؤتة

بسم الله الرحمن الرحيم

MUTAH UNIVERSITY
Deanship of Graduate Studies

جامعة مؤتة
عمادة الدراسات العليا

نموذج رقم (14)

قرار إجازة رسالة جامعية

تقرر إجازة الرسالة المقدمة من الطالب وائل عبدالحق الضمور الموسومة بـــ:

بيبرس المنصوري حياته ودوره في التاريخ لدولة المماليك البحرية

استكمالاً لمتطلبات الحصول على درجة الماجستير في **التاريخ**.

القسم: التاريخ.

	التوقيع	التاريخ	
أ.د. أحمد عبدالله الحسو		2008/05/14	مشرفاً ورئيسا
أ.د. حسين فلاح الكساسبة		2008/05/14	عضواً
د. عوض عبدالكريم الذنيبات		2008/05/14	عضواً
د. ماهر أحمد المبيضين		2008/05/14	عضواً

عميد الدراسات العليا
أ.د. حسام الدين المبيضين

MUTAH-KARAK-JORDAN
Postal Code: 61710
TEL :03/2372380-99
Ext. 5328-5330
FAX:03/ 2375694
e-mail: dgs@mutah.edu.jo sedgs@mutah.edu.jo
http://www.mutah.edu.jo/gradest/derasat.htm

مؤته – الكرك – الاردن
الرمز البريدي: 61710
تلفون: 99-03/2372380
فرعي 5328-5330
فاكس 03/2 375694
البريد الالكتروني
الصفحة الالكترونية

الإهـــــداء

إلى والدي أطال الله عمره إلى والدتي التي وقفت حياتهـــا علـــى تربيتـــي، وإلى إخوتي وأخواتي، وإلى خالي العزيز غسان، وإلى حبيبيَّ عروة ونانسي.

أهدي هذا العمل المتواضع

وائل عبدالحق عبدالله الضمور

الشّكرُ و التّقديرُ

يسعدني بعد الحمد و الشكر لله أن أتقدم بجزيل الشكر وجميل العرفان والتقدير لأستاذي الفاضل العالم الأستاذ الدكتور أحمد عبدالله الحسُّو، لما أبداه من توجيهات وإرشادات قيّمة كانت باعثاً قوياً في إقبالي على البحث، ودراسة هذا الموضوع . كما أتقدم بجزيل الشكر و العرفان لموظفي مكتبة جامعة مؤتة، و أخص بالذكر منهم السيد مشعل المجالي والشكر الموصول لمكتبة بغداد ممثلة بـ السيد عامر المجالي والمهندس محمد الذنيبات.

وائل عبدالحق عبدالله الضمور

فهرس المحتويات

المحتوى	الصفحة
الإهداء	أ
الشكر والتقدير	ب
فهرس المحتويات	ج
قائمة الملاحق	و
قائمة المختصرات	ز
الملخص باللغة العربية	ح
الملخص باللغة الإنجليزية	ط
الفصل الأول: حياة بيبرس المنصوري الدوادار ونشأته	**1**
1.1 المقدمة	1
2.1 عصر بيبرس المنصوري	2
3.1 حياة بيبرس المنصوري	15
1.3.1 اسمه ونسبه	15
2.3.1 مولده ونشأته	22
3.3.1 دوره في عهد إمرة الأمير سيف الدين قلاوون (659-678هـ/1260-1280م)	24
4.3.1 دوره بعد وصول الأمير سيف الدين قلاوون للسلطنة عام 678هـ/1279م	29
5.3.1 دوره في فتح عكا عام 690هـ/1291م، وإعفائه من نيابة السلطنة في الكرك	35
6.3.1 دوره في عهد السلطان الناصر محمد (سلطنته الأولى) والسلطان العادل كتبغا والسلطان حسام الدين لاجين (693-698هـ/1293-1298م)	42

المحتوى	الصفحة

7.3.1 دوره في سلطنة الناصر محمد الثانية (698-708هـ/1298-1302م) 46
8.3.1 دوره في الصراع الذي حدث بين الملك الناصر محمد وكلٍ من بيبرس الجاشنكير وسيف الدين سلار (708-710هـ/1308-1310م) 57
9.3.1 دوره في عهد السلطان الناصر محمد /سلطنته الثالثة (709-725هـ/1309-1324م) 62
10.3.1 ثقافته ومؤلفاته 67
11.3.1 مكانته في الدولة المملوكية 78
12.3.1 مذهبه 85
13.3.1 وفاته 85
الفصل الثاني: منهج بيبرس المنصوري وأسلوبه في كتابة تاريخ دولة المماليك البحرية **87**
1.2 منهجه في بناء مادته التاريخية 87
2.2 أسلوبه الأدبي في عرضه لمادته التاريخية 92
3.2 مصادره 95
4.2 تاريخ تأليفه مؤلفاته 99
5.2 أثره في الدراسات المعاصرة له والتالية 100
الفصل الثالث: السياسة الخارجية لدولة المماليك البحرية كما أرَّخ لها بيبرس المنصوري **105**
1.3 تمهيد 105
2.3 السياسة تجاه الدولة المغولية الإيلخانية 106
3.3 السياسة تجاه الفرنج (الصليبيين) 136

الصفحة	المحتوى
155	4.3 السياسة تجاه الأرمن
164	5.3 السياسة تجاه مغول القبيلة الذهبية
171	6.3 السياسة تجاه بيزنطة
175	7.3 السياسة تجاه بقايا البيت الأيوبي
182	8.3 السياسة تجاه الخلافة العباسية قبل سقوطها عام 656هـ/1258م
183	9.3 السياسة تجاه المستأمنين من الدول الأخرى
189	10.3 السياسة تجاه دول أخرى (المغرب، اليمن، الإسماعيلية، الفرنج في جزر البحر المتوسط، النوبة، الكرج، الحبشة)،
199	**الفصل الرابع: السياسة الداخلية لدولة المماليك البحرية كما أرَّخ لها بيبرس المنصوري**
199	1.4 التغاير على السلاطين والمؤامرات ضدهم وانتهائها بالقتل أو الخلع أو تسلم السلطنة أو الفشل
237	2.4 السياسة تجاه القبائل العربية في بلاد الشام ومصر
248	3.4 حياة السلاطين
256	4.4 السياسة تجاه الخلافة العباسية بعد إحيائها عام 659هـ/1260م
261	5.4 الخاتمة
263	المراجع
270	الملاحق

قائمة الملاحق

رمز الملحق	عنوانـــــه	الصفحة
أ	نسخة المرسوم الـــذي أصدره السلطان المنصور قلاوون عــام 682هـــ/1283م بحق بيبرس المنصوري منح بموجبه خمســة عشر طواشياً وبعض الإقطاعات إضافة إلى لقب أمير.	270
ب	نسخة المرسوم الذي أصدره السلطان المنصور قــلاوون عــام 683هــــ/1284م بحق الأمير بيبرس المنصوري، مُنح بموجبه إمرة طبلخاناة بخمسين فارساً، وإقطاع الأمير عز الــدين أيبــك الأفرم الصالحي أمير جاندار.	272
ج	نسخة المرسوم الذي أصدره السلطان المنصور قــلاوون عــام 685هــــ/1286م بحق الأمير بيبرس المنصوري، مُنح بموجبه ثمانين فارساً، وإقطاع الأميــر علــم الــدين ســنجر الــدوادار الصالحي.	274
د	نسخة المرسوم الذي أصــدره الملــك الناصــر محمــد عــام 693هــــ/1293م بحق الأمير بيبرس المنصوري، مُنح بموجبه مائة فارس وتَقْدِمَة ألف وديوان الإنشاء.	276

قائمة المختصرات

الرمز	المختصرات
ت	تاريخ الوفاة
ج	جزء
ط	طبعة
ص	صفحة
ق	قسم
هـ	هجري
م	ميلادي
مج	مجلد
د . ت	دون تاريخ
د . ط	دون طبعة
د . م	دون مكان

الملخص

بيبرس المنصوري حياته ودوره في التأريخ لدولة المماليك البحرية

وائل عبدالحق عبدالله الضمور

جامعة مؤتة، 2008م

تحرى الباحث في أطروحته هذه تسليط الضوء على حياة بيبرس المنصوري، (645-725هـ/1247-1326م)، والكشف عن دوره في التأريخ لدولة المماليك البحرية.

وتُعَنّ الدراسة على مقدمة وأربعة فصول . الفصل الأول: تناول الباحث فيه عصر بيبرس المنصوري وحياته ونشأته، وسيرته العلمية والأدبية.

أما الفصل الثاني، فقد تناول مادة بيبرس المنصوري من حيث أسلوبه في كتابتها، ومنهجه في جمعها والتعامل معها، والمصادر التي عوّل عليها في تدوينها، وأثره في الدراسات التاريخية المعاصرة والتالية.

وتحدث الفصل الثالث عن المادة التي قدمها بيبرس المنصوري عن السياسة الخارجية لدولة المماليك البحرية، أما الفصل الرابع، فقد تناول المادة التي قدمها بيبرس المنصوري عن السياسة الداخلية لدولة المماليك البحرية.

وقد أنهيت هذه الدراسة بخاتمة تضمنت خلاصة ما توصلت إليه، وتقييماً لمكانة بيبرس المنصوري في الكتابة التاريخية في عصره، ثم أرفقت بها قائمة بالمصادر والمراجع وعدداً من الملاحق.

Abstract

Baybar Al-Mansuri his Life and his Role as a historian for Bahri Mamluk Dynasty

Wa'el Abdulhaqq Abdullah Al-Dhmur

Mu'tah University, 2008

This study shades the light on the life of Baybars al-Mansuri (645-725A.H/1247–1326A.D) and his role as a historian for Bahri Mamluk Dynasty.

The study has divided into an introduction and four chapters, the first Chapter discusses the period in which the Baybars had lived in, his life, and his works.

The Second Chapter dealt with al-Mansuri works in terms of his style, his method in collecting the information and how he had dealt with, and the reliable references that he used, also his impact on the modern historical studies.

A Third and Fourth chapters discussed the material that Al-Mansuri had introduced it about the Bahri Mamluk Dynasty from internal and external political perspective.

The conclusion and an evaluation for Al-Mansuri status in historical writing in his period were included in the end of the study.

الفصل الأول

حياة بيبرس المنصوري الدوادار ونشأته

1.1 المقدمة

شهدت مصر وبلاد الشام خلال القرنين السابع و الثامن الهجريين بروز نخبة من أعلام الفكر التاريخي الذين أسهموا في مجال الكتابة التاريخية.وقد أولى الدارسون المحدثونبعض هؤلاء ومؤلفاتهم بدراسات وبحوث قيمة،في حين أن البعض الآخر لم يولوه اهتماماً، ولعل من أبرز هؤلاء بيبرس المنصوري.

من هذا المنطلق يأتي الاهتمام بدراسة بيبرس المنصوري بهدف الكشف عن حياته ودوره في التأريخ لدولة المماليك البحرية . أضف إلى ذلك عدم وجود دراسة مختصة عنه وعن دوره في التأريخ لهذه الدولة، لذا فقد انصبت هذه الأطروحة على التعريف به والكشف عن جوانب حياته ، وجمع مادته التاريخية، ودراستها دراسة نقدية تحليلية تحت عنوان "بيبرس المنصوري ودوره في التأريخ لدولة المماليك البحرية" ليتبيّن للقارئ أسلوبه ومنهجه في الكتابة و المادة التاريخية التي قدمها عن دولة المماليك البحرية.

اعتمدت هذه الدراسة أساساً لها على ما وصل من مادة بيبرس المنصوري التاريخية والمتمثلة بمؤلفاته التالية: زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة، والتحفة الملوكية في الدولة التركية، ومختار الأخبار (الجزء الخاص بتاريخ الدولة الأيوبية ودولة المماليك البحرية حتى سنة 702هـ).

تضمنت الدراسة مقدمة وأربعة فصول تعرض الفصل الأول للحديث عن عصر بيبرس المنصوري، و شخصيته من خلال الحديث عن حياته التي تضمنت : اسمه ونسبه ومولده و نشأته ودوره السياسي و الإداري خلال العصر المملوكي الأول، ثم ثقافته ومؤلفاته، ومكانته في الدولة المملوكية، ومذهبه، و وفاته. أما الفصل الثاني، فقد تناول مادة بيبرس المنصوري التاريخية من حيث أسلوبه في كتابتها ، ومنهجه في جمعها، والمصادر التي اعتمد عليها في تدوينه لها، وأثره في الدراسات التاريخية المعاصرة له و التالية. أما الفصل الثالث فقد خصص لدراسة مادته عن

السياسة الخارجية لدولة المماليك البحرية . وتناول الفصل الرابع دراسة السياسة الداخلية لدولة المماليك البحرية كما أرخ لها بيبرس المنصوري.

قد أنهيت الدراسة بخاتمة تضمنت خلاصة ما توصلت إليه، ثم أرفقت بها قائمة بالمصادر والمراجع وعدداً من الملاحق.

2.1 عصر بيبرس المنصوري

عاش بيبرس المنصوري في القرنين السابع والثامن الهجريين في الفترة الممتدة ما بين سنتي (645-725هـ/1247-1326م)، وبذلك يكون قد عاصر أواخر الحكم الأيوبي، والعقود الستة الأولى لحكم دولة المماليك البحرية.

وإن ما يميز تلك الفترة ازدحامها بالأحداث السياسية المهمة التي كان لها أثرها في مصر وبلاد الشام.

ومن أبرز تلك الأحداث:

1. الصراع الأيوبي المملوكي على السلطة.

كانت بلاد الشام وأطرافها بين سنتي (645-657هـ/1247-1258م) تتقاسمها ثلاث قوى سياسية هي قوة الصليبيين التي كانت تتمثل بالإمارات الصليبية التي تمتد على طول الشريط الساحلي لبلاد الشام، وقوة الأرمن المسيحيين، وبقايا البيت الأيوبي الذين كانوا يتقاسمون معظم أجزاء بلاد الشام فيما بينهم، ويسود النزاع والانقسام بينهم، بالإضافة إلى محاولة كل طرف منهم الاستيلاء على أملاك الطرف الأخر[1]، كما فعل الملك الناصر يوسف صاحب حلب سنة 646هـ/1248م عندما سيطر على حمص وأخذها من صاحبها الملك الأشرف موسى وعوضه عنها بتل باشر[2].

---

(1) الصياد، فؤاد عبدالمعطي، المغول في التاريخ، دار النهضة العربية، (د.ط)، ج1، بيروت، 1980م، ص289-290. وسيشار إليه تالياً: (الصياد، المغول).

(2) ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل الدمشقي (ت774هـ)، البداية والنهاية، حققه ودقق أصوله وعلق حواشيه مكتب تحقيق التراث، دار إحياء التراث العربي، (د.ط)، ج13، بيروت، 1993م، ص204. وسيشار إليه تالياً : (ابن كثير، البداية)؛ ابن سباط، حمزه بن أحمد ابن

أما مصر، فقد د نشأت فيها دولة فتية،هـي دولـة المماليـك البحريـة عـام 648هـ/1250م إثر انتقال الحكم من الأيوبيين بعد مقتل السلطان تورانشاه إلـى شجر الدر التي تنازلت عنه للأمير المملوكي عز الدين أيبك التركماني(1).

لم يعترف الأيوبيون في بلاد الشام بسلطة دولة المماليك الجديدة فـي مصـر، وبخاصة كبيبيتهم الملك الناصر يوسف ابن الملك العزيز صاحب حلب و دمشـق الذي أخذ على عاتقه إسقاط الدولة المملوكية الجديدة وإعادة مصر للحكم الأيوبي(2). وقد تزامن ذلك مع الاجتياح المغولي للبلاد الإسلامية.

عمد السلطان المعز أيبك التركماني مع بعض أمرائه، إثر علمهم بخطة الملـك الناصر، إلى إقامة سلطان أيوبي يشاركه في الحكم، و هو الملك الكامل مظفر الدين موسى ابن الملك المسعود "، وقد لجأوا إلى ذلك للحفاظ على دولتهم الوليدة مـن أي تهديد يمكن أن يقوم به الملك الناصر نحوهم في مصر(3).

عمر الغزبي (ت926هـ)، صدق الأخبار المعروف بتاريخ ابن سباط، عنى به وحققه عمر عبدالسلام تدمري، دار جروس بـرس، ط1، ج1، طـرابلس (لبنـان)، 1993م، ص342. وسيشار إليه تالياً: (ابن سباط، تاريخ).

(1) أبو الفداء، إسماعيل بن علي بن محمود بن عمر بن شاهنشـاه بـن أيـوب (ت732هـ)، المختصر في أخبار البشر، علق عليه ووضع حواشيه محمود أيوب، ط1، بيروت،1997م، ص287-290. وسيشار إليه تالياً: (أبو الفداء، المختصـر)؛ عاشـور، سـعيد عبـدالفتاح، العصر المماليكي في مصر والشام، دار النهضة العربية، ط2، القـاهرة، 1976م، ص10-15. وسيشار إليه تالياً : (عاشور، العصر المماليكي)؛ العريني، السيد الباز، المماليـك، دار النهضة العربية، (د.ط)، بيروت، (د.ت)، ص45-46. وسيشـار إليـه تاليـاً : (العرينـي، المماليك)؛ سليم، محمود رزق، عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمـي والأدبـي، مكتبـة الآداب، ط1، ق1، ج4، مج7، القاهرة، (د.ت)، ص178. وسيشار إليه تالياً: (سليم، عصـر سلاطين المماليك).

(2) المنصوري، بيبرس الدوادار (ت725هـ)، التحفة الملوكية فـي الدولـة التركيـة، تحقيـق عبدالحميد صالح حمدان، الدار المصرية اللبنانية، (د.ط)، (د.ت)، (د.م)، ص27. وسيشـار إليه تالياً: (المنصوري، التحفة).

(3) المنصوري، التحفة، ص28؛ العريني، المماليك، ص46.

لم يثنِ ما فعله السلطان المعز أيبك، الملك الناصر عن غزو مصر، فقد قام الأخير عام 648هـ/1250م بمحاولة للتحالف مع الملك الفرنسي لويس التاسع المقيم في عكا لاستعادة مصر، وقد عرض عليه مقابل ذلك تسليمه بيت المقدس(1).

رفض الملك لويس التاسع عرض الملك الناصر ، وفضل أن يقف على الحياد في هذا الصراع بعد أن هدده السلطان المعز أيبك بقتل أسرى الصليبيين المقيمين في مصر(2).

لما يئس الملك الناصر من مساعدة الملك لويس التاسع قام بحشد قواته والالتقاء مع القوات المملوكية قرب بلدة العباسة بين مدينتي بلبيس والصالحية، حيث كان النصر فيها في البداية، للملك الناصر، ولكن انضمام جماعة من جيشه إلى السلطان المعز أيبك رجح كفة الأخير، فانهزم الملك الناصر وقواته الشامية(3).

وفي سنة 650هـ/1252م اتفق السلطان المعز أيبك مع الملك لويس التاسع على القيام بحملة مشتركة لطرد الأيوبيين من الشام ، ووضعا خطة لذلك تقضي باستيلاء لويس التاسع على يافا، بينما يستولي السلطان المعز أيبك على غزة ، ثم يلتقي الطرفان ليتما الزحف على بقية الأمارات الأيوبية(4).

لما علم الملك الناصر بمخطط الطرفين أخذ يعد العدة مرة ثانية لغزو مصر كرد عليهما، وفي الوقت الذي كادت فيه الحرب على وشك الوقوع بين الطرفين، وصل رسول الخليفة العباسي المستعصم بالله الشيخ نجم الدين البادرائي إلى الشام، حيث

---

(1) العبادي، أحمد مختار، قيام دولة المماليك الأولى في مصر والشام، دار النهضة العربية، (د.ط)، بيروت، 1969م، ص125.وسيشار إليه تالياً : (العبادي، قيام)؛ شبارو، عصام محمد، السلاطين في المشرق العربي، دار النهضة العربية، (د.ط)، بيروت، 1994م، ص11. وسيشار إليه تالياً: (شبارو، السلاطين).

(2) العبادي، قيام، ص126؛ شبارو، السلاطين، ص11.

(3) أبو الفداء، المختصر، ج 2، ص291؛ ابن الوردي، زين الدين عمر (ت749هـ)، تاريخ ابن الوردي، منشورات المطبعة الحيدرية، (د.ط)، ج2، النجف، 1969م، ص266. وسيشار إليه تالياً: (ابن الوردي، تاريخ).

(4) العبادي، قيام، ص127؛ شبارو، السلاطين، ص11.

تمكن من عقد الصلح بين الطرفين [1] على أن يكون للملك الناصر الشام، وتبقى مصر بيد السلطان المعز أيبك[2]. وكان الخليفة العباسي يهدف من ذلك الصلح إلى توحيد الجهود الإسلامية لمواجهة الخطر المغولي الذي بدأ يهدد العالم الإسلامي[3].

وفي عام 654هـ/1256م جدد الملك الناصر صراعه مع السلطان المعز أيبك، ذلك أنه توجه بقواته إلى مصر لانتزاعها من المماليك، ولكن لم يكتب لحملته أن تستمر بسبب تدخل رسول الخليفة العباسي المشار إليه آنفاً، الذي نجح في تقرير الصلح بين الطرفين للمرة الثانية[4].

وقد اتفق بموجب هذا الصلح على أن يكون للملك الناصر الشام جميعه إلى العريش، وتبقى مصر بيد السلطان المعز[5].

تبنى الملك المغيث فتح الدين عمر بن الملك العادل أبي بكر بن أيوب صاحب إمارة الكرك الخطة التي ابتدأها الملك الناصر وهي استعادة مصر إلى حوزة الأيوبيين وإزاحة المماليك عنها، ففي عام655هـ/1257م قام بإرسال حملة عسكرية تجاهها، كانت بمعاونة المماليك البحرية المناوئين للدولة المملوكية في مصر، وكان مصير هذه الحملة الفشل بسبب تصدي الدولة المملوكية بأمر من الأتابك سيف الدين قطز، لها عند الصالحية في الشام[6].

وفي سنة 656هـ/1258م قاد الملك المغيث صاحب الكرك بتحريض من المماليك البحرية المظاهين للدولة المملوكية حملة أخرى نحو مصر [7]، حيث التقى

---

(1) المنصوري، بيبرس الدوادار(ت725هـ)، زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة، تحقيق دونالد س ريتشارد، مطبعة مؤسسة حسيب درغام وأولاده، ط 1، بيروت، 1998م، ص6.وسيشار إليه تالياً: (المنصوري، زبدة الفكرة).

(2) أبو الفداء، المختصر، ج2، ص293؛ ابن الوردي، تاريخ، ج2، ص271.

(3) العبادي، قيام، ص128؛ شبارو، السلاطين، ص12.

(4) المنصوري، زبدة الفكرة، ص19.

(5) أبو الفداء، المختصر، ج2، ص298.

(6) المنصوري، زبدة الفكرة، ص25.

(7) المصدر نفسه، ص25.

بالقوات المملوكية المصرية قرب الصالحية، وكانت النتيجة هزيمته وتراجعه إلى الكرك[1].

يلاحظ مما تقدم أن بلاد الشام ومصر في عصر بيبرس المنصوري كانت تعيش حالة من الفوضى وعدم الاستقرار السياسي.

2. الاجتياح المغولي للعراق والجزيرة الفراتية وبلاد الشام.

وفي الوقت الذي كانت فيه بلاد الشام ومصر تعاني من عدم الاستقرار السياسي، كانت القوات المغولية قد تغلغلت في بلاد فارس والعراق، حيث قامت بقيادة هولاكو بإسقاط الخلافة العباسية في بغداد، وقتل الخليفة المستعصم بالله عام 656هـ/1258م[2].

أدى سقوط الخلافة العباسية في العراق إلى إيقاع الرعب في نفوس العديد من زعماء العالم الإسلامي الذين سارعوا إلى تقديم فروض الطاعة لهولاكو، ومن هؤلاء الزعماء الملك الرحيم بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل الذي سار إلى هولاكو بالهدايا النفيسة، وقد ذكر بيبرس المنصوري أن الذي حداه إلى ذلك "الشفقة على رعيته والخوف على أهل مملكته أن يستأصلهم التتار ويحل بهم ما حل بأهل بغداد

---

(1) المنصوري، زبدة الفكرة، ص33.

(2) المنصوري، زبدة الفكرة، ص 35-40؛ اليونيني، موسى بن محمد (ت726هـ) ذيل مرآة الزمان، صحح بعناية وزارة التحقيقات الحكمية والأمور الثقافية للحكومة العالية الهندية، ط1، ج1، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر أباد، 1961م، ص85. وسيشار إليه تالياً: (اليونيني، ذيل)؛ ابن الوردي، تاريخ، ج2، ص279؛ مؤلف مجهول (منسوب لابن الفوطي)، الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة، تحقيق مصطفى جواد، المكتبة العربية، (د.ط)، بغداد، 1933م، ص325-327. وسيشار إليه تالياً : (مؤلف مجهول، الحوادث الجامعة)؛ إقبال، عباس، تاريخ المغول منذ حملة جنكيزخان حتى قيام الدولة التيمورية، ترجمة عبدالوهاب علّوب، (د.ط)، المجمع الثقافي، أبو ظبي، 2000م، ص200-202. وسيشار إليه تالياً: (إقبال، تاريخ).

من البوار"[1]. ويبدو أن بيبرس المنصوري كان خلال هذه الفترة في الموصل استناداً إلى ما ذكره أنه قدم إلى مصر عام 659هـ/1260م من الموصل[2].

كما اقتدى بفعل صاحب الموصل كل من الملك الناصر يوسف صاحب الشام الذي أرسل ولده إلى هولاكو بالهدايا الكثيرة والتحف النفيسة[3]. وسلاطين سلاجقة الروم لا سيما عز الدين كيكاؤس وركن الدين قلج أرسلان[4].

اتخذ هولاكو من العراق الذي أحكم سيطرته عليه منطلقاً لاستكمال خطته العسكرية التي كان مكلفاً بتنفيذها من قبل أخيه الإيلخان منكو قاآن، وأقصد بذلك السيطرة على الشام ومصر[5]، فقد تمكن بالفعل من احتلال ميافارقين وقتل صاحبها الملك الكامل ناصر الدين محمد بن الملك المظفر غازي الأيوبي عام 656هـ/1258م[6]. كما احتل بقية مدن الجزيرة الفراتية؛ ماردين ونصيبين وحران والرها وسروج والبيرة ومنبج[7].

بعد ذلك احتل هولاكو مدينة حلب وبذل السيف في أهلها بعد أن تركها صاحبها الملك الناصر يوسف عام 657هـ/1258م تلاقي مصيرها أمام الغزاة المغول[8]، ثم احتل هولاكو حماة[9]، ومن ثمَّ توجهت القوات المغولية إلى دمشق؛ أهم المدن الشامية فاستولت عليها دون أن تجد أية مقاومة من صاحبها الملك الناصر يوسف،

---

(1) المنصوري، زبدة الفكرة، ص42.

(2) المصدر نفسه، ص71.

(3) مؤلف مجهول، الحوادث الجامعة، ص339؛ المنصوري، زبدة الفكرة، ص43.

(4) المنصوري، زبدة الفكرة، ص47؛ ابن الوردي، تاريخ، ج2، ص287.

(5) الصياد، المغول، ج1، ص289.

(6) اليونيني، ذيل، ج 1، ص 91؛ مؤلف مجهول، الحوادث الجامعة، ص 340؛ المنصوري، زبدة الفكرة، ص40-41؛ الصياد، المغول، ج1، ص292-293.

(7) الصياد، المغول، ج1، ص293-294.

(8) مؤلف مجهول، الحوادث الجامعة، ص342؛ إقبال، تاريخ، ص208.

(9) ابن سباط، تاريخ، ج1، ص387.

فقد تخاذل وترك المدينة وأهلها إلى مصيرهم المحتوم [1]، وهرب منها و أخذ يتنقل من مكان لأخر حتى قتله هولاكو [2].

ويذكر بيبرس المنصوري أنه بانقضاء المملكة الناصرية انقضت الدولة الأيوبية من البلاد الشامية [3].

لم يستمر هولاكو في اجتياحه للعالم الإسلامي، فقد ردت قواته التي كان يقودها كتبغا نوين والبالغ تعدادها اثنا عشر ألف مقاتل لاحتلال مصر على أعقابها في معركة عين جالوت 658هـ/1260م التي وقعت بينها وبين القوات المملوكية القادمة من مصر تحت قيادة السلطان المظفر قطز، واضطرت إلى الانسحاب والتراجع إلى العراق بعد مطاردة الأمير ركن الدين بيبرس البندقداري لها [4].

وبموجب هذه الوقعة أصبحت بلاد الشام جزءاً لا يتجزأ من دولة المماليك البحرية [5]، وبالتالي ستكون المسرح الذي سيواجه به المماليك المغول الذين أسسوا لهم في العراق دولة عرفت بالدولة الإيلخانية [6] جعلوها قاعدة عسكرية غايتها الدفاع عن نفسها، والتصدي لدولة المماليك البحرية التي أصبحت تشكل تهديداً حقيقياً للمغول بعد انتصارها في موقعة عين جالوت.

عاصر بيرس المنصوري عقب موقعة عين جالوت خلال الفترة الممتدة بين سنتي (659-725هـ/1260-1324م) عهود كلمن السلطان الظاهر بيبرس (659-676هـ/1260-1277م)، والسلطان السعيد محمد بركة خان (676-678هـ/1277-1279م)، والسلطان المنصور قلاوون

---

(1) المنصوري، زبدة الفكرة، ص50؛ المنصوري، التحفة، ص43.

(2) المنصوري، زبدة الفكرة، ص52.

(3) المصدر نفسه، ص49.

(4) اليونيني، ذيل، ج1، ص360-361؛ ابن الوردي، تاريخ، ج2، ص295؛ ابن سباط، تاريخ، ج1، ص391-392؛ مؤلف مجهول، الحوادث الجامعة، ص344؛ عاشور، العصر المماليكي، ص32-36.

(5) الصياد، المغول، ج1، ص315؛ عاشور، العصر المماليكي، ص36.

(6) شبارو، السلاطين، ص71.

(678-689هـ/1279-1290م)، والسلطان الأشرف خليل (689-693هـ/1290-1293م)، والسلطان الناصر محمد سلطنته الأولى - (693-694هـ/1293-1294م)، والسلطان العادل كتبغا المنصوري (694-696هـ/1294-1296م)، والسلطان المنصور حسام الدين لاجين (696-698هـ/1296-1298م)، والسلطان الناصر محمد -سلطنته الثانية - (698-708هـ/1298-1308م)، والسلطان ركن الدين بيبرس الجاشنكير (708-709هـ/1308-1309م)، والسلطان الناصر - سلطنته الثالثة - (709-741هـ/1309-1340م).[1]

وقد شهد خلال الفترة التي رافق فيها دولة المماليك البحرية والتي كانت في أوج قوتها، تحديين كبيرين هما:

1. التهديدات المغولية الإيلخانية.

سعى المماليك بعد موقعة عين جالوت إلى تدعيم أركان دولتهم الناشئة، فبدأوا بتوفير أسباب الأمن لها، وذلك بإيقاف تحركات العناصر المناوئة لهم آنذاك.

ويعد المغول من أبرز تلك العناصر، إذ إن خطرهم ألجأ السلطان الظاهر بيبرس بعد تمركزهم في العراق -إلى أن يتبنى قضية استنقاذه (العراق) منهم، وإحياء الخلافة العباسية لإعادتها إليها.

تحقيقاً لهدفه رحب عام 659هـ/1260م بقدوم أحد الأمراء العباسيين وهو أبو القاسم أحمد إلى مصر، حيث استقبله وبايعه بالخلافة بعد استكمال الإجراءات والتأكد من نسبه، ثم لقبه بالمستنصر بالله[2].

جهز السلطان الظاهر لاستنقاذ العراق من المغول حملة عسكرية جعل قيادتها للخليفة الجديد الذي من خلالها استطاع أن يخترق العديد من المدن العراقية، ولكن حملته لم يكتب لها النجاح بسبب تصدي المغول لها عند مدينة الأنبار، فقد تشتت

(1) المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي (ت845هـ)، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف بالخطط المقريزية، تحقيق محمد زينهم ومديحة الشرقاوي، مكتبة مدبولي، ط1، ج3، القاهرة، 1998م، ص126-129. وسيشار إليه تالياً: (المقريزي، الخطط).

(2) اليونيني، ذيل، ج1، ص441-442؛ العبادي، قيام، ص182-184.

قواته بعد أن قتل [1]. وقدرذكيبيرس المنصوري أن الحملة لما خرجت إلى بلاد الشام والعراق كان هو موجوداً في مصر [2]، وكان يومئذ يبلغ أربعة عشر عاماً.

حصل بعد فشل استنقاذ العراق تحول في سياسة المغول والمماليك، كل تجاه الآخر، أما المغول، فقد تحولوا إلى سياسة الهجوم، وقاموا بشن هجمات على بلاد الشام، في حين أن المماليك تحولوا إلى الدفاع، وقاموا برصد التحركات العسكرية المغولية على جبهة الفرات، وتصدوا لها، ففي عام 663هـ/1264م شن المغول هجوماً على البيرة بقيادة درباي الذي تراجع عنها بعد وصول الخبر إليه بخروج السلطان الظاهر إليه [3].

وفي عام 665هـ/1266م شن المغول هجوماً على حلب، ولكنهم لم يستمروا بهجومهم بسبب تصدي السلطان الظاهر لهم [4].

عاود المغول في عام 669هـ/1269م بقيادة صمغار الهجوم على الساجور قرب حلب، فخرج إليهم السلطان الظاهر، وأنزل بهم هزيمة [5]. ثم قاموا بعد ذلك بعام أي سنة 670هـ/1271م بشن هجوم على عين تاب وعمق حارم، وقد تمكن السلطان الظاهر من الإيقاع بهم وإحباط هجومهم [6].

---

(1) سليم، عصر سلاطين المماليك، مج 2، ق2، ج1، ص250؛ المولى، سالم، العراق في السياسة المملوكية، رسالة ماجستير غير منشورة، إشراف أحمد الحسّو، جامعة الموصل، 1989 م، ص18-27. وسيشار إليه تالياً: (المولى، العراق).

(2) المنصوري، زبدة الفكرة، ص71.

(3) ابن عبدالظاهر، محي الدين عبدالله (ت692هـ)، الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر، تحقيق عبدالعزيز الخويطر، ط1، الرياض، 1976م، ص221-224وسيشار إليه تالياً: (ابن عبدالظاهر، الروض الزاهر)؛ سرور، محمد جمال الدين، دولة الظاهر بيبرس في مصر، دار الفكر العربي، (د.ط)، القاهرة، (د.ت)، ص93-94وسيشار إليه تالياً: (سرور، دولة الظاهر).

(4) المنصوري، زبدة الفكرة، ص107.

(5) المنصوري، زبدة الفكرة، ص123-124؛ المولى، العراق، ص30-31.

(6) ابن عبدالظاهر، الروض الزاهر، ص395-396؛ سرور، دولة الظاهر، ص96-97.

لم تتوقف هجمات المغول عند هذا الحد، ففي سنة 671هـ/1272م أغاروا على البيرة، واستطاع السلطان الظاهر أن يلحق بهم هزيمة عظمى بالقرب من الفرات[1] كما أغاروا في العام التالي (أي 672هـ/1273م) على بلاد الشام كرد على الهزيمة التي لحقت بهم في موقعة الفرات، وهنا أيضاً تصدى الظاهر لهم، وقفلوا عائدين إلى قاعدتهم العسكرية في العراق[2].

كذلك عاودوا في عام 674هـ/1275م الهجوم على البيرة بقيادة أبطاي الذي لم يلبث أن تراجع عنها لوصول الخبر إليه بتحالف سلاجقة الروم مع السلطان الظاهر[3] كما أغاروا على كوكوصو (النهر الأزرق) عام 675هـ/1276م، وقد استطاع السلطان الظاهر أن يتصدى لهم في موقعة الأبلستين[4] ويلحق بهم وبسلاجقة الروم الذين انقلبوا عليه بعد تحالفهم معه هزيمة كبرى[5].

وفي السلطان المنصور قلاوون أغار المغول على حلب سنة 679هـ/1280م فتصدى لهم السلطان الجديد وقفلوا راجعين لبلادهم[6]، ثم تكرر هجومهم عليها سنة 680هـ/1281م، وقد تمكن السلطان المنصور قلاوون أن يلحق

---

(1) ابن عبدالظاهر، الروض الزاهر، ص 405-408؛ ابن الوردي، تاريخ، ص 315؛ إقبال، تاريخ، ص227.

(2) المنصوري، زبدة الفكرة، ص140.

(3) المصدر نفسه، ص141.

(4) الأبلستين: مدينة تقع في بلاد الروم. انظر الحموي، شهاب الدين أبي عبدالله ياقوت ابن عبدالله البغدادي (ت626هـ)، معجم البلدان، دار صادر، (د.ط)، مج1، بيروت، 1979م، ص75. وسيشار إليه تالياً: (الحموي، معجم البلدان)؛ البغدادي، صفي الدين عبدالمؤمن ابن عبدالحق (ت739هـ)مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، تحقيق و تعليق علي محمد البجاوي، دار الجيل، ط 1، مج1، بيروت، 1992م، ص17-18 وسيشار إليه تالياً : (البغدادي، مراصد الاطلاع).

(5) سرور، دولة الظاهر، ص99؛ شبارو، السلاطين، ص81؛ إقبال، تاريخ، ص228.

(6) المنصوري، زبدة الفكرة، ص189؛ المنصوري، التحفة، ص94-95.

بهم هزيمة عظمى في موقعة حمص [1] التي يذكر بيبرس المنصوري أنـه شـهدها وشارك فيها[2].

لم تتوقف هجمات المغول علـى بـلاد الشـام، فقـد أغـاروا عليهـا عـام 699هـ/1299م بقيادة إيلخانهم محمود غازان الذي استطاع أن يهـزم السـلطان الناصر محمد في موقعة مجمع المروج (وادي الخزندار)، وأن يجتاح بـلاد الشـام التي سرعان ما استعادها السلطان الناصر بعد ترتيب صفوف قواته[3].

وقد ذكر بيبرس المنصوري أنه أثناء هجوم المغول هذا كـان نائبـاً للسـلطان الناصر في قلعة الجبل بالقاهرة، ولذلك عندما هُزم السلطان في الموقعة المشار إليها قام بادعاء أن السلطان قد انتصر على المغول بهدف إزالة الشكوك لدى العامة فـي مصر، وحتى لا يقوموا بفتنة[4].

عاود المغول هجومهم بقيادة محمود غازان على بلاد الشام للمرة الثانيـة عـام 700هـ/1300م، فقام السلطان الناصر باتخاذ العديد من الإجراءات للتصـدي لهم، ولكن الظروف الجوية حالت دون اصطدام الطرفين مما دفعهما للتراجع كـل لبلاده[5].

---

(1) عاشور، العصر المماليكي، ص47؛ إقبال، تاريخ، ص231؛ شبارو، السلاطين، ص81.

(2) المنصوري، زبدة الفكرة، ص198 -199.

(3) ابن أيبك الدواداري،عبدالله (ت736هـ)، كنز الدرر وجامع الغرر، تحقيق هانس روبـرت رويمر، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشـر، (د.ط)، ج9، القـاهرة، 1960م، ص15 -17.وسيشار إليه تالياً :(ابن أيبك الدواداري، كنز الدرر)؛ حسن، علـي إبـراهيم، تـاريخ المماليك البحرية، مكتبـة النهضـة المصـرية، (د.ط)، القـاهرة، (د.ت)، ص148 -149. وسيشار إليه تالياً: (حسن، تاريخ).

(4) المنصوري، التحفة، ص156 -157.

(5) المنصوري، زبدة الفكرة، ص350؛ المنصوري، التحفة، ص160.

وفي سنة 702هـ/1302م أعاد محمود غازان هجومه للمرة الثالثة على بلاد الشام فتصدى له السلطان الناصر الذي استطاع أن يلحق به هزيمة كبرى في مرج الصُّفَّر[1] [بدمشق]، وبذلك يكون قد ثأر لهزيمته في مجمع المروج.

ويشير بيبرس المنصوري إلى أنه كان له مشاركة في هذه الموقعة، فقد كان في ميسرة الجيش المملوكي[2].

2. تصفية الوجود الإفرنجي (الصليبي) في بلاد الشام.

تراجع المماليك بعد عام 661هـ/1262م عن سياستهم الهادفة إلى استنقاذ العراق من المغول، وذلك بسبب خشيتهم أن يستغل الإفرنج غيابهم عن البلاد، والقيام باحتلال مصر، لذا فقد تبنى السلطان الظاهر ومن أعقبه من السلاطين خطة تهدف لاستئصال شأفة الإفرنج من بلاد الشام للتفرغ بعد ذلك لتحرير العراق وإزاحة الخطر المغولي[3].

بدأ السلطان الظاهر تنفيذ خطته هذه بمهاجمة الإمارات الإفرنجية، ففي عام 663هـ/1264م تمكن من تحرير قيسارية[4]، وأرسوف[5] التي يذكر بيبرس المنصوري أنه شارك في تحريرها[6].

---

(1) المنصوري، زبدة الفكرة، ص 375-378؛ المنصوري، التحفة، ص 166-168؛ حسن، تاريخ، ص 157-158.

(2) المنصوري، زبدة الفكرة، ص375-377؛ المنصوري، التحفة، ص165-166؛ المنصوري، بيبرس الدوادار (ت725هـ)، مختار الأخبار، حققه وقدم له ووضع فهارسه عبدالحميد صالح حمدان، الدار المصرية اللبنانية، (د.ط)، (د.ت)،(د.م)، ص124-126. وسيشار إليه تالياً: (المنصوري، مختار).

(3) المولى، العراق، ص39.

(4) ابن عبدالظاهر، الروض الزاهر، ص 230-231؛ الغامدي، عبدالله سعيد محمد، جهاد المماليك ضد المغول والصليبيين في النصف الثاني من القرن السابع الهجري، مركز بحوث الدراسات الإسلامية، (د.ط)، (د.ت)مكة المكرمة، ص 169-170وسيشار إليه تالياً : (الغامدي، جهاد المماليك).

(5) ابن عبدالظاهر، الروض الزاهر، ص235-237؛ الغامدي، جهاد المماليك، ص171.

(6) المنصوري، زبدة الفكرة، ص96.

كما قام بالإغارة على القلاع المحيطة بطرابلس سنة 664هـ/1265م وتحريرها من قبضة الإفرنج[1]، وقد ذكر بيبرس المنصوري أنه شارك في تحريرها[2]، ثم أعقبها السلطان بغزو مدينة صفد وتحريرها[3].

وفي سنة 666هـ/1267م هاجم السلطان الظاهر مدينة يافا، واستطاع أن يحررها بالصلح إثر مطالبة أهلها من الإفرنج بذلك[4]. كذلك هاجم في السنة ذاتها حصن شقيف أرنون[5] وأنطاكية[6]، واستطاع تحريرهما وقد شهد بيبرس المنصوري تحرير المدينة الأخيرة كما يذكر هو نفسه[7].

لم يتوقف السلطان في خطته هذه عند هذا الحد، بل واصل غاراته على ما تبقى من الإمارات الإفرنجية الموجودة على طول الشريط الساحلي لبلاد الشام، ففي عام 669هـ/1270م أغار على ثلاثة حصون إفرنجية هي حصن الأكراد[8]، وحصن عكار[9]، وحصن القرين[10]، وتمكن من تحريرها.

بعد ذلك بأربع سنوات، أي عام 673هـ/1274م قام السلطان الظاهر بغزو حصن القصير، وقد استطاع تحريره دون قتال[11].

تابع السلطان المنصور قلاوون الخطة التي ابتدأها سلفه الملك الظاهر تجاه الإفرنج، ففي عام 684هـ/1285م هاجم المنصور قلاوون حصن المرقب، وتمكن

---

(1) ابن عبدالظاهر، الروض الزاهر، ص251-252.

(2) المنصوري، زبدة الفكرة، ص103-104؛ المنصوري، التحفة، ص56-57.

(3) ابن عبدالظاهر، الروض الزاهر، ص260-263؛ الغامدي، جهاد المماليك، ص173-174.

(4) ابن عبدالظاهر، الروض الزاهر، ص292-294؛ الغامدي، جهاد المماليك، ص184-185.

(5) ابن عبدالظاهر، الروض الزاهر، ص295-298؛ الغامدي، جهاد المماليك، ص185-187.

(6) ابن عبدالظاهر، الروض الزاهر، ص307-309؛ الغامدي، جهاد المماليك، ص188-191.

(7) المنصوري، زبدة الفكرة، ص111.

(8) ابن عبدالظاهر، الروض الزاهر، ص 375-377؛ أبو الفداء، المختصر، ج 2، ص336-337.

(9) ابن عبدالظاهر، الروض الزاهر، ص379-380؛ أبو الفداء، المختصر، ج2، ص337.

(10) ابن عبدالظاهر، الروض الزاهر، ص385-386؛ أبو الفداء، المختصر، ج2، ص337.

(11) ابن عبدالظاهر، الروض الزاهر، ص443-444.

من تحريره[1] كما هاجم إمارة طرابلس في سنة 688هـ/1289م، واستطاع أن يحررها بعد أن قتل أعداداً كبيرة من أهلها[2].

استمرت عملية التحرير بعد المنصور قلاوون، فقد تمكن خلفه السلطان الأشرف خليل من إنهاء الاحتلال الصليبي لبلاد الشام، وذلك سنة 690هـ/1291م، حين قام بتحرير عكا[3] وقد شهد بيبرس المنصوري هذا التحرير، و كان له دور بارز فيه كما ذكر هو نفسه[4]، و سيتم تفصيل ذلك لاحقاً.

وفي أعقاب سقوط عكا قام الإفرنج في المدن التالية : صور وصيدا وعثليث وبيروت وحيفا بالتسليم للسلطان الأشرف خشية أن يفعل بهكما فعل بأهل عكا من القتل[5].

في ظل هذه الظروف ترعرع بيبرس المنصوري، فمن هو هذا الرجل؟ وما تأثير أحداث ومتغيرات عصره عليه، وما هو أصله وثقافته؟ وكيف انعكس ذلك على ثقافته ودوره في التأريخ لدولة المماليك البحرية؟

3.1 حياة بيبرس المنصوري

1.3.1 اسمه ونسبه

أوردت أغلب المصادر التي ترجمت لحياة بيبرس المنصوري الدوادار اسمه ونسبه بالصيغة التالية: بيبرس الخطائي المنصوري الدوادار[6]، وفي حين أنها

(1) أبو الفداء، المختصر، ج2، ص355.

(2) المصدر نفسه، ج2، ص357-358.

(3) المصدر نفسه، ج2، ص359-360.

(4) المنصوري، زبدة الفكرة، ص278-280؛ المنصوري، التحفة، ص126-127؛ المنصوري، مختار الأخبار، ص91-92.

(5) أبو الفداء، المختصر، ج2، ص361.

(6) الذهبي، أبو عبدالله شمس محمد بن أحمد بن عثمان (ت748هـ)، العبر في خبر من غبر، تحقيق محمد السعيد بن بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية، ط1، ج4، بيروت، 1985م، ص74. وسيشار إليه تالياً : (الذهبي، العبر)؛ الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك (ت764هـ)، أعيان العصر وأعوان النصر، تحقيق علي أبو زيد ونبيل أبو عمشه ومحمد

أغفلت اسم والد فأن ابن تغري بردي (ت874هـ/1430م) ذكر أنه: "بيبرس ابن عبدالله"[1]، ويبدو أن هذه الإضافة في نسبه تعود إلى أحد أمرين أولهما أن يكون (ابن عبدالله) كنية لبيبرس المنصوري عُرف بها لورعه و تقواه، وهذا الرأي تبناه محقق التحفة الملوكية عبدالحميد صالح حمدان [2]، أو أن يكون - وهو الرأي الأرجح - قد أضيف إلى نسبه لعدم معرفة اسم أبيه ، وهو تصرف معمول به في عصر المماليك تجاه من لا يعرف اسم أبيه على ما يذكر السخاوي[3].

موعد ومحمود سالم محمد، دار الفكر، ط1، ج2، دمشق، 1998م، ص79. ترجمه رقم"497".وسيشار إليه تالياً : (الصفدي، أعيان العصر)؛ ابن حبيب، حسن بن عمر ابن الحسن ابن عمر (ت779هـ)، تذكرة النبيه في أيام المنصور وبنيه، تحقيق محمد محمد أمين، مطبعة دار الكتب، (د.ط)، ج2، (د.م)، 1982م، ص158. وسيشار إليه تالياً: (ابن حبيب، تذكرة النبيه)؛ ابن حجر العسقلاني، شهاب الدين أحمد (ت852هـ)، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، تحقيق محمد سيد جاد الحق، مطبعة المدني، ط2، ج2، مصر، 1966م، ص43. ترجمة رقم "1384".وسيشار إليه تالياً :(ابن حجر، الدرر الكامنة)؛ الداري، تقي الدين بن عبدالقادر التميمي الغزي (ت1005هـ)، الطبقات السنية في تراجم الحنفية، تحقيق عبدالفتاح محمد الحلو، دار الرفاعي، ط1، ج2، الرياض، 1983م، ص259. ترجمة رقم" 582 "وسيشار إليه تالياً : (الداري، الطبقات)؛ ابن العماد الحنبلي، أبو الفلاح عبدالحي (ت1089هـ)، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، دار إحياء التراث العربي، (د.ط)، ج6، بيروت، (د.ت)، ص66.وسيشار إليه تالياً : (ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب)؛ ابن الغزي، شمس الدين محمد ابن عبدالرحمن (ت1167هـ)، ديوان الإسلام، تحقيق سيد كسروي حسن، ط1، ج1، بيروت، 1990م، ص207.ترجمة رقم "315". وسيشار إليه تالياً: (ابن الغزي، ديوان).

(1) ابن تغري بردي، جمال الدين أبو المحاسن يوسف (ت874هـ)، المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي، تحقيق نبيل محمد عبدالعزيز، مطبعة دار الكتب، (د.ط)، ج3، مصر، 1985م، ص477. ترجمة رقم "722".وسيشار إليه تالياً : (ابن تغري بردي، المنهل الصافي).

(2) المنصوري، التحفة، ص7. (مقدمة المحقق الحاشية).

(3) السخاوي، محمد بن عبدالرحمن (ت902هـ)، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، منشورات دار مكتبة الحياة، (د.ط)، ج3، (د.م)، (د.ت)، ص74.

أما فيما يتعلق بأسرته ، فيلاحظ أن المصادر المشار إليها لم تذكر أية معلومة عنهاسواء ما يخص والده - كما سلف - أو والدته أو إخوته أو أقاربه، بل أن بيبرس نفسه لم يذكر شيئاً عنهغير أن ما هو متفق عليه أن الأسرة ترجع في أصولها إلى قبائل الخطا فمن هي هذه القبائل؟ وأين كانت تقطن ؟ وهل كان لها دور على الصعيد السياسي؟

أشار القلقشندي (ت821هـ/1418م) إلى أن هذه القبائل هي من جنس الترك وأنهم كانوا يقطنون البلاد المتاخمة لبلاد الصين[(1)].

قد كانت هذه القبائل متفرقة، إلى أن ظهر من بينها زعيم قوي في بداية القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي استطاع أن يخضعها لسلطته، وينصب نفسه إمبراطوراً عليها من سنة 304-315هـ/916-927م، وهذا الزعيم هو تاي تسو ، ثم تمكن خلفه من بعده أن يخضع شمال بلاد الصين، ومنح أسرته لقب لياو (Liao) نسبة إلى الإقليم المسمى بهذا الاسم. وقد استمرت هذه الأسرة تحكم من سنة 304-519هـ/916-1125م[(2)].

اضطرت هذه القبائل في النصف الأول من القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي إلى ترك موطنها الأصلي في شمال الصين والهجرة إلى إقليم تركستان، وذلك لأن أقاليم الصين تداول حكمها عدة أسرات متعاقبة، كانت تقضي الواحدة منها على الأخرى مستغله فترة ضعفها وانحلالها.

بقيت بلاد الصين في حالة الفوضى وعدم الاستقرار السياسي إلى أن تمكنت أسرة سونج (349-521هـ/960-1127م) من توحيد هذه البلاد، وفرض هيمنتها عليها، لكن يجاورها في الشمال قبائل الخطا في جنوب منشوريا في الإقليم المعروف باسم إقليم لياو (Liao)، وقد كان هؤلاء الخطا يتميزون بالقوة ، بحيث تمكنوا بعد فترة أن يفرضوا على أسرة سونج جزية سنوية ، كما تدفعها خشية

(1) القلقشندي، أحمد بن علي (ت821هـ)، صبح الأعشى في صناعة الانشا، تحقيق محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، ط1، ج4، بيروت، 1987م، ص481. وسيشار إليه تالياً: (القلقشندي، صبح الأعشى).

(2) الصياد، المغول، ج1، ص23.

منهم[1]. فضلاً عن ذلك كانت قبائل الخطا تسيطر على أقاليم الصين الشمالية [2]، بيد أن تأثرهم في تيار المدنية وانبهارهم بالحضارة الصينية أفقدهم روحهم الحربية الأمر الذي جعل الضعف يتطرق لهم، فانتهز هذه الفرصة "أسرة كين" التي كانت تسكن في أحد أقاليم منشوريا، وكانوا تابعين للخِطا، فحارب هؤلاء سادتهم الذين لم يستطيعوا مقاومتهم، وأدى هذا بالتالي إلى انهيار دولة الخطا سنة 519هـ/1125م[3].

ومن الجدير بالذكر أنه قبيل سقوط دولة الخِطا في الصين بعامين هرب أحد أمرائها وهو "بي لوتاشي" تجاه غرب أسيا وتحديداً إلى إقليم تركستان الذي تمكن من إخضاعه لسلطته، وتأسيس دولة هناك عام 519هـ/1125م عرفت بـ "الدولة القراخطائية" التي امتدت حدودها في عهد المشار إليه من صحراء جوبي إلى نهر سيحون، ومن هضبة التبت إلى سيبيريا، وقد اتخذت الدولة من البوذية ديانة رسمية لها[4].

كان لتأسيس هذه الدولة ومتاخمتها لأملاك المسلمين من الأمور التي شغلت أذهان القوى الإسلامية في ذلك الوقت،لأن وجود الخِطا أثار المتاعب للمسلمين في الدولة السلجوقية، والدولة الخوارزمية الناشئة[5].

ابتدأ بي لوتاشي بمحاولة التوسع على حساب القوى الإسلامية المشار إليهما، مستغلاً ظروفها الداخلية ، فالدولة السلجوقية بدأت تتدهور بفعل الانقسام والتنازع بين

---

(1) حمدي، حافظ أحمد، الدولة الخوارزمية والمغول، دار الفكر العربي، (د.ط)، القاهرة، 1949م، ص60.وسيشار إليه تالياً : (حمدي، الدولة الخوارزمية). انظر أيضاً الصياد، المغول، ج1، ص23.

(2) حمدي، الدولة الخوارزمية، ص60.

(3) حمدي، الدولة الخوارزمية، ص60؛ الصياد، المغول، ج1، ص23 -24.

(4) حمدي، الدولة الخوارزمية، ص62 -63.

(5) المرجع نفسه، ص63.

أفراد أسرتها فضلاً عن تقاسمها أقاليم الدولة فيما بينها. أما الدولة الخوارزمية، فقد كانت في طور التأسيس[1].

استغل بي لوتاشي الأوضاع التي كانت عليها القوى الإسلامية، فقام بتوسيع أملاكه في بعض بلاد ما وراء النهر في أواخر عهد السلطان الخوارزمي قطب الدين محمد خوارزم شاه الذي خشي توسع الخِطا هناك، فسار في مائة ألف رجل لقتالهم إلا أنه هُزم أمام إمبراطور الخِطا بي لوتاشي، فاضطر أخيراً لدفع جزية سنوية لهم[2]. كما استغل الخطا الصراع الذي نشب بين السلطان سنجر السلجوقي والسلطان أتسز خوارزم شاه فاندفعوا في السنة التي توفي فيها بي لوتاشي -أي عام 536هـ/1141م بعد استعانة السلطان أتسز خوارزم شاه بهم ضد سلاجقة المشرق- إلى بلاد ما وراء النهر في ثلاثمائة ألف فارس، و استطاعوا أن يوقعوا بالسلطان سنجر وقواته هزيمة كبرى[3]. كما أسفرت الموقعة عن نتائج هامة كانت تصب في مصلحة الخطا، ويمكن إجمالها بما يلي:

1. أصبحت أراضي بلاد ما وراء النهر تخضع للحكم القراخِطائي، مما أثار مخاوف الخوارزميين والسلاجقة معاً.

2. كذلك أضعفت هذه الهزيمة السلاجقة في فارس و خراسان، مما ساعد على تقوية نفوذ الخوارزميين هناك[4].

3. أضف إلى ذلك أن الخِطا بعد ذلك الانتصار أصبحوا مجاورين لأملاك الخوارزميين، وهذا دفعهم في سنة 537هـ/1142م إلى التوسع في أراضيهم الواقعة غربي نهر جيحون لا سيما سرخس ومرو ونيسابور، ولكن أدرك

---

(1) حمدي، الدولة الخوارزمية، ص64.

(2) المرجع نفسه، ص64.

(3) ابن الأثير، عزالدين أبي الحسن علي بن أبي الكرم (ت630هـ)، الكامل في التاريخ، دار صادر، (د.ط)، بيروت، (د.م)، مج11، ص81.وسيشار إليه تالياً: (ابن الأثير، الكامل)؛ حمدي، الدولة الخوارزمية، ص64-65.

(4) حمدي، الدولة الخوارزمية، ص65.

الخطر توسعهم في تلك الأراضي، فعادوا أدراجهم، واكتفوا بأن يكون نهر جيحون هو الحد الفاصل بينهم وبين الخوارزميين[1].

عاود الخطا هجومهم على الأراضي الخوارزمية في سنة 567هـ/1171م، وذلك بسبب خشيتهم من اتساع النفوذ الخوارزمي، بخاصة بعد وراثتهم أملاك الدولة السلجوقية في فارس وخراسان أثر وفاة آخر سلاطينهم سنجر بن ملكشاه عام 552هـ/1157م[2].

سارع السلطان الخوارزمي الجديد أيل أرسلان بن أتسز المتوفى في سنة 551هـ/1156م إلى حشد قواته لمواجهة الخطا، وقد تم اللقاء بين الطرفين، فانهزم السلطان الخوارزمي، ومع ذلك عاد الخطا إلى بلاد ما وراء النهر، مكتفين بما حققوه من نصر على الخوارزميين[3].

بعد هذا استغل الخطا وفاة أيل أرسلان سنة 568هـ/1172م والصراع الذي حدث بين أبنائه على عرش الدولة الخوارزمية، وحاولوا التدخل في شؤونهم لإحكام السيطرة على دولتهم من خلال استعانة الابن الأكبر لأيل أرسلان "علاء الدين تكش" ضد أخيه الأصغر سلطانشاه محمود مغتصب العرش منه، فقد أمدوه بجيش مقابل أن يخضع لسلطتهم، ويدفع لهم مبلغاً من المال.

وافق علاء الدين تكش على مطالبهم فسيروا معه جيشاً استطاع من خلاله استعادة عرشه المغتصب. وأنكر بعد ذلك الوعود التي وعدها الخطا.

انتهز سلطانشاه هذه الفرصة، واقنع الخطا بتسيير حملة عسكرية ضد أخيه تكش الذي تصدى لهم في سنة 568هـ/1172م، والحق بهم هزيمة كبرى بالقرب من نهر جيحون[4]، وبقي سلطانشاه يتنقل من مكان لآخر حتى وافته المنية سنة 589هـ/1193م[5].

---

(1) حمدي، الدولة الخوارزمية، ص65-66.
(2) المرجع نفسه، ص66-67.
(3) المرجع نفسه، ص67.
(4) ابن الأثير، الكامل، مج11، ص377-379.
(5) ابن الأثير، الكامل، مج12، ص104؛ حمدي، الدولة الخوارزمية، ص67-71.

لم تتوقف هجمات الخِطا على الدولة الخوارزمية عند هذا الحد، فقد قاموا عام 594هـ/1197م بشن هجوم عليها، و لكن علاء الد ين تكش استطاع أن يصد ذلك الهجوم، ويلحق بهم هزيمة راح ضحيتها عدد كبير من الخِطا[1].

ومع أن علاء الدين تكش انتصر عليهم سنة 594هـ/1197م، غير أنه تحرى ألا يقضي على دولتهم بشكل نهائي، فإنه عقد معهم معاهدة اتفق معهم فيها على دفع جزية سنوية لهم، كما أوصى ولده علاء الدين خوارزم شاه من بعده بالمحافظة على الدولة القراطائية، لأنها بمثابة حصن قوي بين الدولة الخوارزمية و المغول في الشرق[2].

لم يأبه السلطان محمد بوصية والده، ذلك أنه ما أن تولى عرش الدولة الخوارزمية حتى قام بمحاولتين للقضاء على الدولة القراخطائية الأولى كانت في سنة 605هـ/1208م، وقد انتهت هذه المحاولة بالفشل[3]. أما الثانية، فكانت في السنة التالية (606هـ/1209م) وقد تمكن من خلالها إلحاق هزيمة كبرى بالخِطا، وأن يسيطر على أملاكهم في بلاد ما وراء النهر[4].

وفي هذه الفترة من التاريخ كان جنكيزخان قد وحد القبائل الموجودة في أقاليم آسيا الشرقية، وكان من ضمنها قبائل النيمان (Naimans) التي هرب خانها المسمى "كشلو" إلى الدولة القراخطائية، واستطاع أن يعتلي عرشها بمساعدة من الخوارزميين[5].

أخذ كشلو بعد ذلك يقوي نفوذه في الأقاليم الشرقية التابعة للمغول، مما اثار زعيمهم جنكيزخان ضده، فزحف تجاه الدولة القراخطائية، وتمكن من إسقاطها عام 615هـ/1218م[6].

---

(1) حمدي، الدولة الخوارزمية، ص72-73.
(2) المرجع نفسه، ص73.
(3) المرجع نفسه، ص75.
(4) المرجع نفسه، ص76.
(5) المرجع نفسه، ص77-78.
(6) المرجع نفسه، ص79-80.

أدى سقوط هذه الدولة إلى كارثة كبرى ، فقد بدأ المغول باجتياح العالم الإسلامي دولة تلو دولة.

يفهم مما تقدم أن أصول بيبرس المنصوري ترجع إلى الأتراك الخِطائيين الذين كان لهم دور مهم على المسرح السياسي في شرق آسيا (شمال الصين) حين أسسوا لهم دولة هناك، ثم تحولوا إلى غرب آسيا (إقليم تركستان) مجاورين للدولة الخوارزمية حيث أسسوا الدولة القراخِطائية التي استمرت أكثر من قرن، لتسقط بعد ذلك على يد المغول.

ويظهر أن اجتياح المغول للدولة القراخِطائية قد دفع بالكثير من أهلها إلى الهجرة تجاه العالم الإسلامي بمن فيهم أسرة بيبرس المنصوري.

2.3.1 مولده ونشأته

لم تحدد المصادر تاريخ ولادة بيبرس المنصوري، غير أنه بالإمكان إعطاء تاريخ تقريبي لذلك و هو عام 645هـ/1247م استناداً إلى أنه توفي عام 725هـ/1324م، وهو يناهز الثمانين[1].

أما مكان ولادته، فليس ثمة معلومات في المصادر أيضاً عنه، أما ما ذكره

---

(1)الذهبي، العبر، ج 4، ص74؛ الصفدي،صلاح الدين خليل بن أيبك (ت764هـ)، الوافي بالوفيات، اعتناء جاكلين سوبله وعلي عمارة، ط 2، ج10، (د.م)، 1991م، ص352. ترجمة رقم "4846".وسيشار إليه تالياً : (الصفدي، الوافي)؛ ابن حبيب، تذكرة النبيه، ج 2، ص158؛ المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي (ت845هـ) المقفى الكبير، تحقيق محمد اليعلاوي، ط1، ج2، بيروت، 1991م، ص533. ترجمة رقم "1003"وسيشار إليه تالياً : (المقريزي، المقفى)؛ ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج 3، ص477. ترجمة رقم "722"؛ ابن تغري بردي، جمال الدين أبو المحاسن يوسف (ت874هـ)، الدليل الشافي على المنهل الصافي، تحقيق فهيم محمد شلتوت، مطبعة دار الكتب المصرية، ط 2، ج1، القاهرة، 1998م، ص205. ترجمة رقم "720".وسيشار إليه تالياً : (ابن تغري بردي، الدليل الشافي)؛ ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ج6، ص66.

الزركلي من أنه ولد في مصر[1] فهو أمرٌ لا يمكن قبوله باعتبار أن بيبرس المنصوري نفسه يذكر أنه وصل مصر لأول مرة عام 659هـ/1260م، وهو صغير السن قادماً من الموصل[2].

أما فيما يتعلق بنشأته، فقد ذكر هو نفسه أنه قدم مصر عام 659هـ/1260م[3] في عهد السلطان الملك الظاهر بيبرس البندقداري، ويمكن تقدير عمره آنذاك وحسب سنة ولادته المشار إليها سابقاً بأربعة عشر عاماً، وكان حين قدومه برفقة سيده الطواشي[4] مجاهدالدين قايماز الموصلي خادم الملك الرحيم بدرالدين لؤلؤ صاحب الموصل، ولما شاهده الأمير سيف الدين قلاوون الألفي -الذي كان يقطن في حارة البندقائيين[5] بالقاهرة- اشتراه منه.

قام الأمير سيف الدين قلاوون بعد شرائه ووفقاً للتقاليد المملوكية بترتيبه بـ"المكتب"[6] حيث تم فيه تدريسه القرآن الكريم، وفي هذا قال هو عن نفسه:

---

(1) الزركلي، خيرالدين، الأعلام، دار العلم، ط 6، ج2، بيروت، 1984م، ص80. وسيشار إليه تالياً: (الزركلي، الأعلام).

(2) المنصوري، زبدة الفكرة، ص71.

(3) المنصوري، زبدة الفكرة، ص 71؛ انظر المقريزي، المقفى، ج2، ص531. ترجمة رقم "1003".

(4) الطواشي: جمعه طواشية، وهم الخصيان الذين استخدموا في الطباق المملوكية، وفي الحريم السلطاني، "كانت لهم حرمة وافرة وكلمة نافذة ويعد شيخهم من أعيان الناس". انظر عاشور، العصر المماليكي، ص455.

(5) يقال خط البندقانيين، وكان في زمن الفاطميين أحد إسطبلاتهم، فلما زالت دولتهم اختط، وصارت فيه مساكن ودكاكين لعمل البندق، فعرف بذلك. انظر المقريزي، الخطط، ج2، ص433-434.

(6) المكتب: مكان مخصص لتعليم أبناء السلطان القراءة والكتابة. انظر المنصوري، التحفة، ص7. (المقدمة حاشية رقم 3). ويؤكد بيبرس المنصوري في يومياته أن المكتب كان يربي فيه إلى جانب السلاطين المماليك الصغار، ودليل ذلك قوله "وكان الملك السعيد قد قدمه - أي سيف الدين كوندك الساقي وعظمه لأنه ربي معه في المكتب". انظر المنصوري، زبدة الفكرة، ص163.

"فرتبني [قلاوون] في المكتب فلطف الله بي، وعلمني كتابه العزيز و شرفني بدراسة القرآن الكريم لطفاً من رب العالمين".

ولما سار الأمير سيف الدين قلاوون مع السلطان الظاهر إلى بلاد الشام عام 659هـ/1260م أبقاه في دار زوجته الخاتون قطقطية -أم الأشرف خليل الذي سيكون له معه صله فيما بعد - مع جملة الصبيان الصغار(1).

يتضح مما تقدم أن بيبرس المنصوري لم يقدم معلومات وافية عن حياته قبل عام 659هـ/1260م، وتحديداً أثناء وجوده في الموصل بل اكتفى بذكر أنه كان مملوكاً فيها للطواشي مجاهد الدين قايماز الموصلي، ويمكن إرجاع إغفاله للحقبة التي عاش فيها في الموصل إلى:

رغبته في اعتبار قدومه لمصر بداية لحياة جديدة له، وبخاصة أنه يبتدئ مؤلفه زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة بذكر خبر وصوله لمصر عام 659هـ/1260م.

أو ربما مرحلة وجوده بالموصل، وما قبلها لا ترتبط بذكريات لم يرد الإشارة إليها.

3.3.1 دوره في عهد إمرة الأمير سيف الدين قلاوون (659- 679هـ/ 1260- 1280م)

وحينما بلغ من العمر ثمانية عشر عاماً اكتسب بيبرس المنصوري ثقة الأمير سيف الدين قلاوون بدليل أنه اصطحبه معه رغم صغر سنه في ست حملات عسكرية وجهها السلطان الظاهر بيبرس البندقداري نحو الأرمن والصليبيين القاطنين على طول الشريط الساحلي لبلاد الشام، كان أولها عام 663هـ/1265م تجاه أرسوف، وقد أشار بيبرس المنصوري نفسه إلى دوره في هذه الحملة فقال: "وكنت

(1) المنصوري، زبدة الفكرة، ص71.

إذ ذاك الوقت في خدمة الأمير سيف الدين المخدوم قلاوون أجر الجنيب[1] في سن المراهق أو قريب"[2].

أما الحملة الثانية عام 664هـ/1265م، فكانت موجهة نحو الحصون المحيطة بطرابلس، وكان بيبرس في هذه الحملة أيضاً يجر الجنيب للأمير سيف الدين قلاوون كما كان دوره في الحملة المشار إليها سابقاً[3].

وما أن انتهت هذه الحملة حتى اصطحبه في حملته الثالثة على سيس في العام نفسه، وقد أشار بيبرس المنصوري إلى ذلك، فقال: "فسرنا حتى دخلنا الدربند ووافينا سيس، وقد صفوا [صفَّ] الأرمن صفوفهم على سطح الجبل، واستعدوا لنا بالبيض [السيوف] والأسَل[4]... فلما شارفناهم على تلك الجبال، ترتب الجيش للقتال، وحملنا عليهم حملة واحدة، فانكسرت فوارسهم، و ضربت قوانسهم[5]، وأخذ ليفون [بن هيثوم صاحب سيس] أسيراً وولده معه..."[6].

ومع أن بيبرس المنصوري لم يذكر دوره في هذه الحملة، إلا أنه يمكن أن يستشف أن دوره لم يتعد المهمة التي أوكلت له في الحملة السابقة، وهي جر الخيول، ودليل ذلك يبرز من خلال ذكره أن هذه الحملة جاءت إثر الانتهاء من حملتهم على طرابلس.

---

(1) الجَنِيبُ: جمع جنائب وهي الخيول التي كانت تسير وراء السلطان في الحروب لاحتمال الحاجة إليها. انظر البقلي، محمد قنديلي، التعريف بمصطلحات صبح الأعشى، الهيئة المصرية العامة، (د.ط)، (د.م)، 1983م، ص92.وسيشار إليه تالياً : (البقلي، التعريف)؛ عاشور، العصر المماليكي، ص428.

(2) المنصوري، زبدة الفكرة، ص96.

(3) المنصوري، زبدة الفكرة، ص103-104؛ المنصوري، التحفة، ص56-57.

(4) الأسَل: النبْل. انظر ابن منظور، جمال الدين أبي الفضل محمد بن مكرم (ت711هـ)، لسان العرب، حققه وعلق عليه ووضع حواشيه عامر أحمد حيدر، دار الكتب العلمية، (د.ط)، بيروت، (د.ت)، مادة أسل. وسيشار إليه تالياً: (ابن منظور، لسان).

(5) القوانس: وهي الحديدة الطويلة في أعلى الرأس. انظر ابن منظور، لسان، مادة قنس.

(6) المنصوري، التحفة، ص58.

أما رابع الحملات التي شارك فيها بيبرس المنصوري، فتمثلت في فتح إمارة أنطاكية الصليبية عام 666هـ/1268م، ومع أن بيبرس أورد الفتح بحيثياته وملازمته للأمير سيف الدين قلاوون، إلا أنه أغفل دوره فيها، بحيث لم يذكر سوى قوله:"وكنت في هذه الغزاة المبرورة، فأما المخدوم [قلاوون] ومن معه، فإنه سار من أفاميه فصابحنا القصير صباحاً وناوشنا(1) أهله القتال غدواً ورواحاً، ورحلنا إلى أنطاكية ونزلنا عن غربيتها على سفح الجبل..."(2).

وبعد إسقاط إمارة أنطاكية الصليبية بثلاثة أعوام، أي سنة 669هـ/1270م كانت الحملة الخامسة تجاه حصن الأكراد، وفي هذا يقول بيبرس المنصوري : "... وأقمنا على ذلك [محاصرة الحصن المشار إليه] أياماً عشرة، فأخذت الأرباض، وزحف من العسكر عرباض، وارتقوا القلعة وتسلموها [من الصليبيين]"(3).

أما الحملة السادسة التي ساهم فيها بيبرس المنصوري مع الأمير سيف الدين قلاوون عام 673هـ/1274م، فقد كانت موجهة نحو سيس، وفي هذا قال بيبرس المنصوري:"فوصلنا إلى المصيصة على غرة من الأرمن، فهجمت العساكر عليها عند فتوح أبوابها فملكوها وقتلوا من بها وملكوا الجسر...[ثم] وصل السلطان [الظاهر] على الأثر... ودخل سيس..."(4).

ومن الملاحظ في الحملتين السابقتين أن بيبرس المنصوري لم يفصح عن دوره فيهما بل اكتفى بالإشارة إلى كيفية سير هذه المدن وفتحها، ومع ذلك يمكن أن

(1) المناوشة: تناول بعضهم بعضاً بالرماح دون أن يتدانوا كل التّداني. انظر ابن منظور، لسان، مادة نوش.

(2) المنصوري، زبدة الفكرة، ص 111؛ انظر العيني، بدر الدين محمود (ت855هـ)، عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، تحقيق محمد محمد أمين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ج2، (د.ط)، القاهرة، 1988م، ص22. وسيشار إليه تالياً: (العيني، عقد الجمان).

(3) المنصوري، التحفة، ص70.

(4) المنصوري، زبدة الفكرة، ص 144-145؛ المنصوري، التحفة، ص 80-81؛ انظر أيضاً العيني، عقد الجمان، ج2، ص132-133.

يتبيّن من سياق كلامه أنه يضع نفسه على قدم المساواة مع غيره بدليل أنه يقول : "وأقمنا"، "فوصلنا"، وهذا يعني أنه كان له مشاركه فيهما.

ولم تقتصر مشاركة بيبرس المنصوري على الحملات العسكرية المشار إليها تجاه الصليبيين بل يلاحظ أنه ساهم أيضاً في المعارك التي خاضتها الدولة المملوكية ضد المغول وسلاجقة الروم ، ودليل على ذلك مشاركته في موقعة الأبلستين عام 675هـ/1276م والتي اصطدمت فيها الدولة المملوكية بقيادة السلطان الظاهر مع التحالف المغولي السلجوقي.

ومع أن بيبرس المنصوري أورد خبر هذه الوقعة إلا أن دوره فيها يكتنفه الغموض، إذ لم يذكر سوى أنه عاد مع السلطان الظاهر وعساكره منها حيث يقول: "...ونزل [السلطان الظاهر بعد انتهوا في الوقعة المشار إليها سابقاً] قريباً من القرية المعروفة برمان، وهي قريب الكهف والرقيم(1) ويطوف بها جبال كأنها أسوار، ومررنا على قرية أوتراك ومنها على حصن سمندو(2)، وأشرفنا على خان قرطاي بعد ذلك ... ونزلنا على قريب عسيب... وركب السلطان في زمرته وذوي أمره وإمرته، وخرج أهل قيسارية كافة، فتلقوه..."(3).

إضافة لذلك تحمل بيبرس المنصوري مسؤولية الإقطاع عام 671هـ/1272م، بعد أن نقله الأمير سيف الدين قلاوون من النقدية أرباب الجامكية الذين كانوا يتقاضون مرتباً شهرياً أو أجراً نقدياًيسمى جامكيه، وقد أشار بيبرس نفسه إلى ذلك، فقال: "في هذه السنة نقلني الأمير المخدوم من النقدية أرباب الجامكيه إلى

(1) يبدو أن بيبرس المنصوري قد قصد بالكهف والرقيم مدينة "أبْسُس"التي يذكر البغدادي أنها أحدى المدن الهامة في بلاد سلاجقة الروم، وهي التي تقع بالقرب من مدينة الأبلستين، يقال أن فيها أصحاب الكهف والرقيم. انظر البغدادي، مراصد الاطلاع، مج1، ص15.

(2) حصن سَمَنْدُو حصن يقع في وسط بلاد سلاجقة الروم . انظر البغدادي، مراصد الاطلاع، مج2، ص738.

(3) المنصوري، مختار، ص57 -60.

الإقطاعية، فأعطاني خبزاً [إقطاعاً] من أخباز [إقطاعات]عدته، عبرته مائة وخمسون إردباً[1]، فهو أول خبز أكلته في خدمته"[2].

وفي سنة 674هـ/1275م تم ترقية بيبرس المنصوري، حيث فوض إليه الأمير سيف الدين قلاوون الشراب خاناه[3] الخاصة به[4].

توفي السلطان الظاهر عام 676هـ/1277م وخلفه في السلطنة ولده الملك السعيد ناصر الدين بركة خان[5]، فما هو دور بيبرس المنصوري في عهده؟.

برز دور بيبرس المنصوري في هذه المرحلة عندما عزم أكابر الأمراء لا سيما الأمير بدرالدين بيسرى الشمسي والأمير سيف الدين قلاوون على خلع الملك السعيد من السلطنة، وذلك إثر المؤامرة التي دبرها الأخير مع مماليكه ضد الأميرين السابقين، والقاضية بإبعادهما عن الدولة والتخلص منهما[6]، وقد كان بيبرس المنصوري في هذا الصراع الدائر بين الطرفين من أكبر المرتبطين بالأمير سيف

---

(1) الإردب: مكيال مصري للحنطة يتألف من 6 ويبات كل ويبة 8 أقداح كبيرة أو 16 قدحاً صغيراً، ويقول هنتس أن الإردب في الوقت الحاضر يساوي في مصر 198 لتراً، ويتوافق هذا مع 150كغم من القمح و 120كغم من الشعير و 140كغم من الذرة و 155كغم من الفول الرومي و157كغم من العدس. انظر هنتس، فالتر، المكاييل والأوزان الإسلامية وما يعادلها في النظام المتري، ترجمة كامل العسلي، منشورات الجامعة الأردنية، ط2، (د.م)، (د.ت)، ص58-59.

(2) المنصوري، زبدة الفكرة، ص136.

(3) الشراب خاناه: يقصد بها بيت الشراب، وتشتمل على أنواع الأشربة المُرصدة لخاص السلطان، والمشروب الخاص من السكر والأقسما [الماء] وغير ذلك، وفيها يكون السكر المخصوص بالمشروب، وبها الأواني النفيسة من الصينيّ الفاخر من اللازوري وغيره مما تساوي السُكرُجة [إناء صغير] الواحدة اللطيفة منه ألف درهم فما حوله. ومن الملاحظ هنا أن الشراب خاناه قد كانت خاصة بقلاوون وليس السلطان. انظر القلقشندي، صبح الأعشى، ج4، ص9؛ البقلي، التعريف، ص196.

(4) المنصوري، زبدة الفكرة، ص152.

(5) المصدر نفسه، ص160-162.

(6) المصدر نفسه، ص166-167.

الدين قلاوون والمؤيدين له حينما اتجه لمصر لحصار قلعتها، و خلع الملك السعيد، فقد أشار هو إلى ما يوحي بذلك، فقال : "ولما رحلنا من الكسوة [قرب دمشق] جدّينا في المسير من غير ونية ولا تقصير، فوصلنا إلى الديار المصرية في أوائل سنة ثمان وسبعين وستمائة [678 هـ]"(1).

4.3.1 دوره بعد وصول الأمير سيف الدين قلاوون للسلطنة عام 678هـ/1279م

لوحظ مما تقدم كيفية نشأة بيبرس المنصوري في كنف الأسرة المنصورية وكيف أنه اكتسب ثقة الأمير سيف الدين قلاوون قبل أن يصبح سلطاناً، أما وقد آلت للأمير المشار إليه السلطنة عام 678هـ/1279م، فقد ابتدأت مرحلة جديدة من حياة بيبرس المنصوري ، فما هو الدور الذي قام به في عهده وعهد ولده الملك الأشرف خليل؟.

ابتدأ بيبرس المنصوري نشاطه في عهد السلطان الجديد الملك المنصور قلاوون في المشاركة في موقعة حمص عام 680هـ/1281م التي انتصر فيها السلطان على المغول يدل على ذلك ما ذكره هو نفسه من أنه كان أولاً برفقته منذ خروجه من مصر في ذي الحجة 679هـ/1280م حتى نزوله على دمشق بجيشه الذي رتبه إلى ثلاثة أقسام كان بيبرس في القلب الذي يترأسه السلطان وهو القلب تحت السناجق(2)(3).

برز دور بيبرس المنصوري في هذه الموقعة عندما تعرضت ميسرة المغول للسلطان فقد ذكر أنه كان من جملة المدافعين عنه فأشار السلطان إلينا بأن نردفه، فردفناه جميعاً وجعلناه بجمعنا منيعاً، وقتلنا الذين قصدوه قتلاً ذريعاً، وبذلت فيهم السيوف، ودارت عليهم دائرة الحتوف، فانكسرت الميسرة كسرة تامة، وأيقنّا نحن

---

(1) المنصوري، زبدة الفكرة، ص169 -172.

(2) السناجق جمع سنجق، وهي رايات صفر صغار تربط بطرف الرماح ويحملها السنجقدار. القلقشندي، صبح الأعشى، ج 4، ص7؛ انظر عاشور، العصر المماليكي، ص 448؛ البقلي، التعريف، ص186.

(3) المنصوري، مختار، ص71 -74؛ انظر أيضاً العيني، عقد الجمان، ج2، ص277 -282.

بالنصرة العامة"(1) كما برز دوره بعد انتهاء الموقعة، فقد ذك ر أن السلطان لما نزل على المنزلة قرب حمص عقب الموقعة وجد أن المغول نهبوا ما فيها، ومع ذلك لم يأبه بما فقد، فقد كان قبل اصطدامه مع المغول قد ز زل عليها ووزع الأموال التي فيها على مماليكه أكياساً في كل كيس ألف دينار ليحملوه ريثما تنتهي الموقعة، وقد أشار بيبرس المنصوري إلى أن السلطان جعل معه كيساً منها وقت تفرقته، وأنه أعاده إليه بعد الموقعة سالماً(2).

ولم يكد يمضي على الوقعة المشار إليها عامان حتى أصدر السلطان المنصور قلاوون في 14 ربيع الأول عام 682هـ/1283م مرسوماً بحق مملوكه بيبرس المنصوري تضمن ثلاث نقاط رئيسة هي:

أولاً: منحه خمسة عشر طواشياً، وهذا يظهر من قوله: "وأنعم السلطان عليّ بعدة خمسة عشر طواشياً".

ثانياً: ترقيته من خادم للسلطان إلى أمير من أمرائه، ويتبيّن ذلك من قوله عن نفسه: "... وشملتني سعادة آرائه بأن صيرتني من جملة أمرائه وكان هذا دأبه في سائر خدامه أن يرفع مراتبهم في أيامه" ويفهم من هذه النقطة أنه أصبح بعيد ذلك يلقب بـ"الأمير" لأول مرة.

ثالثاً: ثناء السلطان عليه بدليل الألقاب التي خاطبه بها: "الأمير الأجل الكبير المختار المجاهد الأوحد الأعز المرتضى الأكمل ركن الدين مجد الإسلام شرف الخواص بهاء الأمة غرس الدولة واسطة المملكة اختيار الملوك والسلاطين"(3).

ويبدو أن ترقية بيبرس المنصوري إلى رتبة أمير كان بمثابة توطئة من قبل السلطان المنصور قلاوون لتدرجه في الوظائف الإدارية العليا في الدولة المملوكية، بدليل أنه أصدر بعد المرسوم المشار إليه مرسوماً أخر في 5 شوال

(1) المنصوري، زبدة الفكرة، ص198.
(2) المصدر نفسه، ص199.
(3) المصدر نفسه، ص247؛ انظر أيضاً العيني، عقد الجمان، ج2، ص324-326.

683هـ/1285م بتوليته أمرة طبلخاناه[1] على خمسين فارساً، وإعطائه إقطاع الأمير عز الدين أيبك الأفرم الصالحي أمير جاندار الذي نقله إلى مائة فارس[2].

وكان لهذه الترقية تأثيرٌ حسنٌ على نفس بيبرس المنصوري، فقد عبر عن مشاعره حين تقلدها، فقال: "... فهي [إمرة الطبلخاناة] من نعم الله التي أجراها على يديه [السلطان المنصور قلاوون] تصدق بها من جهته ...، فأنا أحدث بها ما دمت حياً، وأثبتها في المهارق [الصحيفة] التي تنشر إذا طوتني الأيام طياً. وكيف أهمل ذكرها وأترك شكرها وهي باقية عليّ من السلف، نامية لدي من الخلف، فأنا كما قيل:

أقر جلدي بها عليّ فما   أقدر حتى الممات أجحدها"[3].

بعد هذا انتدب السلطان المنصور قلاوون بيبرس المنصوري عام 685هـ/1286م ليكون رسوله إلى الكرك التي كانت في البداية قد منحت لـلسلطان السعيد بركة خان ابن الملك الظاهر بيبرس بعد عزله[4]، ثم منحت بعد وفاته لأخيه الملك المسعود جمال الدين خضر الذي لم يلبث أن بلغت السلطان قلاوون عنه وعن أخيه بدر الدين سلامش أمورٌ جعلته يقوم بتجريد حملة عسكرية بقيادة الأمير حُسام الدين طُرُنْطَاي تجاههما لاستعادة الكرك، ويظهر أن إحكام الخناق عليهما من قبل الحملة قد دفعهما أخيراً إلى طلب الأمان "فبادر [حسام الدين طُرُنْطَاي] بمطالعة الأبواب الشريفة السلطانية صحبة البريدية بحصول المقصود والإذعان إلى الوفود، وإن الأمر بقي متوقفاً على مجئ أحد من خاصة السلطان بخاتم الأمان"[5].

---

(1) الطبلخاناه: يقصد بها بيت الطبل الذي يشتمل على الطبول والأبواق وتوابعهما من الآلات؛ ويحكم على ذلك أمير العشرات يعرف بأمير علم، يقف عليها عند ضربها في كل ليلة، ويتولى أمرها في السفرويبدو أن الهدف منها إرهاب العدو في الحرب وتقوية جأش الجنود. انظر القلقشندي، صبح الأعشى، ج4، ص13،7؛ البقلي، التعريف، ص228.

(2) المنصوري، زبدة الفكرة، ص250- 251؛ انظر العيني، عقد الجمان، ج2، ص323- 324.

(3) المنصوري، التحفة، ص112.

(4) المنصوري، زبدة الفكرة، ص172.

(5) المنصوري، زبدة الفكرة، ص254- 255؛ المنصوري، التحفة، ص115.

لما أخبر الأمير حُسام الدين طُ رَنْطَاي السلطان المنصور بالأمر، كتـب لهمـا الأخير أماناً عليه ختمه، وأختار أحد خاصته لحمله وهو بيبرس المنصوري الـذي وصل الكرك، وهو ما أشار إليه في مصنفاته، فقال: فندبني السلطان إليهم و معي أمانه الشريف فسرت على البويلي الكرك، فاجتمعت بـالأمير حسـام الـدين [طُرنْطَاي]، فاعلمهما بحضوري فدخلت إليهما بالأمان و أبلغتهما رسـالة السـلطان بمواعيد الإحسان فطابت أنفسهما بذلك، وانشرحت صدورهما واطمأنت خواطرهما ووثقت ضمائرهما، ونزلا من قلعة الكرك... وركبا صبيحة ذلك اليوم إلى الصيـد، فركب معهما [حُسام الـدين طُرنْطَـاي] معاً وتصـيدنا يومنـا ذلـك وعـدنا إلـى الوطاق(1)،(2).

بعد استقرار أوضاع الكرك، قام السلطان المنصور قلاوون بعزل الأمير عـز الدين أيبك الموصلي - خشداش [أي زميله] بيبرس(3) - عن نيابة السلطنة في الكرك

(1) الوطاق: الخيمة الكبيرة التي تعد للعظماء انظر عاشـور، العصـر المماليكي، ص 484. وليس المقصود بالوطاق الخيمة فقط بل خيام عديدة تعتبر معسكر الجيش. انظر النـويري، شهاب الدين أحمد بن عبدالوهاب (ت733هـ) نهايـة الأرب فـي فنـون الأدب، تحقيـق إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، ط1، ج31، بيروت، 2004م، ص24 (حاشـية2). وسيشار إليه تالياً: (النويري، نهاية الأرب).

(2) المنصوري، زبدة الفكرة، ص 254-255؛ المنصـوري، التحفـة، ص 115؛ أنظـر أيضـاً النويري، نهاية الأرب، ج 31، ص18-19 وسيشار إليه تالياً؛ ابن الفرات، ناصـر الـدين محمد بن عبدالرحيم (ت682هـ)، تاريخ ابن الفرات، تحقيق قسطنطين زريق ونجلا الـدين، المطبعة الأميركانية، (د.ط)، مج8، (د.م)، (د.ت)، ص35-36 وسيشار إليه تاليـاً: (ابـن الفرات، تاريخ)؛ المقريزي تقي الدين أحمد بن علي (ت845هـ) السـلوك لمعرفـة دول الملوك، قام بنشره محمد مصطفى زيادة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ط2، ق3، ج1، القاهرة، 1970م، ص730-731. وسيشار إليه تالياً: (المقريزي، السـلوك)؛ العينـي، عقد الجمان، ج2، ص348-349.

(3) ذكـر بيبـرس المنصـوري أن عزالـدين أيبـك الموصـلي قـدم معـه إلـى مصـر عام659هـ/1261م، وباعهما سيدهما الطواشي مجاهد الدين قايماز الموصلي خادم الملـك الرحيم بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل إلى الأمير سيف الدين قلاوون. المنصوري، زبـدة الفكرة، ص71.

وتوليتها لبيبرس المنصوري، وقد انقسمت المصادر في تحديد تاريخ تفويضها له إلى ثلاثة مجاميع هي:

أولاً: مصادر حددت تاريخ تفويضها له في شهر شعبان 685هـ/1286م، وعلى رأسها ابن الفرات[1]، والنويري[2]، وابن خلدون[3]، والمقريزي[4].

ثانياً: مصادر لم تحدد تاريخاً معيناً لولايته الكرك، و يمثلها ابن حجر العسقلاني[5]، وابن تغري بردي[6].

ثالثاً: مصادر ادعت أن تفويضها له كان في شهر جمادى الأولى عام 711هـ/1311م، ويمثلها ابن كثير[7].

يلاحظ مما سلف أن المصادر الإسلامية قد أجمعت على ولاية بيبرس لنيابة السلطنة في الكرك، ولكنها تباينت واختلفت في تحديد تاريخ تقليدها له، فالمجموعة الأولى ترى أنه تولاها في عام 685هـ، في حين أن المجموعة الثانية لم تحدد تاريخاً محدداً لوليته لها، أما المجموعة الثالثة فذكرت أنه تقلدها في عام 711 هـ، وهذه الرواية التي يشير إليها ابن كثير لا يمكن قبولها لأسباب:

أولاً: أن أغلب المصادر التي أكدت تقليده نيابة السلطنة في الكرك عام 685هـ، هي مصادر معاصرة أو قريبة من عصر بيبرس المنصوري كـ ابن الفرات والنويري، بينما ابن كثير هو مؤرخ متأخر انفرد بهذه الرواية.

---

(1) ابن الفرات، تاريخ، مج8، ص38.

(2) النويري، نهاية الأرب، ج31، ص88.

(3) ابن خلدون، عبدالرحمن (ت808هـ)، تاريخ ابن خلدون، تحقيق خليل شحادة، دار الفكر، ط2، ج5، بيروت، 1988م، ص459. وسيشار إليه تالياً: (ابن خلدون، تاريخ).

(4) المقريزي، السلوك، ق3، ج1، ص732.

(5) ابن حجر، الدرر الكامنة، ج2، ص43.

(6) ابن تغري بردي، جمال الدين أبو المحاسن يوسف (ت874هـ)، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب، مطابع كوستاتسوماس، (د.ط)، ج9، القاهرة، (د.ت)، ص263. وسيشار إليه تالياً: (ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة).

(7) ابن كثير، البداية، ج14، ص70.

ثانياً: إن بيبرس المنصوري نفسه أشار إلى أنه تولاها في شهر شعبان 685هـ، حيث يقول: "... ثم أنه [السلطان المنصور] توجه إلى الكرك جريدةً[1] متصيداً... وعرفني أنه يقصد تربيتي [ترتيبي] في الكرك فأخذت معي الطُّلْب[2] والثقل[3]، وتوجهت في خدمته وتوجه المنتقل [المرتحل] فوصلنا إليها في عشر شعبان من هذه السنة [أي عام 685هـ]، ونزل السلطان على ظاهرها، وطلع إلى قلعتها ونظر في أحوالها. ورسم لي بالإقامة فيها نائباً فأقمت، و خرج منها الأمير عز الدين أيبك الموصلي"[4].

وقد أصدر السلطان المنصور بمناسبة تقليد بيبرس المنصوري منصبه الجديد مرسوماً بحقه تضمن في بدايته ثناء السلطان المنصور عليه ومخاطبته بأفضل الألقاب "الأمير الأجل الأسفهسلار[5] الأوحد المجاهد العضد ركن الدين فخر الإسلام شمس الأنام شرف الأمراء المقدمين عضد الملوك و السلاطين بيبرس الدوادار الملكي المنصوري نائب السلطنة بالكرك" كما تضمن المرسوم منحه ثمانين فارساً، والأنعام عليه بإقطاع الأمير علم الدين سنجر الدوادار الصالحي، و قد اشترط عليه السلطان فيه إعادة الأقطاعات التي كانت بيده في الديار المصرية[6]، والتي تمت الإشارة إليها فيما تقدم.

---

(1) جريدة: أي أن السلطان ركب منفرداً على وجه السرعة دون أن يصطحب معه أثقالاً أو حشداً. انظر عاشور، العصر المماليكي، ص426.

(2) الطُّلْب: جمع أَطْلاَب، وهي وحدات صغيرة قد تبلغ أربعمائة يرأسها أمراء يعملون في وظائف البلاط أو الدولة. انظر البقلي، التعريف، ص36.

(3) الثقل: هي الأمتعة والأثقال التي تحمل عند الرحيل من مكان لآخر. انظر ابن منظور، لسان، مادة ثقل.

(4) المنصوري، زبدة الفكرة، ص255؛ العيني، عقد الجمان، ج2، ص350.

(5) الاسفهسلار: لقب من الألقاب الخاصة بأمراء الطبلخاناه في عصر المماليك. انظر عاشور، العصر المماليكي، ص411.

(6) المنصوري، زبدة الفكرة، ص256-257؛ العيني، عقد الجمان، ج2، ص352-353.

أما أهل الكرك، فقدتوافدوا على بيب رس المنصوري للتهنئة والتبريك بالمنصب الجديد، وقد أشار بيبرس نفسه إلى ذلك، فقال: "وانثالت إليّ الوفـود ، فبـذلت لهـم المجهود، وأخذ الشعراء يمتدحون والناس بالإحسان والعدل يفرحون"[1].

شرع بيبس المنصوري بعد استلامه زمم الأمور في الكرك بتفقد الأوضـاع الداخلية لها، حيث وجد أن "أحوالها قاصرةوأعمالها داثرة وأراضيها بائرة و أهراءها [مخازنها] شاغرة بعقب ما توالى عليها من المضايقة والمحاصرة مع عجز من كان يتولى أمورها ويلي تدبيرها "لذلك قام بترتيب أمورها وتنظيمها من خلا ل عمـارة بلادها وتخضير أراضيها و زراعتهاوقد ساعده على ذلك كثرة الأمطار في تلـك السنة التي قدم بها للكرك[2].

بقي بيبرس المنصوري في الكرك -كما يذكر ما يقارب الخمس سنوات[3]، أي من عام 685 هـ-690هـغير أنه خلال هذه الفترة الطويلة نسـبياً لـم يقـدم أيـة معلومات عن الأعمال التي قام بها فيهاوفي ما يرتبط بها من مدن وقـرى وقـلاع مقتصراً على معلومات مقتضبة عن حياته فيهاتمثلت بالإصلاحات المشـار إليهـا أنفاً حين قدومه إليها ، ثم مشاركته بمعية أهلها في فتح عكا عام 690هـ، كما سيشار إليها تالياً.

ويبدو أن عدم ذكره لتفاصيل حياته أثناء وجوده في الكرك يرتبط بذكريات لـم يرد أن يفصح عنها.

5.3.1 دوره في فتح عكا عام 690هـ/1291م، وإعفائه من نيابة السلطنة بالكرك

توفي السلطان المنصور قلاوون عام 689هـ/1290م، وتولى السلطنة بعده ولده الملك الأشرف خليل[4]، أما هو دور بيبرس المنصوري في عهده مع الأخذ بنظـر

(1) المنصوري، زبدة الفكرة، ص256.
(2) المصدر نفسه، ص257.
(3) المصدر نفسه، ص257.
(4) المصدر نفسه، ص270-272.

الاعتبار أن بيبرس كان نائباً في الكرك، و على معرفة بالأشرف خليل منذ طفولته عندما كان يعيش في بيت والدته الخاتون قطقطية كما ذكر سابقاً.

برز دور بيبرس المنصوري في هذه المرحلة عندما عزم السلطان الأشرف خليل على مهاجمة الصليبيين في عكا عام 690هـ/1291م، حيث يروي بيبرس المنصوري في يومياته أنه -أي السلطان- أرسل إلى أمراء بلاد الشام لإعداد الزردخانات[1] والآلات لفتح عكا.

ولمعرفة بيبرس المنصوري بذلك تاقت نفسه إلى الجهاد "وحنت إليه نحو الأرض الظامية إلى صوب العهاد" فخاطب السلطان يطلب منه المشاركة في الفتح، فرحب السلطان بذلك[2].

بدأ بيبرس المنصوري بالإعداد للقتال، من خلال تجهيز الآلات الحربية، وترتيب الجنود والرماة والحجارين من أهل الكرك، و بعد استكمال الاستعدادات توجه إلى غزة، حيث التقى هناك بالسلطان الأشرف الذي استقبله ورحب به، وانضم إليه بمن معه، وتوجهوا نحو عكا.

لم يقتصر دور بيبرس المنصوري على ما تقدم بل أفاد من خبراته العسكرية التي اكتسبها زمن أمرة سيف الدين قلاوون، واستطاع أن ينقذ ما كان يواجهه الجيش من صعوبات في المعركة مع الصليبيين، حيث يقول هو: "وشُدد القتال... وأنا

---

(1) الزردخاناه: تعني بيت الزرد (أي بيت السلاح)، وهي تشتمل على أنواع السلاح "من السيوف، والقسي العربية، والنشاب، و الرماح، والدروع المتخذة من الزرد الماتع [الجيد]، والقرقلات [نوع من الدروع] المتخذة من صفائح الحديد المغشّاة بالديباج الأحمر والأصفر... وفي كل سنة يحمل إليها ما يعمل بخزائن السلاح من الأسلحة، يجعل على رؤوس الحمّالين ويزف إلى القلعة ويكون يوماً مشهوداً، وفي هذه السلاح خاناه من الصناع المقيمين بها لإصلاح العُدد وتجديد المستعملات جماعة كبيرة، ويسمى صانع ذلك الزردكاش، وهي لفظة أعجمية معناها صانع الزرد، ولها غلمان... وفراشون بسبب خدمة القماش وافتقاده". انظر القلقشندي، صبح الأعشى، ج 4، ص11؛ عاشور، العصر المماليكي، ص444.

(2) المنصوري، زبدة الفكرة، ص278-280؛ المنصوري، التحفة، ص126-127؛ المنصوري، مختار، ص91-92.

في ضمن ذلك أتأمل مـ كاتلّوح الفرصة منه فاقصده و أتصفح جانباًتمكن منه ا لحيلة فلا أجده، وبينما أنا أميل فكرتي وأدير بصري وبصـيرتي إذ لمحـت برجـاً مـن أبراجهدقأثرت فيه المجانيق، و أمكن إنيتخذ منه طريق و بينه وبين السور فسحة مكشوفة ظهرة لا يمكن السلوك فيها ا، لأن الجروخ[1] مسلطة عليها إلا باتخاذ ستارة تطولها وتشملها وتقي من يدخلها ا، فعمدت إلى اللبوفجمعتها جمعاً، ولفقت بعضـ ها مع بعض لفق اً، فتصور منها سحابة كبيـ رة طولاً وعرضاً، ونصـبت تجـاه البدنـة المهدومة من البـ رج صارمين من كلا الجانبين و جعلت على رؤوسهما بكراً كبكرات المراكب وحبالاً يتمكن بها الجاذب، ثم جذبت تلك السحابة من اللباد ، فقامت كأنهـا سدّ من الاسـ داد، وأيقنت[2] ذلك في جنح الليل وهم غافلون عنه، فلما أصبح وا ورأوا ذلكالحجاب قصدوه بالمجانيق و النشاب، فصارت الحجارة إذا وقعت فيها يرتخـي اللبد تحتها، فيبطل زخمها والجروخ إذا رمتها لا ينفذ سهمها فتمكنا مـن المـرور ووجدنا سبيلاً إلى العبور وضرب بيننا وبين الأعداء بسور، وشرعنا في ردم الخندق لذي بين السوريـ ن بمخالي[3] الخيل مملوءة بالتراب مع ما تيسـر مـن الأخشـاب، فصار طريقاً سالكاً، وكان... وحصل الفـ عليهم من ذلك المكـان، و غيـره... وانكسروا كسراً مالـه انجبـار وعصت الأبراج الكبار التي فيها الديوية[4] والامن

---

(1) الجروخ آلة حربية تستعمل لرمي السهام والنفط والحجارة، انظـر : المقريـزي، السـلوك، ج1، ص1003.

(2) اليقين: العلم وإزاحة الشك، وتحقيق الأمر. انظر ابن منظور، لسان، مادة يقن.

(3) مخلي مخلاه، وهي القطعة التي يوضع فيها الحشيش الذي يحتش من بقـول الربيـع للخيل (أي يوضع فيها طعام الخيل). انظر ابن منظور، لسان، مادة خلا.

(4) الفرسان الديوية: فكرة إنشاء هذه الطائفة فكرة دينية وعسكرية، وهي فكـرة نشـأت مـن فارس من شمبانيا اسمه هيوباينزا استطاع سنة 1118م أن يقنع الملك بلـدوين الأول بـأن يسمح له ولفئة قليلة من رفاقه بالنزول في جناح بالقصر الملكي بساحة المعبد، وهو المسجد الأقصى، وخضع الداوية (فرسان المعبـد) أول الأمـر لقاعـدة البنـدكتيين مثلمـا فعـل الاسبتاريةعلى أنهم أضحوا طائفة مستقلة تتألف من ثلاث طبقات : الفرسان وكلهم من أصل نبيل، ثم الأجناد من البرجوازية، ويعتبرون ساسة الجماعة ومراقبيها، وأما الطبقة الثالثـة، فتتألف من رجال الدين الذين شغلوا الوظائف الدينية، وقاموا بكل ما لم يمت للعسكرية بصلة

[الأرمن] والإسبتار[1] فحاصرناهم حول عشرة أيام أخر ... [حتى] كان هـذا الفتح العظيم في يوم الجمعة..السابع عشر من جمادى الآخرة مـن هـذه السـنة [690هـ]...".[2]

يلاحظ مما تقدم أن بيبرس المنصوري قد أسهب في الحديث عن دوره في فـتح عكا، بحيث ابتدأ حديثه بإعطاء صورة واضحة عن كيفية إعداده العسـكر وأدوات الحصار في الكرك استعداداً لفتح تلك المدينة، بالإضافة لذكره كيفية اتحاد جيشه مع

من الصلات، واتخذوا الصليب الأحمر شعاراً لهم، فجعله الفرسان على أرديتهم البيضـاء، واتخذه الأجناد على ستراتهم السوداء. وأول الواجبات الدينية التي تعاهد بها الداوية الحرص على تطهير الطريق الممتد من ساحل البحر المتوسط إلى بيت المقدس من قطـاع الطـرق غير أنهم لم يلبثوا أن اشتركوا في كل حملة قامت بها المملكة، وأمضى هيـو نفسـه زمنـاً طويلاً في غرب أوروبا يحشد متطوعين لطائفته". انظر البقلي، التعريف، ص19.

(1) الإسبتار": من الطوائف الدينية العسكرية، وهم جماعة من النصارى الأتقياء بأمالفي، وكانوا قد أنشأوا سنة 1070م نزلاً في بيت المقدس يأوي إليه الحجاج الفقراء، وأذن والـي بيـت المقدس من قبل مصر التي كانت وقتذاك تمتلك المدينة لقنصل أمـالفي أن يختـار موقعـاً مناسباً، وتقرر تدشين الدار باسم القديس يوحنا المتصدق بطريرك الإسكندرية فـي القـرن السابع الذي اشتهر بالإحسان، وكان جل القائمين على هذه الدار من الرهبان الأمالفيين الذين خضعوا لإدارة مقدم يخضع بدوره للسلطات البنيدكية التي استقرت بفلسطين، وكـان مقـدم هذه الدار عند استيلاء الصليبيين على بيت المقدس رجلاً اسمه جيرار، والراجح أنه كان من الأمالفيين، وأمر حاكم بيت المقدس المسلم بنفيه مع سائر المسيحين قبل أن يبدأ الصـليبيون حصار المدينة. وكان لدرايته بأحوال البلاد أهمية عند الصليبيين، فحـث حكومـة الفـرنج الجديدة في بيت المقدس بأن تجعل لهذه الدار أحباساً، وانحاز عدد كبير من الحجـاج إلـى هيئته التي لم تلبث أن تحررت من ولائها وطاعتها للبنيدكتيين، وأضحـت طائفـة مسـتقلة بذاتها اتخذت اسم الإ سبتارية وتدين للبابا مباشرة بالطاعة، وزاد ما يجري بذلـك لهـا مـن الأراضي، وجعل لها معظم رجال الكنيسة عشر ما يرد إليهم من دخـل". انظـر البقلـي، التعريف، ص18- 19.

(2) المنصـــوري، زبــدة الفكـــرة، ص278- 280؛ المنصـــوري، التحفـــة، ص126- 127؛ المنصوري، مختار، ص91- 92.

جيش السلطان في غزة، ناهيك عن ذكره الطريقة التي اقتحم بها المدينة بعد أن استعصت أمامهم في البداية، وأخيراً يمكن القول إن بيبرس المنصوري قد كان له شرف المشاركة مع السلطان الأشرف في تحقيق ما كان السلطان الظاهر ووالده الملك المنصور يسعون لتحقيقه وهو إنهاء الاحتلال الصليبي لبلاد الشام.

توجه السلطان الأشرف بعد فتح عكا عام 690هـ/1291م تجاه دمشق، وقبيل مسيره منها للديار المصرية أوعز لبيبرس المنصوري بالعودة إلى الكرك، إلا أن الأخير طلب إعفاءه من ذلك، وقد أشار بيبرس نفسه إلى ذلك حيث يقول: "ورسم لي [السلطان] بالمسير إلى الكرك، فسألته أن أكون في خدمته وأعود في ركابه وصحبته واعتفيت من العود إلى الكرك فأجاب إلى الإعفاء من العود إليها، ورتب الأمير جمال الدين أقوش الأشرفي نائباً عن السلطنة فيها"(1).

يتضح مما سلف أن تنازل بيبرس المنصوري عن منصب نيابة السلطنة في الكرك عام 690هـ/1291م قد كان برغبة منه ليكون قريباً من السلطان، وليس كما يفهم من فحوى رواية ابن تغري بردي(2)، والمقريزي(3)، وابن حجر العسقلاني(4) من أن تنازله عنه قد كان برغبة السلطان الأشرف، وليس برغبة بيبرس، وصفوة القول فمن المستبعد أن يقوم السلطان بعزله دون طلبه نظراً للدور البارز الذي لعبه (بيبرس) في فتح عكا.

انتقل بيبرس المنصوري -بعد إعفائه من منصب نيابة السلطنة في الكرك- مع السلطان الأشرف إلى مصر، ليكون من جملة أمرائه(5)، ولكن يظهر أن إقامته فيها

---

(1) المنصوري، زبدة الفكرة، ص 283-284؛ العيني، عقد الجمان، ج 3، ص83؛ انظر أيضاً النويري، نهاية الأرب، ج 31، ص133؛ ابن الفرات، تاريخ، مج 8، ص119؛ ابن خلدون، تاريخ، ج5، ص464.

(2) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج8، ص9.

(3) المقريزي، السلوك، ق1، ج2، 269؛ المقريزي، المقفى الكبير، ج2، ص531. ترجمة رقم "1003".

(4) ابن حجر، الدرر الكامنة، ج2، ص43. ترجمة رقم"1384".

(5) النويري، نهاية الأرب، ج33، ص138.

لم تطل، فقد خرج في عام 691هـ/1291م إلى بلاد الشام ، ليشارك مع السلطان الأشرف في فتح قلعة الروم(1) التي يروي بيبرس كيف أنه اسد تجدّ عليهم أمر أثناء حصارهم لها "وما كنا في شدة الحصار والقتال و المضايقة والنزال أشرفت علينا من البر الشرقي طائفة من التتر [المغول] لائحة من بين الجبال ... كانت قد جاءت تلتمس فرصة وتطلب من المسلمين غرة ..."، لذلك قام السلطان بتجريد حملة استطلاعية بقيادة أربعة أمراء من مقدمي الألوف (2) مع مضافيهم [تابعيهم]، لكشف خبر المغول وتتبع أثرهم، وقد كان بيبرس أحد المشاركين في هذه الحملة الاستطلاعية، حيث يذكر أنه كان من مضافي الأمير بدر الدين بكتاش أمير سلاح.

تحركت الحملة لتتبع المغول، وفي هذا يقول بيبرس: "... فسرنا جميعاً سيراً عنيفاً وعبرنا الفرات من مخاضة سُميصات [سُميساط] وسرنا في البر الشرقي عامة الليل والنهار، وقصصنا الآثار، فلم نجد أحداً من التتار [المغول]، فعدنا في الحال وحضرنا إلى المنازلة والقتال حتى افتتحنا قلعة الروم".

يعقب بيبرس المنصوري إلى أنه اتفق فيما بعد وصول الأمير سيف الدين جنكلي بن البابا أحد أمراء التتار إلى الديار المصرية، فأخبره أنه كان في تلك السرية التي كانت تبلغ عشرة الآف فارس صحبة مقدم يسمى بيتمش، وأن السبب في تراجعهم هو كثرة أعداد العساكر الإسلامية المحاصرة لقلعة الروم(3).

يظهر مما تقدم أن بيبرس المنصوري يسلط الضوء في حديثه عن فتح قلعة الروم على الحملة الاستطلاعية التي أرسلها السلطان لتتبع المغول، والتي كان فيها

---

(1) قلعة الروم: قلعة حصينة تقع في غربي الفرات مقابل البيرة . انظر البغدادي، مراصد الاطلاع، مج3، ص1118.

(2) أمراء المئين مقدمو الألوف: أعلى مراتب الأمراء في عصر المماليك، وهذه المرتبة خاصة بأرباب السيوف، ويكون عدة كل منهم مائة فارس، وهو في الوقت نفسه له التقدمة على ألف فارس ممن دونه من الأمراء . انظر القلقشندي، صبح الأعشى، ج4، ص14؛ عاشور، العصر المماليكي، ص415.

(3) المنصوري، زبدة الفكرة، ص288-289؛ العيني، عقد الجمان، ج3، ص120؛ انظر أيضاً المنصوري، التحفة، ص130-131؛ المنصوري، مختار، ص92-93.

أحد أتباع الأمير بدر الدين بكتاش المشار إليه آنفاً ، في حين يلاحظ أن دوره في فتح قلعة الروم قد اكتنفه نوع من الغموض بعكس الدور الذي كان له في فتح عكا.

عاد السلطان الأشرف بعد فتح قلعة الروم إلى الديار المصرية[1]، ويظهر أنه قام قُبيل عودته إليها بإبقاء عدد من العسكر في حلب، وهم الذين قام بتجريدهم إلى حمص حين عاد للشام مرةً أخرى عام 692هـ/1292م بهدف "...حفظ الثغور الإسلامية احترازاً من هجوم العدو [المغول] على الأطراف، وتأميناً للرعايا لكيلا تفرق من مفاجأته ولا تخاف..."[2]، وقد كان العسكر المُجرد لحمص صحبة ثلاثة من المقدمين وهم؛ الأمير بدر الدين أمير سلاح المشار إليه سابقاً، والأمير شمس الدين كرتيه، والأمير سيف الدين بلبان الحلبي وقدوكان بيبرس المنصوري كما يذكر "..من مضافي لأمير بدر الدين أمير سلاح ...". وكانت مدة مكوثه معه في حمص ثلاثة أشهر[3].

وفي عام 693هـ/1293م قُتل السلطان الأشرف على يد بيدرا ومجموعة من الأمراء، ثم ما لبث أن قتل بيدرا على يد الأمير زين الدين كتبغا، وتولى الناصر محمد بن قلاوون السلطنة في مصر[4].

كان بيبرس المنصوري في هذه الأثناء ما زال في حمص، والسؤال الذي يطرح نفسه الآن ما هو الدور الذي لعبه بيبرس المنصوري في عهد السلطان الجديد وعهد من جاء بعده من السلاطين؟

---

(1) المنصوري، زبدة الفكرة، ص290.

(2) المنصوري، التحفة، ص133.

(3) المنصوري، زبدة الفكرة، ص 293؛ المنصوري، التحفة، ص 133؛ العيني، عقد الجمان، ج3، ص157- 158.

(4) المنصوري، زبدة الفكرة، ص295- 298.

6.3.1 دوره في عهد السلطان الناصر محمد [سلطنته الأولى]، والسلطان العادل كتبغا، والسلطان حسام الدين لاجين [693- 698هـ/1293- 1298م].

رأينا آنفاً كيف رافق بيبرس المنصوري الدولة المملوكية خطوة بخطوة في التحديات التي واجهتها على المستويين الداخلي والخارجي، في عهد كلٍ من السلطان الملك المنصور قلاوون وولده السلطان الملك الأشرف خليل، فما هو الدور الذي لعبه في عهد الناصر محمد بن قلاوون؟.

اتفق أثناء الأوضاع السياسية المشار إليها آنفاً (مقتل السلطان الأشرف وتولي الناصر محمد السلطنة) كما يذكر بيبرس المنصوري - انقضاء مدة إقامتهم في حمص وكانت ثلاثة أشهر كما ذكر آنفاً - وعودتهم إلى مصر "واتصلت بنا هذه الخطوب، ونحن بالصالحية، فأسرعنا بالحضور، فوجدنا الحال قد انتقل من شدة الحزن [أي بمقتل الملك الأشرف] إلى غاية السرور [أي بتولي الملك الناصر السلطنة]..."(1).

جاءت عودة بيبرس المنصوري إلى مصر بمعية الأمير بدر الدين أمير سلاح، فرصة لتوليه مناصب مهمة في الدولة تمثلت أولاً بترقيته من قبل السلطان الجديد عام 693هـ/1293م إلى مرتبة أمير مائة فارس ومقدم ألف، أي أنه أصبح من أمراء الألوف الذين يشكلون أعلى المراتب العسكرية في الدولة المملوكية، ناهيك عن توليته ديوان الإنشاء للنظر في البريد الوارد والصادر من الأبواب السلطانية، وتنفيذ المهمات المتعلقة بالرسائل والمكاتبات والبريد(2)، وقد مُنِحَ في هذه الوظيفة لقب "الدوادار"(3) الذي صار يُعرفُ به بعد هذا التاريخ.

---

(1) المنصوري، التحفة، ص138.

(2) المنصوري، زبدة الفكرة، ص 298؛ المنصوري، التحفة، ص 138؛ العيني، عقد الجمان، ج3، ص232؛ انظر أيضاً النويري، نهاية الأرب، ج 31، ص168؛ ابن الفرات، تاريخ، مج8، ص172؛ المقريزي، السلوك، ق3، ج1، ص794؛ المقريزي، المقفى، ج7، ص162- 163. ترجمة رقم "3265".

(3) الدوادار: مركب من لفظين؛ أحدهما عربي وهو الدواة، والمراد التي يكتب منها، والثاني فارسي وهو دار، ومعناه ممسك. ويكون المعنى "ممسك الدواة"، وحذفت الهاء من

وقد أصدر السلطان بهذه الوظائف المذكورة مرسوماً عام 693هـ/1293م ابتدأه بذكر ولاء بيبرس المنصوري للدولة المملوكية، ثم مخاطبته بأفضل الألقاب، فضلاً عن ذكر الميزات التي توفرت في بيبرس، وساهمت في تقليده ديوان الإنشاء ومقدم ألف، وقد جاء في هذا المرسوم عن بيبرس : "أن ذُكرت البلاغة فهو إمامها والكتابة فبيده زمامها، وإن امتطت أنامله جواد القلم فهو به المجيد أو اشتملت راحته على السيف فمن ذا عن فتكه يحيد أو اعتقل رمحاً فلا يحميمنه حصن مشيد ولا عمر حديد يقول فتطرب الأسماع عند مقاله ويؤدي الرسائل فتعجب الأفكار من حسن استرساله لا يريم فيها عما اعتاده من صدق اللسان و لا يتحمل منها إلا ما جمع بين الحسن والإحسان..."(1).

من الجدير بالذكر أن المقريزي(2)، وابن حجر العسقلاني(3) ذكرا أنه تولى الدوادارية في عهد السلطان الأشرف خليل ، بينما يلاحظ أن بيبرس نفسه لم يذكر في يومياته أية معلومة عن مزاولته لها في عهد السلطان الأشرف خليل بل أشار إلى أنه تولى ديوان الإنشاء في عهد السلطان الناصر محمد -كما ذكر آنفاً-.

آخر الدواة استثقالاً. انظر القلقشندي، صبح الأعشى، ج 5، ص434. ومن المهام التي يقوم بها الدوادار"... تبليغ الرسائل عن السلطان، وإبلاغ عامة الأمور، وتقديم القصص إليه، والمشاورة على من يحضر إلى الباب الشريف وتقديم البريد هو وأمير جاندار وكاتب السر، ويأخذ الخط على عامة المناشير والتواقيع والكُتب، وإذا خرج عن السلطان بكتابة شيء بمرسوم، حمل رسالته وعينت فيما يكتب ..."، وقد اختلفت آراء السلاطين في الدوادار؛ فتارة كان من أمراء العشروات والطبلخاناه، وتارة كان من أمراء الألوف . ومن الملاحظ أن بيبرس المنصوري قد تولى الدوادارية وهو مقدم ألف انظر القلقشندي، صبح الأعشى، ج4، ص19 -20؛ المقريزي ،الخطط ،ج3،ص88.

(1) المنصوري، زبدة الفكرة، ص298 -299.

(2) المقريزي، المقفى، ج2، ص531 -532. ترجمة رقم "1003".

(3) ابن حجر، الدرر الكامنة، ج2، ص43. ترجمة رقم "1384".

يمكن القول أن بيبرس ربما تولى هذه ا لوظيفة قبل عهد الأشرف أي في عهد المنصور قلاوون بدليل المراسيم التي أصدرها بحق ه عام 682هـ[1]، 683هـ[2]، 685هـ[3]، والتي يلاحظ من خلالها أنه يخاطبه فيها بلقب "الدوادار".

قام السلطان الناصر محمد إ ثر منحبيبرس المنصوري المناصب المشار إليه ا آنفاً بتجريده إلى الإسكندرية، وقد بيّنبيرس السبب من توجيهه إليها، فقال : وجرّدت إلى ثغر الإسكندرية لحفظه وحفظ موانيه وصون سواحله و شوانيه[4] [من اعتداءات الصليبيين]، فتوجهت إليه وخيمت عليه"[5].

بدأ بيبرس المنصوري حين وصوله الإسكندرية بتفقد الأحوال فيها ، حيث وجد سفناً صليبية مصدرها مدينة جنوه [في إيطاليا] تقوم بالاعتداء على المراكب الإسلامية والاستيلاء عليها، لذلك قام باتخاذ إجراءات تمثلت بإرسال العيون لرصد حركة تلك السفن أولاً، ثم مطاردتها من قبل الشواني [السفن] في البحر المتوسط ثانياً، وقد أشار بيبرس لذلك فذكر أن أحد المراك ب الصليبية الجنوية كانت قد اقتربت من سواحل الإسكندرية، فوضع خطة تدل على حنكته العسكرية تمكن من خلالها الاستيلاء عليه "...فأعلمت الحيلة عليه [المركب الجنوي] وبينت الرماة بالقسيرمراكب من الجوز الذي يأتي إليه، فأعان الله على أخذه قهراً والتمكن ممن كان فيه من الفرنج قتلاً وأسراً..."[6].

أرسل بيبرس المنصوري طاقم المركب الأسرى -وكان عددهم يقارب المائة- إلى السلطان الن اصر محمد[7] الذي لم يتسلمهم ، لأنه كان قد خلع من السلطنة على يد الأمير زين الدين كتبغا عام 694هـ/1294م الذي جلس مكانه، و تلقب بالعادل، وقد

---

(1) المنصوري، زبدة الفكرة، ص247.

(2) المصدر نفسه، ص251.

(3) المصدر نفسه، ص257.

(4) الشواني: جمع شيني (شينية) هي السفن الحربية. عاشور، العصر المماليكي، ص452.

(5) المنصوري، زبدة الفكرة، ص303؛ المنصوري، التحفة، ص142.

(6) المنصوري، التحفة، ص142.

(7) المصدر نفسه، ص142.

ذكرربيبه أنه كان أثناء ذلك مقيماً في الإسكندرية "وكنت يومئذ بالإسكندرية، فلم أشعر إلا وقد وردت البطائق [الرسائل] بجلوسه[الأمير المشار إليه آنفاً] في السلطنة والخطبة له في جميع الأمكنة..."[1].

وخلال وجده في الإسكندرية كلفه السلطان الجديد بأن يتولى رعاية مصالح الصعاليك[2] والفقراء فيها، و ذلك أبان المجاعة التي حصلت في مصر عام 694هـ/1294م نتيجة لانخفاض مستوى نهر النيل: "وكنت متولياً أمر توزيعهم [أي الصعاليك والفقراء] على التجار وأرباب المعايش والأيسار، ووظفت على نفسي منهم جماعة، و أجريتليهم جارياً قام بأودهم إلى أن انقضت المجاعة، وتواصلت الغلال إلى الإسكندرية، وتواترت من جزيرة صقلية والقسطنطينية وبلد الفرنجية"[3].

اعبيبرس المنصوري بعد إنهاء مهمته في الإسكندرية إلى القاهرة التي كان قد تفاعل مع أوضاع أهلها جراء المجاعة التي عمت أرجاء مصر، ويظهر ذلك من قوله: "وعُدت... إلى الأبواب السلطانية، فوجدت حال أهل القاهرة قد آل إلى التلف من المرض الشامل والموت العاجل..."[4].

لم يطلهكوث بيبرس المنصوري في القاهرة، فقد قام اله سلطان العادل في السنة نفسها بتجريه إلى برقة[5] للتحقق من صحة الخبر الواصل إليه، والمتمثل في "...أن العربن ببرقا قد عبثوا بالمسلمين وباعوا منهم جماعة للفرنج، و أن منصور بن

---

(1) المنصوري، زبدة الفكرة، ص305.

(2) الصعاليك: يطلق هالمصطلح على كل من لا يملك شيئاً . انظر البقلي، التعريف، ص222.

(3) المنصوري، زبدة الفكرة، ص 305-306نظر أيضاً العيني، عقد الجمان، ج 3، ص275-276.

(4) المنصوري، زبدة الفكرة، ص309؛ العيني، عقد الجمان، ج3، ص299-300.

(5) برقلةم صقيع كبير يشتمل على مدن وقرى بين الإسكندرية وإفريقية . انظر البغدادي، مراصد الاطلاع، مج1، ص186-187.

روق كان الباعث على بيعهم بسبب الغلاء الذي عمّ البلاد [نتيجة المجاعه] وأجـوج الآبا [الآباء] الى بيع الأولاد...".

لبر بيبرس المنصوري بمعية ا لأمير سيف الدين بلبان الحبيشي وأصحابه إلـى برقا لتحقيق الهدف المنشود، وعندما وصلوا تروجه[1] جاء البريد لبيبـرس مخبـراً بخلع العادل زين الدين كتبغا من السلطنة، واستقرار الأمير حسـام الـدين لاجـين المنصوري فيها، عندها عاد بيبرس المنصوري ومن معه بأمر من السلطان الجديد إلى القاهرة في أوائل سنة 696هـ/1296م دون أن يتحقق ما خرجوا من أجله[2].

لم يذكر بيبرس المنصوري أي دور له في عهد السلطان المنصور حسام الدين لاجين، لأنه استبعد في عهده من قبل نائب السلطنة في مصر الأمير سـيف الـدين منكوتمر (696-698هـ/1296-1298م)إلى بلاد الأشمونين[3][4]، مما يبدو أنه لم يكن مرضياً عنه.

إن المعلومات التي رواها بيبرس المنصوري سابقاً تنفي ما قالـه ابـن حجـر العسقلاني أن بيبرس المنصوري استمر دواداراً للسلطان المنصور حسام الدين لاجين[5].

7.3.1 دوره في سلطنة الناصر محمد الثانية [698- 708هـ/1298- 1302م].

عاد بيبرس إلى القاهرة من بلاد الأشمونين التي أبعده إليها الأمير سيف الـدين منكوتمر كما ذكرنا آنفاً، وقد ذكر أنه صادف يوم وصوله إليها يوم جلـوس الملـك

---

(1) تروجة: قرية بمصر من كورة البحيرة، من أعمال الإسكندرية. انظـر الحمـوي، معجـم البلدان، مج1، ص200؛ البغدادي، مراصد الاطلاع، مج2، ص27.

(2) المنصوري، زبدة الفكرة، ص312؛ العيني، عقد الجمان، ج3، ص319.

(3) الأشمونين: أصلها أشمون، ولكن أهل مصر يقولون عنها الأشمونين، وهي مدينة من مـدن الصعيد الأدنى غربي النيل. انظر الحموي، معجم البلـدان مـج 1، ص200؛ البغـدادي، مراصد الاطلاع، مج1، ص84.

(4) المنصوري، التحفة، ص155.

(5) ابن حجر، الدرر الكامنة، ج2، ص43. ترجمة رقم "1384".

الناصر في دست السلطنة إثر مقتل السلطان المنصور حسام الدين لاجين و نائبه الأمير سيف الدين منكوتمر، حيث يقول: "فحضرت من بلاد الأشمونين [عام698هـ/1298م]، وصادفت يوم جلوسه، و تلقاني الدهر بطلاقته بعد عبوسة ، فحمدت الله إذ أبعدني عن الضراء وأدناني من السراء ، فجلست يومئذ ومن حضر من الأمراء [الذين تم استبعادهم معه أيام السلطان المنصور لاجين]"[1].

يفهم مما تقدم أن بيبرس المنصوري أمضى أياماً عصيبة في بلاد الأشمونين، وأن عودة الملك الناصر محمد للسلطنة كانت بمثابة الفرج له لاستعادة هيبته التي ضاعت أيام السلطان المنصور حسام الدين لاجين ونائبه منكوتمر.

لما استقر السلطان الناصر بالسلطنة استدعى الأمراء والأكابر أرباب الآراء والمشاورة للاجتماع في القلعة، وقد أشار بيبرس إلى أنه كان أحدهم بهدف التشاور في أسماء الأمراء الذين سيتولون المناصب السياسية والإدارية في الدولة[2].

ابتدأ السلطان الناصر عهده الثاني -بعد إقراره مع الأمراء أسماء الذين سيتولون المناصب في الدولة- بالتوجه لبلاد الشام عام 698هـ/1299م بهدف إحباط التحركات المغولية عليها[3]، وقد ذكر بيبرس المنصوري أن السلطان أقره في غيبته نائباً[4] بقلعة الجبل في القاهرة وانتهت السنة المشار إليها آنفاً وهو كذلك[5].

لما وصل السلطان الناصر الشام اصطدم مع ايلخان المغول محمود غازان ابن أرغون في موقعة عُرفت بـ "مجمع المروج" عام699هـ/1299م، انهزم فيها السلطان الناصر، وقد أشار بيبرس إلى دوره حين علم بخبر الموقعة وكان يومئذ

---

(1) ابن حجر، الدرر الكامنة، ص155.

(2) المنصوري، زبدة الفكرة، ص326؛ العيني، عقد الجمان، ج3، ص452.

(3) المنصوري، زبدة الفكرة، ص328 -329.

(4) نائب الغيبة: هو الذي يترك [شأنه في الحكم] إذا غاب السلطان والنائب الكافل، وليس إلا لإخماد الثوائر وخلاص الحقوق، فحكمه في رسم الكتابة إليه رسم مثله من الأمراء . القلقشندي، صبح الأعشى، ج4، ص18.

(5) المنصوري، زبدة الفكرة، ص 328 -329؛ العيني، عقد الجمان، ج 3، ص461؛ انظر أيضاً النويري، نهاية الأرب، ج 31، ص240؛ المقريزي، المقفى، ج 7، ص166 -167. ترجمة رقم "3265".

نائب السلطان بالقلعة "... ولما وصل البريد بهذا الخبر [المشار إليه] إلى القلعة...، أخفيت أمره وأظهرت ضده، و تقدمت بضرب الطبلخاناه وتحريك الكوسات ، فزالت الأوهام وسكنت غوغاء العوام، ووصل السلطان إلى الديار المصرية وهي آمنه وأحوالها ساكنه..."[1].

بعد وصول السلطان الناصر مصر إثر الهزيمة التي مُني بها مع المغول قام بتجريد بيبرس المنصوري ومن كان مقيماً معه في القلعة ممن لم يشهد الوقعة المشار إليها آنفاً إلى الصالحية في الشام ، بهدف تسكين خواطر النواب في تلك الجهات، وإخبارهم بأن السلطانيرسل الإمدادات العسكرية إليهم ، لإنقاذهم من المغول الذين بدءوا بـ اجتياح بلاد الشام بقيادة غازان، وقد ذكر بيبرس أنه سار إليها وأنفذ المهمة بنجاح حتى حصل للنواب القوة والمنعة أمام المغول[2].

عمل السلطان الناصعلى تهدئة الأوضاع الخارجية مع المغول للتفرغ للأوضاع الداخلية في دولته التي كانت تتسم بظهور بـ عض حركات التمرد والعصيان التي كان يقوم بها العربان ، ففي عام 700هـ/1300م اختلفت عربان بلاد البحيرة[3] مع بعضها البعض، فبعث السلطان إليهم حملة تأديبية بقيادة بيبرس المنصوري لإخماد فتنتهم وإطفاء جمرتهم، وقد جرد معه من أمراء الطبلخانات عشرين أميراً، وتمكنت الحملة من الوصول إلى تروجه كما يذكر بيبرس "... فسرنا سيراً حثيثاً، فوجدناهمقد اتقعوا وافترقوا ، فتبعناهمفانهزموا وقصدوا اللبونة وغربي الإسكندرية، فأخذنا مواشيهم من الجمال والأغنام، وسيقت إلى الباب الشريف، وأحضرنا هؤلاء العربان بالأمان، وقررنا قواعدهم ونظمنا الصلح بينهم، وعدنا إلى الأبواب الشريفة"[4].

---

(1) المنصوري، التحفة، ص156- 157؛ المنصوري، مختار، ص111- 112.

(2) المنصوري، زبدة الفكرة، ص344- 345.

(3) بلاد البحيرة:هي كورة من كور الإسكندرية فيها قرى كثيرة . انظر الحموي، معجم البلدان، مج1، ص351؛ البغدادي، مراصد الاطلاع، مج1، ص168.

(4) المنصوري، زبدة الفكرة، ص348- 349؛ العيني، عقد الجمان، ج4، ص121- 122.

ومن الجدير بالذكر أن أغلب المصادر[1] أوردت هذه الحملة في حوادث عام 699هـ/1300م، وهذا لا يمكن قبوله باعتبار أن بيبرس نفسه أشار - كما ذكر آنفاً - إلى أنها كانت عام 700هـ/1301م.

وفي العام نفسه [700هـ/1301م] ثار العربان في منطقة الصعيد، مما دفع السلطان الناصر محمد إلى تجريد الأمير شمس الدين سنقر الأعسر إليها بهدف التحقق من ثورتهم بعث في أثره بيبرس المنصوري الذي يذكر أنه توجه إليها، واجتمع في فلوط في الأمير المشار إليه آنفاً، و قاما بإحضار أعيانهم [العربان] وقرّرت عليهم جناية من المال والخيل والجمال والسلاح، وجبيت فكانت ألف ألف وخمس مائة ألف درهم وألف رأس خيل وألفي جمل وعشرة ألف غنم، وحسمت مادتهم [ثورتهم]"[2].

لم ينته تمرد العربان في الوجه القبلي [الصعيد]، فقد قاموا في العام التالي [701هـ/1301م] بالاعتداء على التجار و أرباب المعايش في أسيوط[3] ومنفلوط[4]، الأمر الذي دفع السلطان الناصر محمد إلى إرسال حملة إليهم لتأديبهم، وقد ذكر المقريزي[5]، وابن تغري بردي[6] أن بيبرس المنصوري كان أحد المشاركين فيها،

---

(1) ابن إياس، محمد بن أحمد الحنفي (ت930هـ)، بدائع الزهور في وقائع الدهور، الهيئة المصرية العامة للكتاب، طبعة ثانية مصورة عن الطبعة الأولى، ق1، ج1، القاهرة، 1982م، ص407-408 وسيشار إليه تالياً ابن إياس، بدائع الزهور)؛ المقريزي، السلوك، ق3، ج1، ص914.

(2) المنصوري، زبدة الفكرة، ص351 المنصوري، مختار، ص116؛ العيني، عقد الجمان، ج4، ص139-140.

(3) أسيوطنية في غربي النيل من نواحي صعيد مصر انظر الحموي، معجم البلدان، مج1، ص193؛ البغدادي، مراصد الاطلاع، مج1، ص79.

(4) مَنْفَلُوطبلده بالصعيد في غربي النيل، بينها وبين شاطئ النيل بعد. انظر الحموي، معجم البلدان، مج5، ص214؛ البغدادي، مراصد الاطلاع، مج3، ص1323.

(5) المقريزي، السلوك، ق3، ج1، ص920-922.

(6) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج8، ص149-154.

مع أن النويري يتفق مع الأول في تاريخ تجريد الحملة التي أوردها في حوادث عام 698هـ/1298م.

ومع أن المؤرِخَيْن السابقين اتفقا على مشاركة بيبرس المنصوري في الحملة المشار إليها، إلا أن الباحث يشكك في روايتهما لعدة أسباب هي:

1. أن بيبرس نفسه يذكر أنه كان مشغولاً خلال سنة 701هـ/1301م في تتبع أخبار سياسة السلطان الناصر ضد المغول في بلاد الشام حين كان نائباً عنه في قلعة الجبل، وقد بيّن أن العام المذكور انتهى وهو في القلعة.

2. أما أن الحملة لم تحدث في عام 698هـ/1298م بل حصلت في عام 701هـ/1301م، باعتبار أن بيبرس المنصوري نفسه يوردها في هذا العام دون أن يذكر أية معلومة في يومياته عن مشاركته فيها.

وفي شوال من سنة 701هـ/1301م قام السلطان الناصر بإرسال ثلاثة وفود لأداء فريضة الحج، بلغ عددهم ثلاثين أميراً، وقد أشار بيبرس المنصوري إلى أنه انتُدب ليكون أميراً على الوفد المصري "فندبت للتقدم على الركب المصري، وكان ركباً كبيراً قد جمع خلقاً كثيراً"[1].

ولما وصل بيبرس المنصوري مكة المكرمة اجتمع في المقر الأشرف الأميري الركني أستاذ الدار أمير الوفد الثاني، وقد ذكر بيبرس أنه حضر إليهم اثنان من أولاد الشريف نجم الدين أبي نمي أمير مكة المتوفى، وهما عطيفة وأبي الغيث، وشكيا من أخويهما أسد الدين رميثة وعز الدين حميضة أنهما وثبا بعد وفاة أبيهم عليهما واعتقلاهما، ففرا من الاعتقال، فقبض على رميثة وحميضة وحملا إلى مصر، واستقر عوضهما في إمارة مكة عطيفة وأبي الغيث[2].

---

(1) المنصوري، زبدة الفكرة، ص364- 365

(2) المنصوري، زبدة الفكرة، ص 364- 365؛ العيني، عقد الجمان، ج 4، ص195- 196؛ انظر أيضاً المقريزي، السلوك، ق 1، ج1، ص924؛ ابن فهد، عمر بن محمد (ت885هـ)، إتحاف الورى بأخبار أم القرى، تحقيق فهيم محمد شلتوت، دار المدني، (د.ط)، ج3، جدة، (د.ت)، ص134- 135. وسيشار إليه تالياً ابن فهد:(إتحاف الورى).

بعدأداء بيبرس المنصوري فريضة الحج عاد إلى مصر في الوقت الذي عـــاود فيه المغول حملاتهم على بلاد الشام، الأمر الـذي دفع السلطان الناصر لعقد اجتمـــاع طارئ اتفق فيه الأمراء على تجريد حملة عسكرية بهدف "... تقوية جـــأش أهـــل الشام، وتثبيتاً لجيوشه على المقام إلى أن يتضح الـحال ويزول الإشكال...". وقد تـــم إرسال ستة من مقدمي الألوف على رأس هذه الحملة ذكر بيبرس المنصوري أنـــه كان أحدهم"..فكنا ستة من مقـدمي الألـــوف وجماعـــة المضـــافين مـــن الأمـــراء والمقدمين، فرحلنا من مسجد التبن في الثامن عشر من رجب...[702هـ/1302م]، وسرنا على اسم الله و بركته،فلما وصلنا قاقون تواترت الأخبار بصـــحة وصـــول التتار [المغول] وأن قازان كان فيهم..."[1].

أشاربيبرس المنصوري بعـد ذلك إلى أن الحملة تقدمت إلى دمشق، فدخلوها في 10 شعبان 702هـ/1302م،بهدف مراقبة تحركات المغول عن كثب، و قد صـــور بيبرسفرحة العامة حين قدومهم إليها، فقال:"... [و]استبشر أهلها وفرحوا ..."في الوقت الذي كانت فيه عساكر الولايات الشـامية (حلب، حماة، طرابلس، دمشق) كما يذكر بيبرس قد تقدمت إلى القريتين التي اصطدموا فيها مع المغول الـــذيـن هُزمـــوا بقيادة قطلوشاة.

بعد هذه الهزيمة اجتمع المغول مع بقية عساكرهم، واتفقوا على مباغتة العساكر الشامية والمصرية الموجودة في دمشق مستغلين عدم تحرك السلطان الناصر مـــن مصر لمساندتهم، وقـد قدم بيبرس صورة واضحة عن أوضاعهم حين علموا بتقـــدم المغول إليهم، فقال :"...فكثرت الأراجيف بمفاجأتهم والإنـــذار بمهـــاجمتهم هـــذا، والسلطان ومن معه لم يـتحقق حالهم وعلم إقبـــالهم، فتقســـمت الأفكـــار والظنـــون، وتطلعت لقدومهم العيون، واجتمعنا للاستخارة و اقتدحنا زناد الاستشارة، فاجمعنا على استطلاع الحال قبل العزم على الترحال".

كانت مهمة التحقق من قدوم المغـول إلى بيبرس المنصوري، ومن معـــه مـــن أمراء مصر الذين خرجوا من دمـشق،وقد تحدث هو عن ذلـــك فقـــال ": فتوجهـــت مستكشفاً والأخبار متعوقة،فلما وصلنا القطيفة صـــادفنا عســـكر حلـــب وحمـــص

(1) المنصوري، زبدة الفكرة، ص367.

وحماة...واخبروا بان العدو ساير [سائر]بير المجد في الرواح و الغدو... فرجعنا إلى مرج راهط [بنواحي دمشق]... ريثما يحصل التوثق من وصول السلطان"[1].

تأخر السلطان في القدوم إلى الشام الأمر الذي أدى إلى اضطراب أحوال الأهالي والعساكر الشامية والمصرية، وقد بقوا على ذلك فترة حتى جاء البريد وفي هذا يقول بيبرس مصوراً وضعه في تلك الأثناء وكيف كان دوره في طمأنة الأمراء والأهالي: ".وبينا أنا مفكر في هذا الأمر [الأوطع المشار إليها آنفاً]، مر بي بريد راكض، فسألته عن السلطان، فأخبر باقترابه ووصوله في أطلابه[2]، فقصدت تحقيق روايته، والوقوف على كتبه، فأخذتها منه غصباً، وأوجعته ضرباً لما كنت فيه من التوق على الإسلام، والقلق الذي منع الأجفان لذيذ المنام.فلما وقفت على الكتب، وتيقنت وصول السلطان عن كثب قرأتها على الأمراء، وأخذت في رد العساكر التي قصدت التأخير، وعجلت إلى الرجوع المسير ليعودوا إلى مرج الصُّفَّر، فتراجعوا إليه..."[3]

وما إن وصل السلطان حتى قسمت العساكر الشامية والمصرية ثلاثة أقسام هي: القلب والميمنة والميسرة، واصطدم في موقعة مع المغول عُرفت بـ"مرج الصُّفَّر" عام 702هـ/1303م أسفرت عن هزيمة المغول، أما دور بيبرس المنصوري فيها، فقد ذكر هو عن نفسه أنه كان في ميسرة الجيش[4].

---

(1) المنصوري، زبدة الفكرة، ص373- 375؛ المنصوري، التحفة، ص163- 165.

(2) الأطلاب: جمع طلب، وهو لفظ كردي معناه الأمير الذي يقود مائتي فارس في ميدان القتال، ويطلق أيضاً على قائد المائة أو السبعين. وقد عدل مدلول اللفظ فأصبح يطلق على الكتيبة من الجيش. انظر عاشور، العصر المماليكي، ص455.

(3) المنصوري، مختار، ص123- 124.

(4) المنصوري، زبدة الفكرة، ص375- 377؛ المنصوري، التحفة، ص165- 166؛ المنصوري، مختار، ص 124- 126؛ النويري، نهاية الأرب، ج 32، ص16- 21؛ ذكر المقريزي هذه الموقعة ومشاركة بيبرس المنصوري فيها، ولكن أطلق عليها موقعة شقحب. المقريزي، المقفى، ج 2، ص538- 539. ترجمة رقم "1004". ج7، ص180- 185. ترجمة رقم "3265".

أرسل بيبرس المنصوري إلى النواب في مصر كتاباً تضمن البشارة بالنصر على المغول[1]، ثم عاد وا بعد ذلك من الشام لمصر كما يذكر فأقاموا فيها، وقد أغدق عليهم السلطان المنح والهدايا بمناسبة النصر على المغول[2].

لم يلبث بيبرس المنصوري طويلاً في القاهرة ، فقد صدرت أوامر السلطان الناصر في أعقاب عودته من الشام عام 702هـ/1303م بتوجيهه إلى ثغر الإسكندرية لترميم أسواره وخنادقه وعمارة ما تساقط من مبانيه و مرافقة بسبب الزلزال الذي ضرب مختلف أرجاء مصر ، وكان أكثر تأثيره في ثغر الإسكندرية الذي كان الناس يظنون أن عمارته تحتاج للمال الكثير والوقت الطويل ، ولكن بيبرس المسؤول عن عملية العمران يقول : "..فيسر الله تعالى مرامه ، وعُمر في أقرب مدة بأيسر مؤونة، وأقل نفقه بسعادة مولانا السلطان..."[3].

كان للدور الذي لعبه بيبرس على الصعدين الداخلي والخارجي -كما ذكر آنفاً أكبر الأثر في ترشيحه من قبل السلطان عام 703هـ/1303م لحمل الشتر [الجتر] السلطاني في المواكب الشريفة[4]، وفي هذا يقول بيبرس"... فشكرت نعمته التي أحلتني هذا المحل، وأيادي بره التي غمرتني منه [الناصر محمد] ومن أبيه [السلطان المنصور قلاوون] من قبل..."[5].

ويجب التنويه إلى أن المقريزي وابن حجر العسقلاني أشارا إلى أن بيبرس المنصوري كان قد عزل من وظيفة الدوادارية عام 704هـ/1305م، بسبب أنه أرسل إلى القاضي شرف الدين عبدالوهاب كاتب السر أن يكتب إلى نائب الشام

---

(1) المنصوري، مختار، ص129.

(2) المصدر نفسه، ص132.

(3) المنصوري، التحفة، ص 173؛ ذكر ابن إياس أن بيبرس المنصوري حين توجه إلى ثغر الإسكندرية لعمارته وجد أن عدة ما سقط من الأبراج سبعة عشر برجاً، ونحو ستة وأربعين بدنة. انظر ابن إياس، بدائع الزهور، ق1، ج1، ص416-417.

(4) الجتر أو الشتر بجيم مكسورة، قد تبدل شيناً معجمة، وتاء مثناه فوق، وهي المظَلَّة أو قُبَّة من حرير أصفر مزركش بالذهب؛ على أعلاها طائرٌ من فضة مطلية بالذهب، تحمل على رأس السلطان في العيدين. انظر القلقشندي، صبح الأعشى، ج4، ص6.

(5) المنصوري، التحفة، ص175؛ العيني، عقد الجمان، ج4، ص309.

كتاباً، فأخبره أنه لا بد من مشاورة السلطان أو النائب، فغضب بيبرس المنصوري واستدعاه وعنفه وضربه على رأسه، فخرج من عنده إلى الأمير سلار النائب، فأخبره بما حدث، فأقره عنده، ثم اجتمع بالأمراء بمن فيهم الأمير بيبرس الجاشنكير، واتفقوا على بيبرس المنصوري، حيث أخذ سيفه وعوق من بكرة النهار إلى الظهر، وعنف تعنيفاً زائداً، وعزل عن الدوادارية(1).

مع أن المقريزي وابن حجر العسقلاني يؤكدان أن بيبرس المنصوري كان قد عزل من وظيفة الدوادارية في سلطنة الناصر محمد الثانية، إلا أن ذلك لا يمكن أن يقبل بدليل أن بيبرس المنصوري في السنة ذاتها ذهب بأمر من السلطان على رأس الوفد المصري لأداء فريضة الحج(2)، كما ابتدأ بيبرس المنصوري عامه الجديد 705هـ/1306م بعد عودته من الحج بالمشاركة في الحملة العسكرية الموجهة نحو سيس التي رفض صاحبها أن يدفع المال المقرر عليه للدولة المملوكية، الأمر الذي دفع السلطان الناصر إلى تجريد حملة عسكريه تجاهه، كانت بقيادة الأمير بدر الدين بكتاش الفخري أمير سلاح الذي يذكر بيبرس المنصوري أنه عُين كمساعد له في هذه الحملة للقيام بمعظم مهامها خاصة المتعلقة منها بالبريد كونه دوادار "...وكنت في المجردين، فرسمي بالحديث معه في تقدمة العسكر وتدبير أحوال التجريد، وتلقي الواردات والصادر من البريد لأن المشار إليه كان قد تمكن منه الكبر وخانه الثقتان؛ السمع و البصر فلم يكن يستبين شخصاً ولا يسمع لمخاطب نصّاً، فتحدثت في التقدمة وأسبابها وحملت عنه جميع أتعابها، ولم أقطع أمراً دون عرضه عليه، وتوصيله إليه رعايةً لقدمته وحفظاً لسابقته".

ذكر بيبرس أن الحملة خرجت من القاهرة في منتصف شعبان عام 705هـ/1306م، ووصلت غزة فأقاموا فيها، ومن هناك تم إرسال الكتب إلى الأمير

---

(1) المقريزي، السلوك، ق 1، ج2، ص8؛ المقريزي، المقفى، ج 2، ص532. ترجمة رقم "1003"؛ ابن حجر، الدرر الكامنة، ج2، ص43. ترجمة رقم "1384".

(2) المقريزي، السلوك، ق 1، ج2، ص11؛ ابن فهد، اتحاف الورى، ج 3، ص140- 142؛ العيني، عقد الجمان، ج 4، ص366- 367؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج 8، ص215.

شمس الدين قراسنقر نائب السلطنة بحلب معلمة له بقدومهم، فكاتب نائب حلب بدوره صاحب سيس يهدده ويخبره بحركة العساكر السلطانية تجاهه، فرد عليه صاحب سيس بأن أرسل إليه رسلاً بأنه على الطاعة وسيدفع ما عليه من مال.

قام نائب حلب بدوره بإرسال رسل صاحب سيس إلى السلطان الناصر الذي أصدر أمره بعودة الحملة وفي هذا يقول بيبرس: "...فاقتضى الحال عودنا ... من غزة أخر شوال، والوصول إلى [مصر] أول ذي الحجة..."[1].

أما ما يذكره ابن أيبك الدواداري من أن بيبرس المنصوري كان قد شارك في عام 703هـ/1303م في حملة عسكرية تجاه سيس[2]، فهذا أمرٌ لا يقبل، لأن بيبرس نفسه حين ذكرها في أحداث سنة 703هـ/1303م لم يذكر أنه شارك فيها[3]، ومن المحتمل أن يكون قد اختلط الأمر على ابن أيبك.

لم يمض على عودة بيبرس المنصوري إلى مصر فترةً طويلة، حتى بدأت الأوضاع الداخلية بالتدهور، ففي بداية عام 706هـ/1307م حدث التنافر بين القائمين بأمور الدولة المملوكية الأمير بيبرس الجاشنكير[4] والأمير سلار بسبب الأمير علم الدين سنجر الجاولي الذي تغير عليه الأمير بيبرس الجاشنكير بفعل وشاية التاج ابن سعيد الدولة الكاتب، وقد كان الجاولي صديقاً للأمير سلار الذي قاطع الأمير بيبرس الجاشنكير من أجله.

---

(1) المنصوري، زبدة الفكرة، ص 383-384؛ المنصوري، التحفة، ص 177-178؛ العيني، عقد الجمان، ج4، ص382-383؛ انظر أيضاً المقريزي، السلوك، ق1، ج2، ص16-17.

(2) انظر ابن أيبك الدواداري، كنز الدرر، ج9، ص110-112.

(3) انظر المنصوري، التحفة، ص174.

(4) الجاشنكير: هو الذي يتحدث في أمر السماط مع الأستادار، ويتذوق الشراب قبل السلطان في الولائم والأسمطة خوفاً من أن يدس فيه سم أو نحوه، ويساعده صغار الجاشنكيرية. والكلمة فارسية مركبة من لفظين؛ أحدهما: جاشنا، ومعناها الذوق، والثاني كير، ومعناها: المتناول أي الذي يتذوق الطعام انظر القلقشندي، صبح الأعشى، ج4، ص21، 46؛ البقلي، التعريف، ص80.

قام الأمراء بمن فيهم بيبرس المنصوري في السعي في الإصلاح بين الطرفين، وقد أشار إلى ذلك المقريزي "... وما زالو بهما حتى سكن الشر، وأُخرج الجاولي إلى الشام... فعاد بيبرس [الجاشنكير] إلى ما كان عليه من موادة سلار"[(1)].

ومن الملاحظ أن بيبرس المنصوري كان رجلاً يوفق بين الآخرين، فقد قام في سنة707هـ/1307م بمحاولة التوفيق بين السلطان الناصر وكلٍ من الأمير بيبرس الجاشنكير والأمير سلار إثر نفي الأميرين المذكورين بعض مماليك السلطان إلى القدس ظناً منهما أنهم كانوا السبب في تحريض السلطان عليهما، وفي ذلك يقول بيبرس أنه أشار عليهما "سراً وجهراً بان تعاد مماليك السلطان إليه، ويرد كل منهم مخلوعاً عليه لتزول الأثرة وتنجلي الغمرة...".

لم يقبل الأميران برأي بيبرس المنصوري الذي يذكر أنهما علما فيما بعد "... أن الرشاد فيما قلته والصواب فيما رايته..."[(2)]. لذلك قاما باستدعاء أحدهم من القدس، وفي ظل هذه الظروف كان الأمير جمال الدين اقوش الافرم نائب السلطنة بدمشق قد كتب كتاباً إلى الأمير بيبرس بضرورة التدخل في الإصلاح بين الطرفين، وفي هذا يذكر بيبرس أنه أرسل إليه الجواب بأن الأمور قد استقرت بينهم، وأن هذه الفتنة لم تكن سوى نوع من العتاب[(3)].

وفي إطار العلاقات الخارجية كان له رأي جرئ عندما بلغه أن الأمير سيف الدين سلار عام 707هـ/1307م ينوي الخروج بجيش لغزو اليمن، حيث قال: "... إن هذا الأمر مضرته أضعاف منفعته، وكلفته أمثال عائدته، وأن فيه فساداً ظاهراً وتكليفاً حاضراً، ولم يكن هناك باعث يوجبه ويقتضيه، ولا كبير أمر يلجئ إلى الدخول فيه، وأن تخلو البلاد من أعيان العساكر ويستنفد جل ما في الذخائر لأمر

---

(1) المقريزي، المقفى، ج 2، ص541.ترجمة رقم "1004"؛ المقريزي، السلوك، ق 1، ج2، ص23- 26.

(2) المنصوري، زبدة الفكرة، ص392- 393؛ المنصوري، التحفة، ص182.

(3) المنصوري، زبدة الفكرة، ص392- 393.

يغني فيه الكتب عن الكتائب و الرسائل عن الذوابل، ويترك الوجه الشرقي الذي يقدم بضبطه الاهتمام وتبدي أمره كل المهام..."[(1)].

8.3.1 دوره في الصراع الذي حدث بين الملك الناصر محمد وكلٍ من بيبرس الجاشنكير وسيف الدين سلار (708- 710هـ/ 1308- 1310م).

وفي سنة 708هـ/1308م قرر الناصر محمد مفارقة الديار المصرية للتخلص من سيطرة الأمير بيبرس الجاشنكير والأمير سلار، وأظهر أنه يريد الذهاب إلى الحجاز بهدف الحج، وفي الحقيقة كان ينوي التوجه للكرك.

ويذكر بيبرس المنصوري أنه عندما عزم السلطان على ذلك، اجتمع مع الأميرين المشار إليهما آنفاً للتشاور في سفر السلطان، حيث أشار عليهما بأن السلطان سيبقى سلطاناً بغض النظر عن مكان إقامته ما داما على طاعته وحفظ بيعته "فلو فرضنا ما ذكرتماه من تصميمه على إقامته بالكرك و أنتما معه على الأمر المتفق والرأي المشترك والمنابر مشرفة بخطبته والعساكر محافظة على طاعته، لم يتغير النظام ولا انقسم الالتيام [الالتئام]...".

بهذا الجواب انتهى الحوار بينهم، ثم أن السلطان الناصر قام بجمع الأمراء بمن فيهم بيبرس المنصوري في 15 رمضان 708هـ وأوصاهم بالاتفاق وعدم الشقاق في غيبته، فأجابوا بالسمع والطاعة[(2)].

توجه السلطان الناصر بعد ذلك بمعية العديد من الأمراء إلى الكرك، فوصلها يوم الأحد 10 شوال 708هـ فأقام بها، ثم أعاد بعض الأمراء الذين رافقوه إلى مصر وبرفقتهم كتاب صادر منه تضمن تنازله عن السلطنة ورغبته في البقاء في الكرك، ناهيك عن أذنه لهم بإقامة من يصلح للسلطنة من بينهم.

وصل الأمراء بكتاب السلطان الناصر إلى مصر، وعند ذلك اجتمع الأمير بيبرس الجاشنكير والأمير سلار والأمراء بمن فيهم بيبرس المنصوري للتشاور فيما تضمنه كتاب السلطان، وقد أشار بيبرس المنصوري على الأميرين المشار إليهما

(1) المنصوري، التحفة، ص183- 185.

(2) المنصوري، التحفة، ص187- 188؛ المنصوري، زبدة الفكرة، ص403- 404.

بأنه ينبغي مراسلةالسلطان ومراجعتة و استعطافه ليعود إلى السلطنة ، وأن يتوجه إليفي هذه الرسالة كبار الأمراء ، فأجاب الأميران أنه"... متى حصلت المراجعة والمفاوضة يخشى من عبث الجمهور والاضطراب في الأمور، ونحن نجتمع في القلعة وقت الظهيرة، وننظر في هذه المشورة ...". عند ذلك أمسك بيبرس عن الجواب، ورجع كل إلى منزله[1].

عاود الأمير بيبرس الجاشنكير والأمير سيف الدين سلار الاجتماع بالأمراء على اختلاف طبقاتهم وقت الظهيرة للتشاور فيمن يلي السلطنة، فأشار بيبرس المنصوري وعدد من الأمراء إلى أنه يجب عرض الأمر على الخليفة والقضاة لمعرفة رأيهم قبل اتخاذ أية خطوة وتخرج الطلب لهم، وحضروا فقرئ عليهم كتاب السلطان، شهد عند قاضي القضاة زين الدين علي بن مخلوف المالكي الأميران عز الدين الخيطي والحاج آل ملك، ومن كان معهم من الأمراء ، بنزول الملك الناصر عن المملكة، وترك سلطنة مصر والشام"[2].

وبعد قراءة كتاب السلطان أشار الأمراء بمن فيهم بيبرس المنصوري على الأميرين المشار إليهما بأنهما كانا "المدبرين لسلطنته [أي للناصر محمد] والأمر إليكما في غيبته، فتفاوضا فيمن يقوم... بالأمر [السلطنة]...".

أعلن الأمير بيبرس الجاشنكير نفسه سلطاناً للدولة المملوكية و تلقب بالمظفر، بعد مشاورته للأمير سلار الذي أصبح نائباً له[3].

لم يلق تقلد بيبرس الجاشنكير السلطنة استجابة عدد كبير من الأمراء الموالين للسلطان الناصر في مصر، الأمر الذي دفعهم لتركها عام 709هـ/1309م واللحاق بالسلطان في الكرك[4].

---

(1) المنصوري، التحفة، ص189 -191؛ المنصوري، زبدة الفكرة، ص404 -406.
(2) المقريزي، السلوك، ق1، ج2، ص45 -46.
(3) المنصوري، زبدة الفكرة، ص406.
(4) المنصوري، زبدة الفكرة، ص414؛ المنصوري، التحفة، ص194.

ما إن علم السلطان المظفر الجاشنكير بهروب الأمراء إلى الك رك حتى اصدر أمره بالقبض عليهم وعلى المتبقين منهم في مصر لاتهامه إياهم بالمواطأة معهم فضلاً عن مصادرته أقطاعاتهم(1).

لم تلق سياسة السلطان المظفر الجاشنكير هذه قبولاً لدى بيبرس المنصوري فقد اعترض، وأشار على أولئك الذين دفعوا السلطان إليها "... بان لا يفعلوا لأن في ذلك إجحافاً وإصابةً للأبرياء وإفساداً للخواطر فلم تقبل هذه الإشارة، و لما تحقق وصولهم إلى السلطان [الناصر] أشرت بان المصلحة تقتضي التلطف و إن تعين لهم أقطاعات تقوم بهم في خدمته، فلم يعرجوا على ذلك"(2).

وإذا كان بيبرس المنصوري قد وقف إلى جانب تهدئة الأوضاع في مصر ودفعها بعيداً عن التأزم كما هو واضح مما تقدم، فإنه فعل الشيء ذاته عندما دعاه السلطان الجاشنكير للتشاور بشأن إرسال تجريده إلى بلاد الشام لضرب أمرائها الذين لحقوا للملك الناصر محمد عام 709هـ/1309م على أن يؤيدوه في استعادة ملكه، فأشار عليه بوجوب إطفاء الفتنة و التنازل عن السلطنة للملك الناصر محمد(3).

لم يأخذ السلطان الجاشنكير بمشورة بيبرس المنصوري الأمر الذي جعل الأوضاع الداخلية للدولة المملوكية تتأزم، فقد أرسل رسالة تتضمن التهديد والوعيد للناصر محمد الذي قام بدوره بمراسلة أمراء بلاد الشام يستحثهم على مساعدته في استعادة ملكه(4)وقد بعث هذه الرسائل مع جندي يسمى تاج الدين أوران الذي يذكر

---

(1) المنصوري، زبدة الفكرة، ص414؛ المنصوري، التحفة، ص194.

(2) المنصوري، زبدة الفكرة، ص414؛ المنصوري، التحفة، ص194.

(3) المنصوري، زبدة الفكرة، ص 414-415؛ المنصوري، التحفة، ص 194-195؛ انظر أيضاً المقريزي، المقفى، ج 2، ص551-553؛ ج7، ص199؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج8، ص268-272، ج9، ص3-5.

(4) المنصوري، زبدة الفكرة، ص515-416؛ المنصوري، التحفة، ص197.

بيبرس المنصوري أنـــه كـــا ن يخمـعنـــده أيـــام ولايتـــه علـــى الكـــرك عـــام 685هـــ/1286م[1].

اكتشف السلطان الجاشنكير هذه الرسائل الأمر الذي أثار حفيظته، ويذكر بيبرس المنصوري أنه كلما اجتمع بالسلطان الجاشنكير كان يق وم بنصحه في حفـظ نظـام الدين وحقن دماء المسلين وإخماد الفتن بطلب المسالمة، ولكـ ن حين يخـ رج من عنده يقوم أتباعه بتحريضه على قتال الناصر محمد.

استجاب أمراء الشام لـ داء الملك الناصر محمد الذي قام على إثر ذلك بالتوجـه من الكرك إلى دمشق حيث اتخذ الاستعدادات المناسبة لاستعادة عرشه في مصـر ، وفي ظل هذه الظروف يذكر بيبرس المنصوري أنه كان ما يـزال يقـدم الـ نصـح للسلطان الجاشنكير "... بأن في السلم السلامة وفيما سواه ندامة..."[2].

بعد ئك توجه الملك النـ اصر في يوم الثلاثاء 9 رمضان 709هـ/1309م مـن دمشق إلى غزة بهدف استعادة عرشه في مصر، الأمر الذي دفع السلطان الجاشنكير إلى استشارة الأمير سيف الدين سلار وبكتوت الجوك ندار وقمجاز السلاح دار فيمـا فيعله، فأشاروا عليه بأنه يجـ ب "مراسلة السلطانبالاستعطاف والتوبـة والاسـتغفار والتماس مكان يأوي إليه هو [الجاشنكير] وألزامه وعياله قبل إدراك العساكر وإشهار البواتر واستحكام القهر والغلبة وتعذر الإجابة إلى هذه الطلبة..."[3].

وافق الجاشنكير على هذا الرأيفانتدب اثنين من كبار دولته وهمـا ؛ بيبـرس المنصوري والأمير سيف الدين بهادرآص ليكونا سفيريه إلى الملك الناصر ، حيث حملهما كتاب تضمن طلبه الأمان منه وإقطاعه أحد الأماكن الثلاثة التالية؛ الكرك أو حماة أو صهيون. ناهيك عن تنازله عن السلطنة للملك الناصر[4].

---

(1) المنصوري، زبدة الفكرة، ص416.

(2) المنصوري، التحفة، ص197 -198.

(3) المصدر نفسه، ص201.

(4) المصدر نفسه، ص202.

ومن الجدير بالذكر أن الجاشنكير قرر مع سفيريه أنه ينزل من القلعة ويقيم قريباً من إطفيح[1] إلى أن يعودا بأمان الملك الناصر[2].

ارسل بيبرس المنصوري كما يذكر مع الأمير بهادر آص بـ رسالة الجاشنكير إلى الملك الناصر، حيث وصلا غزة و اجتمعا به و اخبراه بمضمون الرسالة، فاستبشر بحقن الدماء وسكون الفتنة، وأغدق على السفيرين الأموال، ثم أعادهما بالجواب إلى الجاشنكير ورحل الملك الناصر تجاه مصر[3].

عاد بيبرس المنصوري و الأمير بهادر آص إلى قلعة الجبل بالقاهرة في 25 رمضان 709هـ/1309م ومعهما أمان الملك الناصر لـ لسلطان الجاشنكير الذي يذكر بيبرس المنصوري أنه حين وصولهما لم يجده مقيماً في الموضع الذي اتفقا معه عليه للالتقاء وهو إطفيح، بل وجداه قد غادره مع مماليكه و خاصته والأموال التي كانت في خزينة الدولة والخيول التي كانت بالإسطبلات السلطانية خوفاً من الملك الناصر إلى إخميم، فقاما بإرسال أمان الملك الناصر محمد إليه مع أحد الأشخاص ليلحقه به، وعادا ليلتحقا بالملك الناصر الذي كان قد وصل إلى بركة الحاج فعيدا عيد الفطر، ثم توجه إلى قلعة الجبل في القاهرة[4]، حيث جلس في يوم الخميس 2 شوال 709هـ/1309م في دست السلطنة[5].

---

(1) إطفيح: بكسر الألف، بلد يوجد في الصعيد الأدنى من أرض مصر على شاطئ النيل في شرقيه. انظر الحموي، معجم البلدان، مج1، ص218.

(2) المنصوري، التحفة، ص202.

(3) المصدر نفسه، ص203.

(4) المنصوري، التحفة، ص 201- 204. انظر أيضاً أبو الفداء، المختصر، ج 2، ص398- 399؛ النويري، نهاية الأرب، ج 32، ص109- 110، 115؛ ابن الوردي، تاريخ، ج2، ص367- 368؛ ابن خلدون، تاريخ، ج5، ص484- 485.

(5) المنصوري، التحفة، ص206.

9.3.1 دوره في عهد السلطان الناصر محمد [سلطنته الثالثة 709-725هـ/ 1309-1324م].

لم يترك الملك الناصر بعد عودته للسلطنة الجاشنكير وشأنه، فقد بعث إليه بيبرس المنصوري والأمير بهادر آص لاستعادة الأموال التي أخذها من خزينة الدولة عند رحيله، وقد أشار بيبرس نفسه إلى ذلك، فقال: "فسرت إليه أنا والأمير سيف الدين بهادر آص حتى انتهينا إلى إخميم[1] فألفيناه بها في عيش ذميم... فتلطفنا في استخراج الخزائن من حرزه وأعلمناه إنه لا مندوحة له عن أبواب مولانا السلطان والتماس العفو والإحسان لعله يمتن عليه بمكان. فسأل أن يعين له المكان ويشمله الأمان ليتوجه إليه من غير مثول بين يديه خوفاً من سطواته، وتحذراً من نقماته لعلمه بما أدركه من العدوان، وأن مثل ذنبه يتجاوز الغفران، ويقرر مسيره راجعاً خاضعاً وفارقناه على ذلك، وكان معه طائفة من صبيانه فهموا ذات ليلة بالوثوب علينا فوقت منهم العناية الربانية، والسعادة السلطانية، وأحضرنا الخزائن برمتها والأموال بجملتها"[2].

من الواضح مما تقدم أن بيبرس المنصوري ورفيقه قد اتبعا سياسة لينة مع الجاشنكير لاسترجاع الأموال التي أخذها من خزينة الدولة، بالرغم من المؤامرة التي دبرت ضدهما من قبل صبيان الجاشنكير، وهذا أن دل على شيء فإنما يدل على الحكمة وحسن التدبير عند الاثنين.

كانت المواقف التي قام بها بيبرس المنصوري آنفاً سبباً في تقريب السلطان الناصر له ويدل على ذلك تقليده إياه في عام 709هـ/1309م نيابة دار العدل الشريف[3]، للنظر على الأوقاف المنصورية في الديار المصرية والشامية

---

(1) إخميم: مدينة من مدن صعيد مصر انظر الحموي، معجم البلدان، مج1، ص123؛ البغدادي، مراصد الاطلاع، مج2، ص841.

(2) المنصوري، التحفة، ص207.

(3) دار العدل: هي المكان الذي كان يحضر فيه رئيس ديوان الإنشاء ومعه كُتَّاب الدست (الموقعون) يحضرون مع السلطان أو من ينوب عنه جلسات النظر في المظالم لقراءة المظالم التي يحملها الدوادار إلى المجلس، وإذا لم يتخذ قراراً في هذه المظالم أثناء وجود

(الأحباس) وفي هذا يقول بيبرس نفسه: "... فباشرتها مستجلباً صالح الأدعية للسلف والخلف، واجتهدا في تنقيل الأجور وتخفيف الكلف، فجرت أحوالها بسعادة مولانا السلطان على النظام المستقيم وعمت بيسارها كل ظاعن ومقيم وولي الوظائف أهلوها من العلماء والفقهاء والمدرسين والمفسرين، وأجريت أرزاق أربابها أجمعين وأصبحوا للصدقات السلطانية شاكرين وببقائها على الدوام داعين"[1].

ومع أن النويري[2] ذكر أن بيبرس تولى وظيفة النظر على البيمارستان [المستشفى] المنصوري، كما أن كلا من المقريزي[3] وابن حجر العسقلاني[4]، وابن تغري بردي[5] ذكروا أنه أعيد لتولي وظيفة دوادار بالإضافة إلى الوظائف الأخرى، فليس ثمة ما يؤكد ذلك في المصادر الأخرى، ثم أن بيبرس نفسه لم يذكر أية معلومة عن تقليده هذه الوظائف.

وفي سنة 710هـ/1310م بلغ السلطان الناصر عن الأمير سلار في الشوبك أمور جعلته ينتدب أحد خاصته وهو بيبرس المنصوري لإحضاره، وفي ذلك يقول بيبرس نفسه: "ومما اتفق لي من المحاورة مع سلار عند التوجه إليه... لإحضاره، أنني أجريت معه وجوب طاعة مولانا السلطان عليه، وأذكرته سوابق إحساناته إليه، فقال [سلار] إنما مثلك مثل النعوت [وهو الفرس العتيق السريع] التي تسوق الأغنام

السلطان أو من ينوب عنه، فإنها تحمل إلى ديوان الإنشاء لبحثها، ومنه ترسل إلى الجهات المختصة للتنفيذ ويوقع عليها بذلك، ويكون هذا التوقيع من قبل رئيس الديوان، وأما بمراجعة السلطان أو بغير مراجعة. انظر البقلي، التعريف، ص130.

(1) المنصوري، التحفة، ص 210-211. انظر أيضاً المقريزي، السلوك، ق1، ج2، ص75، 269 المقريزي، المقفى، ج2، ص532. ترجمة رقم "1003"؛ المقريزي، المقفى، ج7، ص201. ترجمة رقم "3265"؛ ابن حجر، الدرر الكامنة، ج2، ص43. ترجمة رقم "1384"؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج9، ص11، 263.

(2) النويري، نهاية الأرب، ج33، ص138.

(3) المقريزي، المقفى، ج2، ص532. ترجمة رقم "1003"؛ المقريزي، المقفى، ج7، ص201. ترجمة رقم "3265".

(4) ابن حجر، الدرر الكامنة، ج2، ص43. ترجمة رقم "1384".

(5) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج9، ص11.

واحدبلعد واحد إلى الموت و ترجع سليمة..." فأجابه بيبرس بقوله :"... إنما ساقكم إلى الموت و قادكم واحداً تلو واحد إلى الفوت إفراطكم في حب الدنيا واحتشادكم من حطامها...". بهذا الخطاب انتهت المحاورة بين الطرفين ثم تم القبض على سلار واحضر للسلطان الناصر الذي أمر بوضعه في السجن، فتوفي فيه[1].

يتضح من المحاورة التي جرت بين بيبرس المنصوري والأمير سلار أن العلاقة بينهما كانت متوترة.

وفي سنة 711هـ/1311م كلف السلطان الناصر محمد بيبرس المنصوري بنيابة السلطنة في مصر، فكانت هذه الوظيفة ذروة ما تولى بيبرس من مناصب في الدولة المملوكية، وقد ذكر بيبرس ذلك فقال "رُتِّبت في نيابة سلطنته الشريفة عبد نعمته الناشئ في صدقة والده [قلاوون] وصدقته [السلطان الناصر] بيبرس الدوادار. وشرفني بتشريفها المعلم وقلدني سيفها المخدم و منطقتها المرصعة باللآلئ وذواتها التي تزهو أقلامها على الغوالي، وأمطاني جواداً من السوابق حصاناً كريماً من العوائق..."[2].

---

(1) المنصوري، التحفة، ص214-216.

(2) المنصوري، التحفة، ص 228. انظر أيضاً أبو الفداء، المختصر، ج 2، ص407؛ النويري، نهاية الأرب، ج 32، ص133؛ ابن أيبك الدواداري، كنز الدرر، ج 9، ص211، 218؛ الذهبي، العبر، ج 4، ص27، 74؛ الصفدي، أعيان العصر، ج 2، ص80. ترجمة رقم "497"؛ ابن كثير، البداية، ج 14، ص69؛ ابن حبيب، تذكرة النبيه، ج 2، ص39، 158؛ ابن خلدون، تاريخ، ج 5، ص487؛ ابن دقماق، إبراهيم بن محمد العلائي (ت809هـ)، الجوهر الثمين في سير الملوك والسلاطين، تحقيق محمد كمال الدين عزالدين علي، عالم الكتب، ط1، ج2، بيروت، 1985م، ص151؛ المقريزي، المقفى، ج2، ص532. ترجمة رقم "1003"؛ ابن حجر، الدرر الكامنة، ج 2، ص43. ترجمة رقم "1384"؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج 9، ص30، 263؛ ابن إياس، بدائع الزهور، ج 1، ص440؛ ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ج6، ص66.

لم يبق بيبرس طويلاً في المنصب المشار إليه آنفاً، فقد قام السلطان الناصر في عام 712هـ/1312م كما تجمع المصادر بعزله منه بل واعتقاله[1]، والسبب في ذلك أن الأمير شمس الدين قراسنقرالمنصوري نائب السلطنة في دمشق و الأمير أقوش الأفرم نائب السلطنة في الشام ساءت علاقتهما بالسلطان الناصر، فاتهم بيبرس المنصوري وعدد من الأمراء بالميل إليهما وأمسكوا مع بيبرس الذي كان يومئذ نائباً للسلطنة في مصر[2].

أما عن مكان اعتقاله فقد انقسمت المصادر حول ذلك - مع أنها اتفقت على سجنه عام 712هـ/1312م إلى ثلاثة مجاميع هي:

1- مصادر ذكرت أنه سجن في قلعة الجبل في القاهرة، وعلى رأسها ابن أيبك الدواداري[3]، والصفدي[4]، وابن تغري بردي[5].

2- مصادر ذكرت أنه سجن في قلعة الكرك، وقد مثلها النويري[6]، وابن كثير[7]، وابن خلدون، والمقريزي[8].

---

(1) أبو الفداء، المختصر، ج 2، ص410؛ النويري، نهاية الأرب، ج 33، ص138؛ ابن ايبك الدواداري، كنز الدرر، ج 9، ص243؛ الذهبي، العبر، ج 4، ص32؛ الصفدي، أعيان العصر، ج2، ص80. ترجمة رقم "497"؛ ابن كثير، البداية، ج14، ص74؛ ابن حبيب، تذكرة النبيه، ج 2، ص47؛ ابن خلدون، تاريخ، ج 5، ص487؛ المقريزي، المقفى، ج 2، ص533. ترجمة رقم "1003"؛ ابن حجر، الدرر الكامنة، ج 2، ص43. ترجمة رقم "1384"؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج 9، ص33؛ ابن إياس، بدائع الزهور، ج 1، ص441.

(2) ابن أيبك الدواداري، كنز الدرر، ج 9، ص243؛ المقريزي، السلوك، ق 1، ج2، ص117؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج9، ص33-34.

(3) ابن أيبك الدواداري، كنز الدرر، ج9، ص243.

(4) الصفدي، أعيان العصر، ج2، ص80. ترجمة رقم"497".

(5) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج9، ص33-34.

(6) النويري، نهاية الأرب، ج32، ص193.

(7) ابن كثير، البداية، ج14، ص74.

(8) ابن خلدون، تاريخ، ج5، ص487؛ المقريزي، السلوك، ق1، ج2، ص172.

3. مصادر ادعت أنه سجن في ثغر الإسكندرية لمدة خمس سنيين، و قد انفرد بهذه الرواية ابن حجر العسقلاني(1).

وبالرغم من تباين المصادر حول مكان اعتقال بيبرس المنصوري ، إلا أنه يمكن القول إن بيبرس المنصوري ربما سجن في الـ بداية في قلعة الجبل لفترة مؤقتة، ثم نقل منها إلى سجن الكرك، حيث بقي فيها إلى أن أطلقه السلطان الناصر أبان زيارته للكرك عام 717هـ/1317م وأنعم عليه بإمرة و تقدمة ألف(2). أما ما ذكره ابن حجر العسقلاني من أنه سجن في ثغر الإسكندرية، فهي رواية لا يمكن قبولها لأسباب:

1. أن ابن أيبك الدواداري -وهو مؤرخ معاصر لبيبرس المنصوري - يذكر أن السلطان الناصر عندما اعتقل العديد من الأمراء سيرهم إلى سجن ثغر الإسكندرية ماعدا بيبرس المنصوري(3).
2. أن أغلب المصادر ذكرت أن إطلاق سراح بيبرس المنصوري كان من قلعة الكرك كما ذكر مقدماً، وليس من ثغر الإسكندرية.
3. إنفراد ابن حجر العسقلاني بهذه الرواية، إضافة إلى أنه من المؤرخين المتأخرين.

وفي عام 718هـ/1318م وبعد استقرار بيبرس في مصر قام السلطان الناصر -كما يذكر المقريزي - بالإنعام عليه بإقطاع مغلطاي بن أمير مجلس بإمرة

---

(1) ابن حجر، الدرر الكامنة، ج2، ص43. ترجمة رقم "1384".
(2) النويري نهاية الأرب، ج32، ص193؛ المقريزي، السلوك، ق 1، ج2، ص172؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج9، ص56.
(3) ابن أيبك الدواداري، كنز الدرر، ج9، ص243.

ثمانين فارساً، وخلع عليه، وأجلسه في رأس الميسرة [1][2]. وقد اتفقت أغلب المصادر[3] مع المقريزي فيما يتعلق بجلوسه في رأس الميسرة.

وبعد قرابة خمس سنوات أي في سنة 723هـ/1323م - قام بيبرس المنصوري بأداء فريضة الحج[4].

هكذا عاش بيبرس المنصوري حياته، فما هي ثقافته ومذهبه؟ وما هي المكانة التي كان يتمتع بها في دولة المماليك البحرية؟ ومتى توفي؟ وأين؟.

10.3.1 ثقافته ومؤلفاته

نشأ بيبرس المنصوري كما ذكر مقدماً - في كنف أسرة ذات مكانة سياسية واجتماعية وثقافية، وهي الأسرة المنصورية التي وفرت له بيئة منحته الاهتمام بالعلم، فقد التحق بيبرس المنصوري منذ صغره بالمكتب لتعلم القرآن الكريم بأمر من سيده الأمير سيف الدين قلاوون.

بعد ذلك بدأ الأمير سيف الدين قلاوون يصطحبه معه في رحلاته تجاه بلاد الشام، فقد تنقل مع سيده في الكثير من البلاد الإسلامية الخاضعة آنذاك للصليبيين

---

(1) رأس الميسرة: كبير الأمراء المتقدمين في السن من أكابر أمراء المائة، وهم أمراء المشورة. انظر عاشور، العصر المماليكي، ص444.

(2) المقريزي، السلوك، ق 1، ج2، ص185؛ المقريزي، المقفى، ج 2، ص533. ترجمة رقم "1003".

(3) النويري، نهاية الأرب، ج 33، ص138؛ الذهبي، العبر، ج 4، ص74؛ الصفدي، الوافي، ج10، ص352. ترجمة رقم "4846"؛ ابن حبيب، تذكرة النبية، ج 2، ص158؛ ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج3، ص477. ترجمة رقم "722"؛ ابن تغري بردي، الدليل الشافي، ج1، ص205. ترجمة رقم "720"؛ ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ج 6، ص66.

(4) المقريزي، السلوك، ق 1، ج2، ص250؛ المقريزي، المقفى، ج 2، ص533. ترجمة رقم "1003"؛ ابن حجر، الدرر الكامنة، ج 2، ص43. ترجمة رقم "1384"؛ ابن فهد، إتحاف الورى، ج3، ص177.

والأرمنلا سيما أرسوف وطرابلس وسيس وأنطا كية، أضف إلى ذلك إخراجه معه لبلاد سلاجقة الروم الأبلستين كما ذكر آنفاً.

أكسبت هذه الرحلات هذا الرجل معرفة جغرافية بالمناطق التي مر بها، و هـذا يبرز من خلال إيراده لأسمائها حين يتحدث عن حياته كما أكسبته خبره عسـكرية وإدارية استفاد منها في جوانب كثيرة من حياته ، فمن الناحية الإدارية عندما تـولى نيابة الكرك وجدها في حال يرثى له فقد قام بترتيب أمورها وتنظيمها، ومن الناحية العسكرية، اكتسب الخبرة العسكرية التي استفاد منها في جميع مشاركاته العسـكرية مع الدولة المملوكية ، فقد أظهرت مشاركته في فتح عكا على أنه رجل على قدر عالٍ من الثقافة كذلك مشاركته في حماية ثغر الإسكندرية من الاعتداءات الصليبية ، فقد وضع خطة للقضاء عليها تنم عن الثقافة التي كان يتمتع بهـا. كمـا أكسـبته هـذه الرحلات معرفة بالشعوب التي مر بها.

لم تكن هذه الرحلات المصدر الوحيد لثقافته فحسب بل أن تقليده ديوان الإنشاء في عهد السلطان الناصر يدل على أنه رجل كان على قدر عالٍ من الثقافة، بخاصة الكتابة والقراءة كما ساهم مركزه هذا على إطلاعه على كافة المراسلات الصادرة من الدولة والواردة إليها الأمر الذي مكنه من إنتاج عدد من المؤلفات التي شـغل التاريخ الجانب الأهم منها ، وهذه المؤلفات سيشار إليها لاحقاً . أضف إلى ذلـك أن وجوده في الديوان جعله على صلة بطبقة الكُتّاب والمثقفين والعلماء كصلته بكـاتب السر القاضي شرف الدين عبدالوهاب المتقدم ذكره.

ومما يدل على أنه كان على مستوى عالٍ من الثقافة ، إشـارته الواسـعة إلـى مصادر الأدب العربي في يومياته، فقد استشهد بأبيات من الشعر لعدد كبيـر مـن شعراء العرب.

ن الأعمال التي تدل على ثقافته وعلمه، قيامه بإنشاء مدرسة في القاهرة، أطلق عليها اسم المدرسة الدوادارية [1]، وقد كان يدرس فيها المذهب الحنفي، ثم أنه جعل داره وقفاً لتلك المدرسة يعود ريعها عليها[2].

كما أن انطباعات المؤرخين المعاصرين والتالين عنه لتدل على أنه على مستوى عالٍ من الثقافة، ليس فقط في التاريخ بل في العلوم الأخرى، فقد وصفه ابن أيبك الدواداري وهو مؤرخ معاصر لبيبرس المنصوري - بقوله: "وكان رحمه الله من أكابر الموالي الأمرا [الأمراء]، ومن جملة العلما [العلماء] الأفاضل، يدري شيئاً من العربية واللغة، ومن العلوم الدينية "[3]، وقال عنه المقريزي: "وكان أميراً حشماً كثير الأدب عاقلاً، له صدقات ومعروف ... وكان يخرج من داره في السحر ومعه الدراهم، فيتصدق بها سراً ... وكان يجلس رأس الميسرة، و كان حنفي المذهب له اشتغال بالفقه، وأجيز بالفتوى والتدريس، وكان يلازم الصلوات الخمس في الجماعة، ويحي ليله صلاة و قراءة، ويقضي نهاره بسماع الحديث والبحث في العلوم، و كان دائم البشر طلق الوجه لا يسمع غيبة أحد، ولا يرى بالهة مع العفة والديانة ... وكان يخرج زكاة ماله"[4].

وقال عنه الشيء ذاته ابن حجر العسقلاني، وكان "كثير الأدب حنفي الدين عاقلاً قد أجيز بالافتاء والتدريس، وله بر ومعروف، كثير الصدقة سراً، ويلازم الصلاة في الجماعة، وغالب نهاره في سماع الحديث والبحث في العلوم، وليله في القرآن والتهجد مع طلاقة الوجه، ودوام البشر"[5].

---

(1) المقريزي، السلوك، ق 1، ج2، ص269؛ المقريزي، المقفى، ج 2، ص533. ترجمة رقم "1003"؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج 9، ص263؛ وقد ذكر ابن حبيب أن هذه المدرسة كانت تقع تحت قلعة الجبل بالقاهرة. انظر ابن حبيب، تذكرة النبيه، ج2، ص158.

(2) المقريزي، المقفى، ج2، ص533. ترجمة رقم "1003".

(3) ابن أيبك الدواداري، كنز الدرر، ج9، ص319.

(4) المقريزي، المقفى، ج2، ص533-534. ترجمة رقم "1003".

(5) ابن حجر، الدرر الكامنة، ج2، ص43. ترجمة رقم "1384".

أما ابن تغري بـ ردي فذكر أنه كان" أميراً عاقلاً، فاضلاً، معظماً في الـدول ... وكان له أوقاف على وجوه البر "[1]. وقال عنه في موضع آخـر : "وكـان عـاقلاً، فاضلاً، بارعاً، عارفاً، سيوساً ذا مشاركة وفضل"[2].

يقول ابن إياس عنه : "كان الأمير بيبرس الد وادار، سعيد الحركـات، وكـان عالماً فاضلاً فقيهاً، نحوياً، ينظم الشعر، و له شعر جيد، وألف له تاريخاً سماه زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة، وجمع فيه جملة محاسن وفوائد، ومن شعره:

ذو العقل يشقى في النعيـم بعقلـه | وأخو الجهالة في الشقاوة ينعم
الناس في نظـر العيون كما تـرى | صورٌ وإن قليلهم من يفهـم"[3].

مكنت هذه الثقافة بيبرس المنصوري من إنتاج عدد من المؤلفـات التـي شـغل التاريخ الجانب الأهم فيها، وهي:

1. زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة.

أجمعت المصادر على أن بيبرس المنصوري قد ألف كتاباً أطلق عليه اسم زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة، و لكنها في الوقت ذاته اختلفت وتباينت في عدد مجلداتـه، بحيث انقسمت إلى قسمين؛ القسم الأول اتفق على أن مجلداته كانـت أحـد عشـر مجلداً[4]، في حيـن أن القسـم الثـانـي اتفـق على أن مجلداتـه كانـت خمسـة

(1) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج9، ص263.
(2) ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج3، ص477. ترجمة رقم "477".
(3) ابن إياس، بدائع الزهور، ق1، ج1، ص408.
(4) النويري، نهاية الأرب، ج 33، ص138-139؛ المقريـزي، السـلوك، ق 1، ج2، ص269؛ المقريزي، المقفى، ج 2، ص533. ترجمة رقم"1003"؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهـرة، ج9، ص263-264؛ ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج 3، ص477. ترجمة رقم "722"؛ السيوطي، جلال الدين عبدالرحمن (ت911هـ)، حسـن المحاضـرة فـي تـاريخ مصـر والقاهرة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيـم، دار إحياء الكتب العربية، ط 1، ج1، القـاهرة، 1967م، ص555وسيشار إليه تالياً السيو طي، حسن المحاضرة؛ حاجي خليفة، مصـطفى بن عبدالله القسطنطيني (ت1067هـ)، كشف الظنون عن اسامي الكتب والفنون، دار الفكر، (د.ط)، مج2، (د.م)، 1982م، ص952. وسيشار إليه تالياً: (حاجي خليفة، كشف الظنـون)؛ البغدادي، إسماعيل باشا، هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصد نفين من كشف الظنون،

وعشرين مجلداً[1].

ويجب التنويه ها إلى أن أ غلب المضيا ذكرت أن هذا المصنف قد كتب بمساعدة كاتب بيبرس المنصوري و هوشمس الرياسة بن كبر النصراني "[2]؛ أما السخاوي، فقد شكك في أن يكون بيبرس المنصوري قد عول في كتابة تاريخه على شخص نصراني، هذا يستشف من قوله: "بيبرس المنصوري الدوادار له تاريخ في خمس وعشرين مجلداً بالمؤيدية و بعضه في الكتب الفهدية سماه زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة انفرد الصفدي بقوله أعانه عليه كاتب له نصراني يقال له ابن كبر مع ترجمة غير واحد له بفضل وخير وتهجد وتلاوة وغيرها مما يمنع اعتماده إياه"[3].

أما بيبرس المنصوري نفسه فقد أشار في مقدمة كتابه المسمى التحفة الملوكية في الدولة التركية والذي سيأتي الحديث عنه - إلى أنه صنف تاريخاً سماه زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة انتهى به الاختصار و سياقة الأخبار إلى الدولة التركية، وبدئها بالديار المصرية بعد انقراض المملكة الأيوبية، فجعلتها جزءاً واحداً مستقلاً بحجمه، مستبداً بنثره ونظمه"[4].

دار الفكر، (د.ط)، مج5، بيروت، 1990م، ص233. وسيشار إليه تالياً: (البغدادي، هدية العارفين).

(1) الصفدي، أعيان العصر، ج 2، ص80. ترجمة رقم "497"؛ ابن حجر، الدرر الكامنة، ج 2، ص43. ترجمة رقم "1384"؛ ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ج 6، ص66-67؛ السخاوي، الإعلان بالتوبيخ، ص 150؛ الداري، الطبقات السنية، ج 2، ص259. ترجمة رقم "582". ابن الغزي، ديوان، ج1، ص208. ترجمة رقم "315".

(2) النويري، نهاية الأرب، ج 33، ص138-139؛ الصفدي، أعيان العصر، ج 2، ص80. ترجمة رقم "497"؛ الصفدي، الوافي، ج10، ص352. ترجمة رقم "4846"؛ المقريزي، السلوك، ق1، ج2، ص269؛ المقريزي، المقفى، ج 2، ص533. ترجمة رقم "1003"؛ حاجي خليفة فيما ينقله عن العيني، كشف الظنون، مج2، ص952.

(3) السخاوي، محمد بن عبدالرحمن (ت902هـ)، الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ، عني بنشره القدسي، مطبعة الترقي، (د.ط)، دمشق، 1349هـ، ص150 وسيشار إليه تالياً: (السخاوي، الإعلان بالتوبيخ).

(4) المنصوري، التحفة، ص23. (المقدمة).

يفهم ملمتقدم أن المصادر أصابت في أن بيبرس المنصوري ألّ ف كتابــاً اســمه زبدة الفكرة، ولكن ادعاءها أنه اعتمد في كتابة مصنفه المشار إليه على ابــن كبــر النصراني فهو أمرٌ مستبعد، لأن بيبرس نفسه يذكر أنه عول على ابن كبر النصراني في كتابمصنفه مختار الأخبار فقط الذي سيأتي الحديث عنه تالي اً -"ووافى إلينــا منديلل المصرية جواب عن كتاب صد در منا بالبشرى إلى نوابنا ، تضــمن أبياتــاً أرسلها مُسطر [كاتب] تاريخنا [مختار الأخبار] هذا [قصد ابن كبر]، لأنه كان مــن ألزامنا"(1). وبهذا يكون الأمر ق د اختلط على المؤرخين ، ناهيك عــن أن اعتــراف بيبرس نفسه بهذا ينفي ما قاله السخاوي.

كذلك يفهم أن زبدة الفكرة هو كتاب عام عن التاري خ الإسلامي، لم يحدد فيه عدد أجزائه، ولكنه يذكر أنه خصص جزءاً مستقلاً منه لتاريخ الدولة المملوكية البحرية، وقد اعتمد الباحث عليه في هذه الد راسةحيث يلحظ أنه مرتب حسب السن ين، وأنه يقف عند مشارف سنة 709هـــ، في حين أن المصادر تذكر أنه انتهــى فــي هــذا التاريخ إلى عام 724هـــ(2) وهذه الفترة بين عامي 709-724هـــ ربما تكون قــد فقدت.

أما عن الأجزاء المتبقية من هذا المصنف، ومحتواها، ومكان وجودها ، فهي على النحو الآتي:

---

(1) المنصوري، مختار، ص129.

(2) ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج 3، ص477. ترجمة رقم"722"؛ حاجي خليفة فيما ينقله عن العيني، كشف الظنون، مج 2، ص952 انظر أيضاً بروكلمان، كــارل، تــاريخ الأدب العربي، نقله إلى اللغة العربية محمود فهمي حجازي بالتعاون مع حسن محمود إســماعيل، مطابع الهيئة العامة للكتاب، (د.ط)، مصر، 1995م، ق6، ص165وسيشار إليــه تاليــاً : (بروكلمان، تاريخ)؛ زيدان، جرجي، تاريخ آداب اللغة العربية، منشورات دار مكتبة الحياة، (د.ط)، ج3، بيروت، 1992م، ص195 -196.وسيشار إليه تالياً : (زيدان، تاريخ)؛ ليــوث، مارجو، بيبرس المنصوري، دائرة المعارف الإسلامية، أصــدرها باللغــة العربيــة أحمــد الشنتاوي وإبراهيم زكي يونس، (د.ط)، مج4، (د.م)، (د.ت)، ص369وسيشار إليه تاليــاً : (ليوث، بيبرس المنصوري)؛ سليم، عصر سلاطين المماليك، مج3، ص114.

أ. الجزء الثالث: يتناول الفترة الممتدة ما بين سنتي 42-121هـ. ويوجد مخطوط في المتحف البريطاني[1]

ب. الجزء الرابع: يتناول تاريخ العباسيين من عام 132 حتى سنة 252هـ. ويوجد مخطوط في أبساله (أبسالا)[2].

ج. الجزء الخامس: يتناول الفترة الممتدة من عام 252هـ حتى سنة 322هـ. ويوجد في المكتبة الأهلية بباريس[3].

د. الجزء السادس: يتناول السنين حتى 400هـ. ويوجد في مكتبة بودليان في أكسفورد[4].

ه. الجزء السابع: يتناول السنين 400-489 هـ. ويوجد مخطوطاً في فيض الله 1459[5].

و. الجزء التاسع: يتناول السنين 655-709هـ. ويوجد في المتحف البريطاني بلندن[6]. ويتحدث عن دولة المماليك البحرية، وهو ما اعتمدت عليه الدراسة.

أما ما ذكره كارل بروكلمان وجرجي زيدان من أن الجزء التاسع يتناول السنين من 599-744هـ ويوجد مخطوطاً في (بودليان) بأكسفورد 704/1[7]، فهو أمر مستبعد لأن بيبرس المنصوري توفي عام 725هـ، فكيف يكون أرخ حتى سنة 744هـ، ولكن يظهر أنه اختلط الأمر عليهما بدليل ما ذكره مارجه ليوث من أنه يوجد مصنف في مجموعة بودليان بأكسفورد

(1) بروكلمان، تاريخ، ق6، ص165.

(2) بروكلمان، تاريخ، ق 6، ص165؛ زيدان، تاريخ، ج 3، ص195-196؛ ليوث، بيبرس المنصوري، مج4، ص369.

(3) زيدان، تاريخ، ج3، ص195-196؛ ليوث، بيبرس المنصوري، مج4، ص369.

(4) بروكلمان، تاريخ، ق 6، ص165؛ زيدان، تاريخ، ج 3، ص195-196؛ ليوث، بيبرس المنصوري، مج4، ص369.

(5) بروكلمان، تاريخ، ق6، ص165.

(6) ليوث، بيبرس المنصوري، مج4، ص369.

(7) بروكلمان، تاريخ، ق6، ص165؛ زيدان، تاريخ، ج3، ص195-196.

عنوانه زبد الفكرة ينتهي بعام 744هـ ألفه شخص غير بيبرس المنصوري[1].
وأن الجزء العاشر الذي تحدث عنه هو نفسه الجزء التاسع بدل بل أنه يتناول الفترة من 655-709هـ. ويوجد في المتحف البريطاني[2].

2. التحفة الملوكية في الدولة التركية.

أورد بيبرس المنصوري نفسه أنه ألف كتاباً سماه التحفة الملوكية في الدولة التركية[3]. أما بقية المصادر فلم نعثر فيها على أية معلومة تتعلق بهذا المصنف بعكس مصنفه المشار إليه آنفاً.

أما ما ذكره محقق التحفة الملوكية عبدالحميد صالح حمدان من أن هذا الكتاب ليس مختصراً لكتاب بيبرس المنصوري زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة، وإنه مصدر مستقل عنه[4]، فهو أمر غير مقبول باعتبار أن بيبرس نفسه يذكر أن التحفة الملوكية مختصر لكتابه زبدة الفكرة: "..ثم اختصرت من الجزء المذكور [زبدة الفكرة] جزءاً... قربت ألفاظه ومعانيه [يقصد التحفة]..."[5]. فضلاً عن ذكر النويري - وهو مؤرخ معاصر - أن بيبرس المنصوري ألف كتاباً سماه زبدة الفكرة أختصر منه مجلدين[6]، ويبدو أن التحفة كان أحدها.

أما عن طبيعة الكتاب، فهو كتاب مختص بتاريخ السلاطين المماليك، ويبدأ بعام 647هـ، وينتهي بعام 711هـ، أما تذكره المراجع الحديثة من أنه ينتهي بعام 721هـ[7]، فهذا غير مقبول باعتبار أن بيبرس نفسه يذكر في الكتاب نفسه

---

(1) ليوث، بيبرس المنصوري، مج4، ص369.
(2) بروكلمان، تاريخ، ق6، ص165؛ زيدان، تاريخ، ج3، ص195-196.
(3) المنصوري، التحفه، ص23، 239.
(4) المصدر نفسه، ص13.
(5) المصدر نفسه، ص24.
(6) النويري، نهاية الأرب، ج33، ص138-139.
(7) الزركلي، الأعلام، ج 2، ص80؛ زيدان، تاريخ، ج 3، ص195-196؛ ليوث، بيبرس المنصوري، مج4، ص369؛ بروكلمان، تاريخ، ق 6، ص165؛ سليم، عصر سلاطين المماليك، مج3، ص109.

قوله:"هذا آخر ما انتهيت إليه في هذه المجلدة المختصرة [يقصد أنه انتهى بهذا التاريخ حتى أحداث عام 711هـ].وأرجو أن فسح الله في الأجل، أن أبلغ في سياقة مآثرها الشريفة الأمل [يقصد سيرة السلطان الناصر محمد]..."[1].

يفهم مما تقدم أن بيبرس المنصوري كان لديه النية في استكمال كتابه هذا، إلا أن قيام السلطان الناصر باعتقاله عام 712هـ - كما ذكر آنفاً - وإيداعه في السجن حال دون ذلك. ومع ذلك يلاحظ أن بيبرس المنصوري حين خروجه من السجن حاول أن يؤرخ لأحداث عام 721هـ، لكن هذه المحاولة توقفت في البداية[2]. ويبدو أن محاولته هذه قد جعلت المراجع الحديثة تظن أنه أرخ لتاريخ السلاطين المماليك حتى نهاية عام 721هـ.

3. مختار الأخبار.

لم يقف في المصادر على أية معلومة أو إشارة تتعلق بكتاب بيبرس المنصوري المسمى مختار الأخبار، ولكن ثمة نصاً أورده النويري - وهو مؤرخ معاصر - قد يستدل منه على أن مختار الأخبار هو كتاب مختصر لكتابه الآخر زبدة الفكرة، وهذا النص هو: "... ألف [بيبرس المنصوري] كتاباً سماه زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة... وتاريخاً مختصراً منه في مجلدين..."[3].ويبدو أن هذين المجلدين هما التحفه الملوكية - كما ذكر آنفاً - ومختار الأخبار.

ويبدو أن هناك التباساً في هذا الكتاب يتمثل في صحة نسبته لبيبرس المنصوري، فقد ذكر محقق هذا الكتاب عبدالحميد صالح حمدان أن هذا المصنف نسب خطأً إلى كاتب بيبرس المسمى ابن كبر النصراني - الذي ذكر آنفاً -، وأن هذا الخطأ نشأ من جراء قيام مفهرس المخطوطات العربية المحفوظة بمكتبة الأمبروزيانا بنسبة هذه المخطوطة إلى القس ابن كبر اعتماداً على ورود اسمه في العنوان، الذي جاء على النحو التالي: "هذا مختصر تاريخ المقر الركني بيبرس الدوادار تغمده الله برحمته ويسمى مختار الأخبار عنى بجمعه القس الشمس ابن كبر

(1) المنصوري، التحفة، ص239.

(2) المنصوري، التحفة، ص14- 15. عن هذه المحاولة انظر ص240.

(3) النويري، نهاية الأرب، ج33، ص138- 139.

نيَّحَ الله روحه، ويذكر أن هذا العنوان قد أضيف في تاريخ لاحق، وبيد مختلفة وبعد كشط ما كان مدوناً في الأصل[1].

ومهما يكن من أمر، فإنه بعد دراسة الباحث للكتاب المذكور اتضح ما يلي:

أولاً: أن هذا المصنف هو من مؤلفات بيبرس المنصوري بـدليل ورود اسـمه صريحاً في عدة مواضع من هذا الكتاب، كقول:"قال المؤلف"[2]، و"قال المصـنف المقر الركني بيبرس الدوادار"[3]، و"قال المصنف"[4].

ثانياً: أن دور القس ابن كبر النصراني اقتصر على عملية النسخ و التبيض بدليل قاله بيبرس نفسه في المصنف ذاته: "ووافى إلينا من الديار المصرية جواب عن كتاب صدر منا بالبشرى إلى نوابنا، تضمن أبياتاً أرسلها مُسَطِرُتاريخنا هذا، لأنـه كان من ألزامنا"[5].

ثالثاً: بمقارنة مضمون مختار الأخبار مع مؤلفات بيبرس المنصوري الأخـرى يتبين أن الأحداث التي يرويها فيه هي نفسها في كتاباتـه الأخـرى، ناهيـك عـن الأسلوب الذي يستخدمه فيه هو الكلام المعتمد على السجع كما هو أسلوبه في كتاباته الأخرى.

رابعاً: أن محقق مختار الأخبار المذكور آنفاً يذكر أن هذا الكتاب ربما يكون هو نفسه الكتاب المنسوب إليه والذي لم يصلنا وهو "اللطائف في أخبار الخلائف " الذي نسبه إليه أيضاً السخاوي[6]. وبالرجوع إلى المصادر لم يعثر على اسم بهذا الكتاب لبيبرس، باستثناء إشارة العيني له، حيث قال: "وذكر بيبرس فـي كتابـه المسـمى اللطائف"، و"هكذا ذكره بيبرس في كتابه اللطائف"، و"في كتاب اللطائف"[7]. وصـفوة

(1) المنصوري، مختار، ص ي، ك(المقدمة).

(2) المصدر نفسه، ص62.

(3) المصدر نفسه، ص86، 112.

(4) المصدر نفسه، ص116، 129.

(5) المصدر نفسه، ص129.

(6) المصدر نفسه، ص ي، ل(المقدمة).

(7) انظر: العيني، عقد الجمان، ج3، ص10،12، ج4، ص378.

القول نإه لا يمك ن القطع بأن مختار الأخبار هو نفسه كتاب اللطائف إلى أن يظهر ما يثبت ذلك.

أما عن محتوى الكتاب، فقد ضم عدة تواريخ هي:

أ. التاريخ من آدم وإلى إبراهيم وموسى وملوك بني إسرائيل.

ب. تاريخ ملوك الروم واليونان.

ج. تاريخ الخلفاء من عهد النبي -صلى الله عليه وسلم-.

د. تاريخ الفاطميين والأيوبيين والمماليك في مصر حتى سنة 702هـ، حيث تتوقف المخطوطة لضياع بقيتها[1]. وهذا القسم هو الذي اعتمدت عليه الدراسة.

فهم مما تقدم أن هذا الكتاب يتناول الفترة منذ بدء الخليقة حتى عام 702 هـ (المماليك البحرية).

4. مواعظ الأبرار.

ألف بيبرس المنصوري بعد خروجه من السجن، كتاباً سماه:مواعظ الأبرار، وهذا الكتاب كما يذكر عبدالحميد حمدان عبارة عن تفسير للقرآن الكريم، فسره بيبرس تفسيراً صوفياً[2]. وقد أشار السيوطي عندما تكلم عن بيبرس المنصوري إلى أنه صاحب التاريخ المسمى زبدة الفكرة في أحد عشر مجلداً والتفسير "[3]، وكذلك ذكر الشيء ذاته إسماعيل باشا البغدادي[4]. ويبدو أن التفسير الذي قصد فيما تقدم، هو نفسه كتاب مواعظ الأبرار، لأن هذا الكتاب لا يخرج عن كونه تفسيراً لسور القران الكريم حسب قول محقق التحفة الملوكية[5].

---

(1) المنصوري، مختار، ص(ل) المقدمة.

(2) المنصوري، التحفة، ص11.

(3) السيوطي، حسن المحاضرة، ج1، ص555.

(4) البغدادي، هدية العارفين، مج5، ص233.

(5) المنصوري، التحفة، ص12.

11.3.1 مكانته في الدولة المملوكية.

حظي بيبرس المنصوري في الدولة المملوكية بمكانة مرموقة عند سلاطينها، يدل على تلك المكانة كثير من الإشارات، لا سيما مشاركاته وآرائه ومواقفه وحلوله للمشاكل، ففي أمرة الأمير سيف الدين قلاوون أشركه رغم صغر سنه في كثير من الحملات العسكرية نحو الصليبيين والأرمن والمغول. كما اعتمد عليه الأمير سيف الدين قلاوون في جوانب كثيرة عند توليه السلطنة، فقد أشركه معه في موقعة حمص عام 680هـ/1281م[(1)]. كذلك رقاه السلطان من رتبة خادم إلى رتبة أمير[(2)]، واختاره السلطان لإيصال أمانه لأولاد السلطان الظاهر في الكرك عام 685هـ/1286م[(3)] وولاه نيابة السلطنة في الكرك لمكانته عنده وثقته به في إصلاح شؤونها[(4)].

أما في عهد خلفه الملك الأشرف خليل، فقد ازدادت مكانة بيبرس المنصوري شيئاً فشيئاً، بدليل أنه -أي السلطان- استدعاه من الكرك ليشارك معه في طرد الصليبيين من عكا عام 690هـ/1291م، وقد أشاد السلطان بفعل بيبرس في فتح عكا، وأعجب بخطته في فتحها[(5)]، لذلك أعفاه السلطان بعد الفتح من نيابة السلطنة في الكرك، وقربه إليه ليكون من جملة أمرائه[(6)]. ثم أخرجه معه إلى قلعة الروم عام 691هـ/1291م لفتحها[(7)].

---

(1) المنصوري، زبدة الفكرة، ص198- 199؛ المنصوري، مختار، ص71- 74.

(2) المنصوري، زبدة الفكرة، ص247؛ انظر أيضاً العيني، عقد الجمان، ج2، ص324- 326.

(3) المنصوري، زبدة الفكرة، ص254- 255؛ المنصوري، التحفة، ص115.

(4) المنصوري، زبدة الفكرة، ص255؛ العيني، عقد الجمان، ج2، ص350.

(5) المنصوري، زبدة الفكرة، ص278- 280؛ المنصوري، التحفة، ص126- 127؛ المنصوري، مختار، ص91- 92.

(6) النويري، نهاية الأرب، ج33، ص138.

(7) المنصوري، زبدة الفكرة، ص 288- 289؛ العيني، عقد الجمان، ج3، ص120؛ انظر أيضاً المنصوري، التحفة، ص130- 131؛ المنصوري، مختار، ص92- 93.

وفي عهد السلطان الناصر محمد ، تبرز مكانته من خلال المناصب التي منحها إياه فقد رقي في عهده إلى رتبة أمير مائة فارس ومقدم ألف عام 693هـ/1293م أي أنه أصبح من أمراء الألوف الذين يشكلون أعلى المراتب العسكرية في الدولة المملوكية. أن السلطان اعتمد عليه في إدارة شؤون ديوان الإنشاء، وتنفيذ المهمات المتعلقة بالرسائل والمكاتبات والبريد[1]، ومنحه لقب دوادار[2]. كذلك عول عليه السلطان في حفظ ثغر الإسكندرية من هجمات الصليبيين البحرية[3].

ولما تولى العادل زين الدين كتبغا السلطنة، عول عليه في العديد من أمور الدولة مما يوحي بأن مكانته ازدادت لدى هذا السلطان، فقد أوكل إليه في عهده مهمة رعاية مصالح الصعاليك والفقراء في الإسكندرية أبان المجاعة التي عمت مصر[4]، إضافة لاختياره من قبل السلطان لردع القبائل العربية في الوجه القبلي[5].

أما في عهد السلطان حسام الدين لاجين ، فلم يحظ بيبرس المنصوري بالمكانة التي حظي بها عند السلاطين السابق ذكرهم، ذلك أن السلطان قام بنفيه إلى بلاد الأشمونين[6] مما يظهر أن مكانته تراجعت، وأنه لم يكن مرضياً عنه.

ولما عاد الملك الناصر محمد للسلطنة قام برفع مكانة بيبرس المنصوري، ويتضح ذلك مما يلي:

---

(1) المنصوري، زبدة الفكرة، ص 298؛ المنصوري، التحفة، ص 138؛ العيني، عقد الجمان، ج3، ص232، انظر أيضاً النويري، نهاية الأرب، ج 31، ص168؛ ابن الفرات، تاريخ، مج8، ص172؛ المقريزي، السلوك، ق3، ج1، ص794؛ المقريزي، المقفى، ج7، ص162 -163. ترجمة رقم "3265".

(2) ابن الفرات، تاريخ، مج 8، ص172؛ المقريزي، السلوك، ق 3، ج1، ص7؛ المقريزي، المقفى، ج7، ص162 -163. ترجمة رقم "3265".

(3) المنصوري، زبدة الفكرة، ص303؛ المنصوري، التحفة، ص142.

(4) المنصوري، زبدة الفكرة، ص 305 -306، انظر أيضاً العيني، عقد الجمان، ج 3، ص275 - 276.

(5) المنصوري، زبدة الفكرة، ص312؛ العيني، عقد الجمان، ج3، ص319.

(6) المنصوري، التحفة، ص155.

1. جعله من خاصته ومستشاريه، ويدل على ذلك استشارته له - أي السلطان - في أسماء الأمراء الذين سيتولون المناصب الإدارية والسياسية في الدولة[1].
2. تفويضه نيابة قلعة الجبل في غيبته لبيبرس المنصوري[2].
3. إيكاله بعد هزيمته أمام المغول في موقعة مجمع المروج عام 699هـ/1299م مهمة تطمين الأمراء في القلاع الشامية من الخطر المغولي إليه[3].
4. اعتماده على بيبرس المنصوري في ردع القبائل العربية المتمردة في الوجه القبلي[4].
5. اختيار السلطان له ليكون أميراً على الوفد المصري الذاهب لأداء فريضة الحج عام 701هـ/1301م[5].
6. جعله أحد القادة الستة (مقدمي الألوف) الذين جردهم السلطان لتقوية أهالي بلاد الشام ضد الخطر المغولي[6].
7. إشراك السلطان بيبرس المنصوري في موقعة مرج الصفَّر مع المغول، وترتيبه إياه في ميسرة الجيش المملوكي[7].

---

(1) المنصوري، زبدة الفكرة، ص326؛ العيني، عقد الجمان، ج3، ص452.

(2) المنصوري، زبدة الفكرة، ص 328- 329؛ العيني، عقد الجمان، ج 3، ص461؛ انظر أيضاً النويري، نهاية الأرب، ج 31، ص240؛ المقريزي، المقفى، ج 7، ص166- 167. ترجمة رقم "3265".

(3) المنصوري، زبدة الفكرة، ص344- 345.

(4) المنصوري، زبدة الفكرة، ص 348- 349، 351؛ العيني، عقد الجمان، ج 4، ص121- 122، 139- 140.

(5) المنصوري، زبدة الفكرة، ص 364- 365؛ العيني، عقد الجمان، ج 4، ص195- 196؛ انظر ايضاً المقريزي، السلوك، ق1، ج1، ص924؛ ابن فهد، إتحاف الورى، ص134- 135.

(6) المنصوري، زبدة الفكرة، ص367.

(7) المنصوري، زبدة الفكرة، ص375- 377؛ المنصوري، التحفة، ص165- 166؛ المنصوري، مختار، ص124- 126؛ النويري، نهاية الأرب، ج32، ص16- 21؛

8. إيكاله مهمة ترقيع الإسكندرية إثر الزلزال الذي ضرب مصر عام 702هـ/1302م إلى بيبرس المنصوري[1].

9. منحه -أي السلطان- بيبرس المنصوري وظيفة حمل الشتر السلطاني[2]، وتم اختياره ليكون مساعداً للأمير بدر الدين بكتاش الفخري في حملته على سيس عام 705هـ/1305م[3].

لم يكن اهتمام السلاطين في بيبرس المنصوري الدليل الوحيد على مكانته في الدولة المملوكية فقد كان رجل دولة له كلمته عند السلاطين و الأمراء، ويتضح ذلك من خلال مواقفه وأرائه و حلوله لكثير من المشاكل، فعندما ساءت العلاقة بين بيبرس الجاشنكير والأمير سلار عام 706هـ/1307م كان من المصلحين بينهما[4].

كما كان للموفقين بين السلطان الناصر وكل من الجاشنكير وسلار عندما ساءت العلاقة بينهم عام 707هـ/1308م[5] أضف إلى ذلك موقفه من غزو الأمير سلار اليمن عام 707هـ/1308م، فقد كان من المعارضين والناصحين للأمير سلار بأن لا يقوم بها، وبالفعل استجاب سلار له، ولم يخرج بها[6].

ومن المواقف الأخرى التي تحسب لبيبرس المنصوري، وتدل على أنه رجل من رجال الدولة المملوكية، له كلمته ومكانته عند الأمراء و السلاطين، أبدائه رأيه الجرئ عندما استشاره الأمير بيبرس الجاشنكير والأمير سلار القائمين بشؤون

المقريزي، المقفى، ج 2، ص538- 539. ترجمة رقم "1004"، ج7، ص180- 185. ترجمة رقم "3265".

(1) المنصوري، التحفة، ص173؛ انظر ابن إياس، بدائع الزهور، ق1، ج1، ص416- 417.

(2) المنصوري، التحفة، ص175؛ العيني، عقد الجمان، ج4، ص309.

(3) المنصوري، زبدة الفكرة، ص 383- 384؛ المنصوري، التحفة، ص 177- 178؛ العيني، عقد الجمان، ج4، ص382- 383؛ انظر أيضاً المقريزي، السلوك، ق1، ج2، ص16- 17.

(4) المقريزي، المقفى، ج 2، ص541. ترجمة رقم "1004"؛ المقريزي، السلوك، ق 1، ج2، ص23- 26.

(5) المنصوري، زبدة الفكرة، ص392- 393.

(6) المنصوري، التحفة، ص183- 185.

الدولة في عز م النشاصر على الإقامة في الكرك وترك مصر، فقد قال لهم ا:
بأن السلطان سيبقى سلطاناً بغض النظر عن مكان إقامته ما دمتما علـــى طاعتــه، وحفظ بيعته"[1]. كذلك كان بيبرس المنصوري من الأمراء الذين استدعاهم السلطان الناصر عند خروجه إلى الكرك، و أوصاهم بعدم الشقاق في غيبته[2]. ثم أن بيبرس المنصوري حينما خلع الملك الناصر نفسه من السلطنة، اجتمع الجاشنكير وسلار فيه لاستشارته فيما يفعلان، فأشار عليهما بأنه ينبغي مراسلـــة الملك الناصر و مراجعته و استعطافه ليعود إلى السلطنة، وأن يتوجه إليه بهذه الرسالة كبار الأمراء ، فأجـــاب الأميرين عليه بأنهما يخشيان وقوع الفتنة في مصر[3].

ولما اجتمع الأميران المذكوران بالأمراء لاستشارتهم فيمن يلي الســـلطنة بعـــد الملك الناصر، أشار بيبرس المنصوري مع عدد من الأمراء عليهمـــا بأنـــه يجـــب استدعاء الخليفة والقضاة لمعرفة رأيهم في ذلك قبل اتخاذ أية خطـــوة، و قـــد قبـــل الأميرين برأيه ووافقا عليه[4]. كما أشار عليهما مع الأمراء بأنهما همـــا المـــدبران لشؤون الدولة، والأمر إليكما في اختيار السلطان[5].

أما مكانة بيبرس المنصوري في عهد السلطان بيبرس الجاشنكير ، فتتضح مـــن أرائه ومواقفه في العديد من الأحداث، فعندما أصدر الســـلطان الجاشـــنكير أمـــره بالقبض على الأمراء الفارين إلى الكرك للالتحاق بالملك الناصر، أعترض بيبـــرس المنصوري على سياسته تلك، و أشار على أولئك الذين دفعوا السلطان إليها بـــأن لا يفعلوا لأن في ذلك تعدي على الأبرياء[6].

ولما اجتمع الأمراء في بلاد الشام على إعادة الملك الناصـــر للســـلطنة، قـــرر السلطان الجاشنكير تجريد حملة لقمعهم، وقد أشار بيبرس المنصوري على السلطان

(1) المنصوري، التحفة، ص187- 188؛ المنصوري، زبدة الفكرة، ص403- 404.
(2) المنصوري، التحفة، ص187- 188؛ المنصوري، زبدة الفكرة، ص403- 404.
(3) المنصوري، التحفة، ص189- 191؛ المنصوري، زبدة الفكرة، ص404- 406.
(4) المقريزي، السلوك، ق1، ج2، ص45- 46.
(5) المنصوري، زبدة الفكرة، ص406.
(6) المنصوري، زبدة الفكرة، ص414؛ المنصوري، التحفة، ص194.

بأنه يجب إخماد الفتنة، ونصحه بالتنازل للناصر عن السلطنة، و لكن هذه المشورة لم تقبل[1].

بقي بيبرس المنصوري يقدم النصح للسلطان الجاشنكير كلما اجتمع به بضرورة حقن دماء المسلمين وإخماد الفتنة بطلب المسالمة [2]، ولذلك عندما رأى السلطان أن زمام الأمور قد خرجت من يده قام بإرسال بيبرس المنصوري و بهادر آص إلى الملك الناصر برسالة تنص على تنازله من السلطنة[3].

قرب السلطان الناصر محمد الأمير بيبرس المنصوري منه، ولذلك برزت مكانته عنده من خلال اعتماده عليه في إعادة الأموال التي أخذها الجاشنكير من خزينة الدولة[4]، وتوليته بناءاً على مواقفه المشرفة دار العدل والنظر على الأوقاف المنصورية في مصر و الشام[5]ثم تعويله عليه في القبض على الأمير سلار [6]، وتوليته نيابة السلطنة في مصر [7].

ومن الدلائل على مكانته عند السلطان قيامه بإجلاسه في رأس الميسرة ؛ أي أنه أصبح في عهده كبير الأمراء المتقدمين في السن من أكابر أمراء المائة (أمراء المشورة)[8]. وقد كان ذلك قبل أن تم سجنه من قبل السلطان ، بحيث تراجعت مكانته في الفترة الممتدة (712-718هـ).

أما انطباعات المؤرخين المعاصرين والتالين عن بيبرس المنصوري، فقد دلت على أنه كان يتمتع بمكانة رفيعة عند السلاطين ، فقد أشاد به النويري -وهو مؤرخ معاصر - فقال: "كان الأمير بيبرس الدوادار المنصوري من أكابر مماليك السلطان

(1) المنصوري، زبدة الفكرة، ص414-415؛ المنصوري، التحفة، ص194-195.

(2) المنصوري، التحفة، ص197-198.

(3) المصدر نفسه، ص206.

(4) المصدر نفسه، ص206.

(5) المصدر نفسه، ص210-211.

(6) المصدر نفسه، ص214-216.

(7) المصدر نفسه، ص228.

(8)المقريزي، السلوك، ق 1، ج2، ص185؛ المقريزي، المقفى، ج 2، ص533. ترجمة رقم "1003".

الملك المنصور سيف قلاوون في زمن إمرته، وكان رحمه الله تعالى أجل الأمراء في وقته لا يتخطاه أحد، ولا يجلس في مرتبته، وهو رأس الميسرة، و تأمر في ابتدأ الدولة المنصورية السيفية، ثم فوض السلطان الملك المنصور إليه نيابة قلعة الكرك ونقل منها إلى الديار المصرية في جملة الأمراء في الدولة الأشرفية الصلاحية، وردّ إليه في ابتداء الدولة الناصرية أمر ديوان المكاتبات ... وتنقل في المراتب فكان ينوب عن السلطنة الشريفة في الغيبة ..."(1). وقال عنه الصفدي: "كان فاضلاً في أبناء جنسه، عاقلاً لا يستشير في أمره غير نفسه، وافر الهيبة، واضح الشيبة له منزلته مكنية [مكانته] عند السلطان، و محلة لا يشركه فيها غيره في النزوح والاستيطان يقوم له إذا أقبل، ويقول له: اجلس فانك أكبر من هؤلاء وأنبل..."(2) أما ابن تغري بردي، فقد ذكر أنه: "كان أميراً عاقلاً فاضلاً معظماً في الدول، وكان إذا دخل على الملك الناصر يقوم له إجلالاً"(3). كذلك أشاد به ابن تغري بردي في موضع آخر، وقارن بين أمراء عصره في دولة المماليك الجراكسه و بين بيبرس المنصوري، فقال: "كان يستحق هذا و أكثر [أي أن يقوم له السلطان ويجلسه] لما احتوى عليه من العلم والفضل والعقل و الحكم، والسياسة، فهؤلاء هم الأمراء، لا مثل أمراء عصرنا..."(4).

ويقول عنه أيضاً الداري: "وكان من مماليك المنصور، و تنقل في الخدم، وكان فاضلاً في أبناء جنسه، وكان السلطان يقوم له ويجلسه"(5).

---

(1) النويري، نهاية الأرب، ج33، ص138.

(2) الصفدي، أعيان العصر، ج 2، ص80. ترجمة رقم "497" الصفدي، الوافي، ج 10، ص352. ترجمة رقم "4846" ابن حجر، الدرر الكامنة، ج 2، ص43. ترجمة رقم "1384".

(3) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج 9، ص263. ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج 3، ص478. ترجمة رقم "722" ابن تغري بردي، الدليل الشافي، ج 1، ص205. ترجمة رقم "720".

(4) ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج3، ص478. ترجمة رقم "722".

(5) الداري، الطبقات السنية، ج2، ص259. ترجمة رقم "582".

12.3.1 مذهبه

ذكر المقريزي[1] أن بيبرس المنصوري كان على المذهب الحنفي، وقد اتفق معه في ذلك ابن حجر العسقلاني[2]، والداري[3]، وابن الغزي[4]، وابن العماد الحنبلي[5].
أما بقية المصادر، فلم تحدد ذلك.

13.3.1 وفاته

ذكر النويري أن وفاة بيبرس المنصوري كانت في ليلة الخميس 25 رمضان 725هـ/1324م[6]، وقد اتفق معه في ذلك كل من المقريزي[7]، وابن تغري بردي[8]، في حين أن ابن أيبك الدواداري[9] ذكر أنه توفي في يوم 15 من الشهر والسنة المشار إليها، أما الذهبي[10]، والداري[11]، فلم يحددا تاريخ اليوم الذي توفي

---

(1) المقريزي، المقفى، ج2، ص533. ترجمة رقم "1003".
(2) ابن حجر، الدرر الكامنة، ج2، ص43. ترجمة رقم "1384".
(3) الداري، الطبقات السنية، ج2، ص259. ترجمة رقم "582".
(4) ابن الغزي، ديوان، ج1، ص207-208. ترجمة رقم "315".
(5) ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ج6، ص67.
(6) النويري، نهاية الأرب، ج33، ص138.
(7) المقريزي، المقفى، ج2، ص533. ترجمة رقم "1003".
(8) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج 9، ص263؛ ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج 3، ص477. ترجمة رقم "722".
(9) ابن أيبك الدواداري، كنز الدرر، ج9، ص319.
(10) الذهبي، العبر، ج 4، ص74؛ الذهبي، أبو عبدالله شمس محمد بن أحمد بن عثمان (ت748هـ)، دول الإسلام، تحقيق فهيم محمد سكتوت ومحمد مصطفى إبراهيم، عني بطبعه ونشره عبدالله بن إبراهيم الأنصاري، مطابع قطر الوطنية، (د.ط)، ج2، قطر، 1988م، ص234؛ ابن حجر، الدرر الكامنة، ج2، ص43. ترجمة رقم "1384".
(11) الداري، الطبقات، ج2، ص259. ترجمة رقم "582".

فيهأما أغلب المصادر [1]، فقد حددت وفاته في العام المذكور دون ذكر اليوم والشهر.

أما مكان وفاته، فقد أجمعت المصادر على أنها كانت في مصر (القاهرة)، وكان يومئذ قد بلغ الثمانين من عمره [2]، وقد ذكر الصفدي أنه دفن بحضور نائب السلطان والأمراء في المدرسة التي أنشأها تحت قلعة الجبل [3]، والتي سيشار إليها تالياً.

قام السلطان الناصر -بعد دفن بيبرس المنصوري- بتوزيع إقطاعاته على الأمراء في مصر، فالأمير علاء الدين مُغلطاي الجمالي منح خمسين فارساً من فرسانه، وقدمه على ألف فارس بدلاًمنه، في حين أُعطي الأمير سيف الدين بلبان السنائي أمرة الطبلخاناه، أما الأمير عز الدين أيدمر الخطيري، فقد جلس مكانه في رأس الميسرة [4].

---

(1) الصفدي، الوافي، ج 10، ص352. ترجمة رقم "4846"؛ ابن حبيب، تذكرة النبيه، ج2، ص158؛ السيوطي، حسن المحاضرة، ج 1، ص555؛ ابن الغزي، ديوان الإسلام، ج 1، ص208. ترجمة رقم "315"؛ ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ج 6، ص66؛ حاجي خليفة، كشف الظنون، مج2، ص952؛ البغدادي، هدية العارفين، مج5، ص233.

(2) ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج 3، ص477. ترجمة رقم "722"؛ الذهبي، العبر، ج4، ص74؛ الصفدي، الوافي، ج 10، ص352. ترجمة رقم "4846"؛ ابن حبيب، تذكرة النبيه، ج2، ص158؛ ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ج6، ص66.

(3) الصفدي، أعيان العصر، ج2، ص80. ترجمة رقم "497".

(4) النويري، نهاية الأرب، ج33، ص139؛ المقريزي، السلوك، ق1، ج2، ص269.

الفصل الثاني

منهج بيبرس المنصوري وأسلوبه في كتابة تاريخ دولة المماليك البحرية

1.2 منهجه في بناء مادته التاريخية

اعتمد بيبرس المنصوري في كتابه زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة طريقة الحوليات، كما هي عادة مؤرخي عصره، وذلك أنه كان يذكر الأحداث التاريخية مرتبة حسب السنين في إطار وحدة موضوعية، بحيث يتعرض لسنة بعد أخرى مبتدئاً بسنة (كذا) شارحاً أهم أحداثها، وما يكون قد تم فيها من أمور سياسية وإدارية واجتماعية واقتصادية ونحو ذلك، ثم يختتمها بذكر تراجم أعيان من توفي فيها، وهكذا...

وهذه الطريقة اتبعها بيبرس المنصوري في كتاباته الأخرى [1]، ولكن دون أن يختتم السنة فيها بذكر تراجم أعيان قد توفوا، وبمعنى آخر أنها خلت من تراجم الأعيان.

وقد درج بيبرس المنصوري في كتاباته على تسهيل مهمة القارئ بتوضيح إطار عمله التاريخي، فقد ذكر في مقدمة كتابة : التحفة، أنه ألف جزءاً مستقلاً في حجمه عن الدولة التركية سماه زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة، ابتدأه بذكر الدولة المعزية (أي الدولة المملوكية في عهد المعز أيبك) وما تقدمها من أسباب التمكين لطبقة المماليك البحرية، ثم ذكر أنه "ساقها مملكة تلو مملكة، ونسقها دولة تلو دولة حتى انتهى إلى دولة السلطان الملك المنصور قلاوون ثم اختتمه بذكر دولة السلطان الناصر محمد"[2].

ومن الجدير بالذكر أن بيبرس المنصوري كان حين يتكلم عن سلطان يتتبع الأحداث التاريخية في عهده، سواء على الصعيد الداخلي أو الخارجي.

---

(1) اتبع بيبرس المنصوري طريقة الحوليات فيكتابه التحفه الملوكية وكتابه الآخر مختار الأخبار.

(2) المنصوري، التحفة، ص23. (المقدمة).

أما عن الأسس المنهجية التي اعتمدها بيبرس المنصوري في بناء مادته التاريخية، فيمكن أجمالها حسب المسح الدقيق لمادته بما يلي:

أولاً: تقييم المصادر التي عول عليها في معلوماته.

اعتمد بيبرس المنصوري في معلوماته على مصادر عديدة حرص فيها على ذكر تقييمه لها من حيث الموثوقية والخبرة، فعلى سبيل المثال حين استقى معلوماته عن إسلام بركة ملك التتار قال و:الذي ذكرته الرواة ونقلته الثقاة عن إسلامه"[1]. كذلك يتضح ذلك من خلال وصفه لبعض مصادره بالخبرة، كقوله حين استقى معلوماته عن أخبار التتار في البلاد الشرقية من شخص اسمه مؤمن أغا : "... وكان خبيراً بأحوال التتار وذراريهم ..."[2]. وقوله أيضاً في وصف مصدر آخر: "حدثني من أثق إليه"[3]، وقوله: "وحدثني بعض الثقات"[4].

أما بالنسبة للمصادر التي كان شاكاً في موثوقيتها، فقد أظهر موقفه الحيادي منها، ويتضح ذلك من قوله : "وحكي إن"[5]، وقوله: "ذكر بعض أهل المعرفة بالأخبار"[6]، وقوله: "ولقد أخبرني مخبر "[7]، وقوله: "ولقد ذكر لي"[8]، وقوله: "قال بعض المؤرخين"[9].

ثانياً: الحياد والموضوعية.

حرص بيبرس المنصوري في كتاباته على نقل الأحداث التاريخية بموضوعية وحيادية، فالبرغم من تشيعه وميوله في كتاباته للسلطان المنصور قلاوون وولده

---

(1) المنصوري، التحفة ، ص83.
(2) المنصوري، زبدة الفكرة، ص216.
(3) المنصوري، مختار، ص62.
(4) المصدر نفسه، ص68.
(5) المنصوري، زبدة الفكرة، ص26، 379.
(6) المصدر نفسه، ص122.
(7) المصدر نفسه، ص302.
(8) المصدر نفسه، ص311.
(9) المنصوري، مختار، ص27.

السلطان الناصر محمد والإشارة إليهما "بمولانا السلطان"، والإشارة للسلاطين الباقين بأسمائهم مجردين من لقب "السلطان"، فإن الإشارات التي تدل على حياديته وموضوعيته عديدة، فعلى سبيل المثال يلحظ حين تكلم عن موقعة مجمع المروج عام 699هـ بين السلطان الناصر محمد والمغول أنه لم يخف الحقيقة مع ميوله وتشيعه للسلطان المشار إليه، فقد ذكر أن السلطان هزم في هذه الموقعة، وأن السبب في ذلك هو نحس يوم الأربعاء [1]. كذلك يدل على موضوعيته أنه حين أفلتت أمور الدولة من يد السلطان الناصر، وسيطر عليها الأمير سلار والأمير بيبرس الجاشنكير انتقد السلطان المشار إليه بقوله "واتفق المثول بين يدي مولانا السلطان للمشورة [في الحملة على اليمن عام 707هـ]، وكان أعز الله نصره، كمن سلم إلى سلار ورفيقه حالهما ليفعلا ما أرادا ولم يحتز لهما عناداً..." [2].

ثالثاً: التحقق والتثبت من معلوماته.

حرص بيبرس المنصوري على التحقق والتثبت من المعلومات التي جمعها في طيات مصنفاته، ولعل ما ساعده على ذلك أنه كان شاهد عيان لأغلب الأحداث التاريخية التي دونّها، أما التي لم يحضرها فقد تحقق منها، وهذه السمة المنهجية يلحظ أنه أشار إليها في مقدمة كتابة التحفة الملوكية، حيث يقول: "... وجعلتها [التحفة الملوكية] خمسين مقاماً ذهبية لا خمسين مقامة حريرية، كلها مبني على حقيقةٍ عريٌ عن التلفيق، مستقرين بالمباشرة لأكثره، والاستثبات لما لم أحضره من أيسره..." [3]. ويمكن هنا إيراد العديد من الأمثلة على منهجه هذا من مؤلفاته، ففي ذكره لأسماء أولاد هولاكو قال: "وهذه أسماء الأولاد أثبتناها من السفار والواردين من تلك الأقطار، وهم أبغا..." [4].

وقد فعل الشيء ذاته في ذكره للوحشة التي حصلت بين السلطان الناصر محمد وكل من الأمير سيف الدين سلار والأمير بيبرس الجاشنكير عام 707هـ، حيث

---

(1) المنصوري، التحفة، ص156- 157.
(2) المصدر نفسه، ص183- 184.
(3) المصدر نفسه، ص222.
(4) المصدر نفسه، ص55.

قال: "ولم أكن شاهد هذا الخطب عند حدوثه، فوصلت من بعض نواحي الوجه البحري، فوجدت الحال كما لا أرضى والأمر قد أفضى إلى ما أفضى ..."[1]. كذلك فعل الشيء نفسه حين حدثت المجاعة في القاهرة بسبب قصر نهر النيل عام 694هـ، حيث قال للتأكيد على صحة الخبر: "وعدت من الإسكندرية إلى الأبواب السلطانية فوجدت حال أهل القاهرة قد آل إلى التلف من المرض الشامل والموت العاجل..."[2]. كما فعل الشيء حين تأخر السلطان الناصر محمد عام 702هـ في الوصول إلى الشام لمساندتهم ضد المغول، حيث قال: "... وبينا أنا مفكر في هذا الأمر مر بي بريد راكض، فساءلته عن السلطان، فأخبر باقترابه ووصوله في أطلابه، فقصدت تحقيق روايته، والوقوف على كتبه، فأخذتها منه غصباً، وأوجعته ضرباً لما كنت فيه من التحرق على الإسلام، والقلق الذي منع الأجفان لذيذ المنام. فلما وقفت على الكتب، وتيقنت وصول السلطان عن كثب قرأتها على الأمراء..."[3].

رابعاً: توجيه النقد الأدبي للنصوص الشعرية وتعديلها.

اهتم بيبرس المنصوري إلى جانب اهتمامه بالإحداث التاريخية بالنصوص الشعرية التي أوردها في مؤلفاته، ذلك أنه لم يتركها على علاتها، فقد كان يقوم بتوجيه النقد إليها، فإذا ما توافر له ما يقتضي تعديلاً أو تصويباً، قام بذلك مع الإشارة إلى السبب وراءه، ففي وقعة حمص عام 680هـ نظم الشعراء الكثير من الشعر فيها، وكان من بينهم الأمير ركن الدين بيبرس الفارقاني أحد أمراء العشرات الذي قال فيها:

وجزنا الشام في جيشٍ عظيم	سوى جيش الاعارب والحشود
فقصّ القاصدون حديث قوم	بأرض الروم مع خيل البريد
فسرنا حين ساروا والتقينا	على حمص مسربلة الحديد
وصار النصر للمنصورعونا	بهمّة خالد بن الوليد

(1) المنصوري، التحفة، ص182.
(2) المنصوري، زبدة الفكرة، ص309.
(3) المنصوري، مختار، ص124.

إذا ما شئت أن تحيـا هنيئاً ... فبـادر للسناجق والبنـود
تـرى من تحتها ملكاً حليماً ... وفيّـاً بالمـواثق والعهـود
هو المنصور خوّاص المنايا ... إذا ما الحرب تسعر بالوقود
أتى مثل الغمام بجيش مصرٍ ... وكوسات كأصوات الرعود
لها وقع ترنّ الأرض منـه ... وترعد منه آفاق الوجـود
واسياف لهـا لمـع كبـرق ... تقدّ بها العظام مع الجلـود
فسائل من هلاون عن قلاون ... وسائـل للبرنس وللكنـود
فلا برحت يـداه في عـداه ... مصرّقة باسعاف السعـود
ولا زالت ملوك الأرض جمعاً ... له مـا عاش أمثـال العبيد
ويجزيه الإلـه عن البرايـا ... ويسكنـه بجنّـات الخلـود

يوجه بيبرس المنصوري في أعقاب ذكره لهذه الأبيات النقد لها ، فيقول: "وكانت هذه الأبيات كثيرة اللحن [الخطأ في الأعراب] مع صحة الوزن، فأصلح مـا أمكـن إصلاحه من إعرابها عند كتابتها"(1).

خامساً : تقديم معلومات تاريخية جديدة .

بدراسة مادة بيبرس المنصوري التاريخية، يلاحظ أنه يورد معلومات جديـدة لا نجدها عند غيره من المؤرخين(2).

---

(1) المنصوري، زبدة الفكرة، ص207-208.

(2) قارن مادة بيبرس المنصوري حول ما كتبه عن فتح عكا عام 690هـ (زبدة الفكرة، ص278-280)(التحفة، ص126-127)(مختار، ص91-92) مع ما كتبته المصادر التالية عن ذلك: أبو الفداء، المختصر، ج 2، ص359-360؛ ابن الوردي، تاريخ، ج2، ص336-337؛ مؤلف مجهول، الحوادث الجامعة، ص 470. وقارن مادة بيبرس المنصوري حول ما كتبه عن فتح قلعة الروم عام 691هـ (زبدة الفكرة، ص 288-289)(التحفة، ص 130-131)(مختار، ص92-93) مع ما كتبته المصادر التالية: عن ذلك: أبو الفداء، المختصر، ج2، ص362-363؛ ابن الوردي، تاريخ، ج 2، ص338؛ مؤلف مجهول، الحوادث الجامعة، ص474.

سادساً: عدم إعطاء أحكام على بعض الروايات.

في حالة ذكر بيبرس المنصوري أكثر من رواية عن موضوع معين كان لا يرجح رواية على الأخرى، ولا حتى يعطي وجهة نظره على ذلك، فعلى سبيل المثال حين قتل الأمير الخزندار قال: "واتفق موت الأمير بدر الدين الخزندار بعد أيام يسيرة وعوجل بمحتومه ولحق بمخدومه، فقيل إنه مات حتف انفه، وقيل بل اغتيل حسداً على منصبه والله أعلم أي الحالين كان"[1]. كذلك عندما تحدث عن مصير الأمراء الذين جردهم نائب السلطنة الأمير بمصر سيف الدين منكوتمر إلى سيس، قال: "أما بقية الأمراء الذين كانوا في ذلك التجريد، فمنهم من مرض وقضى، ومنهم من عاد متمرضاً، وقال الناس: أنهم اغتيلوا هنالك، والله أعلم بذلك"[2].

2.2 أسلوبه الأدبي في عرضه لمادته التاريخية

لم يخرج بيبرس المنصوري في أسلوبه عما هو مألوف في عصره، فقد استخدم في مؤلفاته أسلوباً يعتمد على السجع في سرد الأحداث التاريخية بطريقة لا تخل في المعنى، وهي طريقة معروفة عند علماء عصره، ومن الأمثلة التي تدل على أسلوبه المشار إليه هذه العبارات والجمل المقتطفة من مؤلفاته كقوله: "...ودفعوا هذا العدد الشديد الذي أفنى العديد، وأباد كل من طاوله في الأمد لقريب من المدى البعيد"[3]، وقوله: "فقدر الله تعالى بجميل تقديره ولطيف تدبيره"[4]، وقوله: "وقرر لهم الجوامك والجرايات، ورتب للقلعة كفايتها من النفقات وعمر بها جامعاً في ربضها للصلوات"[5]، وقوله: "وشملتني سعادة آرائه بأن صيرتني من جملة أمرائه، وكان هذا دأبه في سائر خدامه أن يرفع مراتبهم في أيامه"[6]، وقوله: "ولما التقت الصفوف

(1) المنصوري، زبدة الفكرة، ص162.

(2) المصدر نفسه، ص318.

(3) المصدر نفسه، ص50-51.

(4) المصدر نفسه، ص55.

(5) المصدر نفسه، ص104.

(6) المصدر نفسه، ص247.

وأسلت السيوف، وأصليت الأبطال نيران الحتوف، برز الملك المظفر بمن ظـافرة من أهل الإيمان وآزره من الفرسان ..."[1]، وقوله: "أشرق كوكب السـعود، وبـزغ هلال أضاء بإيداره الوجود، وبشر السلطان بأسعد ولـد وأعظم مولود"[2]، وقوله: "لما كانوا عليه من سوء التدبير، وفرط التبذير، وإضاعة ما كان والدهم خزنه بها مـن الأموال الجزلية، والذخائر الكثيرة"[3]، وقوله: "وأعيد لـه الجـواب بمـا اقتضاه الصواب"[4].

وقد أشار ابن تغري بردي إلى أسلوبه ذلك، فقال: "ومما يدل على فضـله مـا أورده في تاريخه من الكلام المسجع"[5].

ومع أن كتابات بيبرس المنصوري تمتعت بتداعي الأفكار بأسلوب فصيح، فقـد قدم اعتذاره عن التقصير في العبارة والجمل كما هو واضح فـي كتابـه: التحفـة الملوكية في الدولة التركية، حيث قال: "وأنا أسال الصفح عن التقصير في العبـارة والجمل على أن هذه الأدوات ليست لي غريزة بل مستعارة إذ كان هذا المضـمار ليس بميدان الأتراك ولا لهم في حلبته اشتراك، فأنا متعلق بالأذيال في النسج علـى هذا المنوال:

إن تجد عيباً فسد الخللا جل من لا عيب فيه وعلا"[6].

أما السمة الثانية التي اتسم بها أسلوب بيبرس المنصوري فـي كتاباتـه، فهـي استخدامه التشبيه في وصفه للكثير من الأحداث التاريخية مـن خـلال الاستشـهاد بالآيات القرآنية أو الأبيات الشعرية أو الأمثال العربية، وهذا الأسلوب ساعد علـى إضفاء بصمة جميلة على الأحداث، فعلى سبيل المثال على أسلوبه ما ذكـره عـام 707هـ من: "هبوب ريح سموم عاصفة وقت الحصاد، فأفسـدت زروع الـبلاد،

---

(1) المنصوري، التحفة، ص43.
(2) المصدر نفسه، ص113.
(3) المنصوري، مختار، ص85.
(4) المصدر نفسه، ص118.
(5) ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج3، ص477. ترجمة رقم "722".
(6) المنصوري، التحفة، ص240.

فهافت الغلة ورجعت كثرتها إلى القلة، وجف الزرع بكل مكان وخف الضرع من كل حيوان... وقد كان الناس مستبشرين بإقبال سنتهم وامتداد نيلهم، وخصب زراعتهم، فلم يفجأهم إلا همودها وتلافها وهيفها وجفافها، فكانوا كما قال الله تعالى في كتابه العزيز: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاء أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاء فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالأَنْعَامُ حَتَّىَ إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَاراً فَجَعَلْنَاهَا حَصِيداً كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾(1)،(2).

كذلك من الأمثلة على أسلوبه قوله: "وبلغ[ت] قصد الملك الظاهر بيبرس] من الدرجات الملوكية أعلاها ومن التصرفات السلطانية أسناها فكان كقول أبي الطيب المتنبي رحمه الله:

الرأي قبل شجاعة الشجعان	هو أول وهي المحل الثاني
فإذا هما اجتمعا لنفسٍ مرةٍ	بلغت من العلياء كل مكان"(3).

ولم يقتصر أسلوب بيبرس المنصوري على ما تقدم بل اتسم أسلوبه بسمة ثالثة تمثلت بالإيجاز والاختصار في نقل الأحداث التاريخية، وهذا واضح في كتاباته، ففي كتابه التحفة الملوكية قال: "وقصدت اختصارها لتعجيلها وإيجازها للإضراب عن تطويلها لتحلو مواقعها وتسهل على من يطالعها، ولو سردت تفاصيل السيرة الشريفة لأطنبت، ولوذكرت غرائب آثارها لأسهبت ..."(4). كما يمكن أن يستدل على أسلوبه هذا من خلال الاطلاع على تراجمه في كتابه زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة، حيث يلحظ أنه لم يتحر في سرده لأسماء تراجمه رسم صورة واضحة عنهم، فقد كان يكتفي في أغلبها بذكر الكنية ثم الاسم فسلسلة النسب حتى انتمائه المذهبي -إن وجد- ثم اللقب -إن وجد-،ثم التخصصات العلمية -إن وجدت- ثم الوظائف

(1) سورة يونس، آية 24.
(2) المنصوري، التحفة، ص182- 183.
(3) المنصوري، زبدة الفكرة، ص59.
(4) المنصوري، التحفة، ص239.

الإدارية والسياسية -إن وجدت-،ومكان الوفاة وسنتها [1]. أما بقية تراجمه، فقد جاءت مقتضبة مجردة من أي أمر من الأمور الأنفة الذكر، بحيث كان يكتفي فقط فيها بذكر الاسم والنسب، وأحياناً الوظائف الإدارية والسياسية ومكان الوفاة وسنتها[2].

ومما يدل أيضاً على اختصاره في تراجمه أنه كان يقول أثناء ذكره لها: "... وشهرته تغني عن الإطناب في ذكره، والإسهاب في أمره"[3].

ولم يقتصر إيجازه واختصاره على مؤلفاته السابقة بل يلحظ من دراسة مصنفه مختار الأخبار أنه أورد فيه معلومات مقتضبة ومختصرة.

3.2 مصادره

يتضح من دراسة مادة بيبرس المنصوري التاريخية أنه اعتمد في استقاء معلوماته فيها على نوعين من المصادر هما:

1. المصادر الشفوية:

اعتمد بيبرس المنصوري في استقاء معلوماته في معظم الأحداث التاريخية التي لم يكن فيها شاهد عيان على مصادر شفوية انقسمت إلى قسمين:

أ. مصادر شفوية كان لها مشاركة في صنع تلك الأحداث أو على اطلاع بها، اتصل بها وحدد أسمائها، ويتضح ذلك في العديد من الحالات منها قوله: "وها أنا أذكر خبراً أخبر به السلطان الشهيد المخدوم الملك المنصور سيف الدين قلاوون رحمه الله ..."[4]، وقوله: "وكان مؤمن أغا هذا يتردد إليّ يقص ما

---

(1) انظر:المنصوري، زبدة الفكرة، تراجم ص 8، 9، 11، 15، 16، 18، 23، 33، 44، 57-58، 73، 77، 85، 94، 102، 106-107، 116، 122-123، 126-127، 132-133، 135... الخ.

(2) انظر المصدر نفسه، تراجم ص 159، 165، 180، 184، 190، 230، 248، 253، 261، 291، 312، 329، 350، 391-392، 401، 408-409.

(3) انظر: المصدر نفسه، ترجمة ص77.

(4) المصدر نفسه، ص34-35.

يعلمه من أخبار البلاد الشرقية عليّ، وهو الذي حدثني بمقتل منكوتمر وما جرى له وكان خبيراً بأحوال التتار وذراريهم..."[1]، وقوله: "ورد سيف الدين جنكلي إلى الديار المصرية في الدولة النا صرية، واخبرني من لفظه بذلك..."[2]، وقوله عن المصدر نفسه خبراً أخر : "ولقد اتفق فيما بعد وصول الأمير سيف الدين جنكلي بن البابا أحد أمراء التتار إلى الديار المصرية، فاخبرني أنه كان في تلك السرية ..."[3]، وقوله: "...وكان من مساهلة سفرهم وتيسيره لهم على ما أخبوه من لسانه سيف الدين الحكيمي ..."[4]، وقوله : وصّل الأمير فتح الدين بن صبره المهمندار من بلاد التتار ... وأخبر من لسانه أن..."[5]، وقوله: "وصل علاّ الدين ايدغدى التليلي وعلاّ الدين ايدغدى الخوارزمي رسولا الباب الشريف من بلاد المغرب ... وأخبر الرسولان المذكوران انه اتفق لهما في هذه السفرة ..."[6]، وقوله: "ولقد حدثني الأمير سيف الدين بلبان الطباخي، تغمده الله برحمته، وكان بالميسرة، أنه..."[7].

ب. مصادر شفوية كان لها مشاركة في صنع تلك الأحداث أو على اطلاع بها اتصل في معظمها، بيد أنه لم يحدد أسماء أصحابها، ويظهر ذلك من قوله: "وحكي أن"[8]، وقوله: ذكر بعض أهل المعرفة بالأخبار "[9]، وقوله: "أخبرني من حضر هذه الوقعة أن ..."[10]، وقوله: وحكى عنه تلميذ له "[11]، وقوله :

---

(1) المنصوري، زبدة الفكرة، ص216.

(2) المنصوري، التحفة، ص109.

(3) المنصوري، زبدة الفكرة، ص289؛ المنصوري، التحفة، ص131.

(4) المنصوري، زبدة الفكرة، ص388.

(5) المصدر نفسه، ص394.

(6) المصدر نفسه، ص410- 412.

(7) المنصوري، مختار، ص 111.

(8) المنصوري، زبدة الفكرة، ص26، 379.

(9) المصدر نفسه، ص122.

(10) المصدر نفسه، ص183.

(11) المصدر نفسه، ص265.

"ولم أشهد هذه الغزاة، ولكن أخبرني من باشرها ونقل إليّ أمرها من حضرها"[1]. وقوله: "ولقد أخبرني مخبر "[2]، وقوله: "ولم أكن بالقاهرة عند هذه الحادثة. وإنما بلغني أمرها ممن شهدها ..."[3]، وقوله: "ولقد ذكر لي"[4]، وقوله: "وكان شعارهم على ما حكاه من شهد الوقعة معهم ..."[5]، وقوله: "ولقد حكى عن شيخ من أهل الفلاحة ببلد اشموم "[6]، وقوله: "ولقد حكى من شهد الوقعة ..."[7]، وقوله: "قال بعض المؤرخين "[8]، وقوله: "حدثني من أثق إليه "[9]، وقوله: "حدثني بعض الثقات "[10]، وقوله: "... وبينا أنا مفكر في هذا الأمر، مر بي بريد راكض، فساءلته عن السلطان، فاخبر باقترابه ووصوله..."[11]، وقوله: ".وتسلل إلينا منهم أقوام، واخبرونا بأنهم ..."[12]، وقوله: "بلغني أن"[13].

2. المشاهدة والملاحظة.

جاءت معلومات بيبرس المنصوري في هذا الجانب على قسمين؛ القسم الأول : وهي المدة التي لم يعاصرها، وقد اعتمد فيها على بعض المصادر المدونة ، وهذا

---

(1) المنصوري، زبدة الفكرة، ص266.

(2) المصدر نفسه، ص302.

(3) المنصوري، زبدة الفكرة، ص304 -305؛ المنصوري، التحفة، ص143.

(4) المنصوري، زبدة الفكرة، ص311.

(5) المصدر نفسه، ص347.

(6) المصدر نفسه، ص351.

(7) المصدر نفسه، ص354.

(8) المنصوري، مختار، ص27.

(9) المصدر نفسه، ص62.

(10) المصدر نفسه، ص68.

(11) المصدر نفسه، ص124.

(12) المصدر نفسه، ص126.

(13) المصدر نفسه، ص126 -127.

يتضح من قوله :"ذكر عزالدين بن عساكر في تاريخه "[1]، وقال في موضع آخر في ترجمته للقاضي محيي الدين بن عبد الظاهر كاتب الإنشاء : "وله -أي ابن عبد الظاهر- السيرة الظاهرية التي أبدع فيها نظماً ونثراً، وغير ذلك ، وقد ذكرنا مقطعات من أشعاره الواردة هذه السيرة، ونبذاً من توقيعاته الأثيرة "[2]. وقال في موضع ثالث: "فحضرتني حكاية رويتها عن عيسى ابن مريم عليه السلام مدونة في كتاب موسوم بعيون الحكايات"[3].

أما القسم الثاني، فهي الفترة التي شاهد أحداثها ولاحظها وشارك فيها، فالمتصفح ليومياته يلاحظ أشارته لذلك بصراحة من خلال الكثير من العبارات، كقوله : "وحضرت هذه الغزاة"[4]، وقوله: "وكنت في هذه ا لغزاة"[5]، وقوله: "فوصلنا إلى المصيصة"[6]، وقوله: "فندبني السلطان إليهم "[7]، وقوله: "وتوجهت في خدمته "[8]، وقوله: "فحضرنا إلى المنازلة والقتال حتى افتتحنا قلعة الروم "[9]، وقوله : "ولما حصل اجتماعنا"[10]، وقوله: "فجمعونا للاستشارة"[11]، وقوله: " وكان المجردين الأمير بدر الدين أمير سلاح ومضافوه وأنا يومئذ في جملتهم"[12]، وقوله: "وكنت

(1) المنصوري، زبدة الفكرة، ص110.
(2) المصدر نفسه، ص294 -295.
(3) المنصوري، التحفة، ص215.
(4) المنصوري، زبدة الفكرة، ص96.
(5) المصدر نفسه، ص111.
(6) المصدر نفسه، ص144.
(7) المصدر نفسه، ص254.
(8) المصدر نفسه، ص255.
(9) المصدر نفسه، ص289.
(10) المصدر نفسه، ص364.
(11) المصدر نفسه، ص414.
(12) المنصوري، التحفة، ص133 -134.

فيمن أبعده منكوتمر "[1]، وقوله: "واجتمعت بالقوم"[2]، وقوله: "فذكرت ما عندي في هذا الأمر"[3]، وقوله: "كلما تهيأ لنا الاجتماع عنده "[4]، وقوله: "وأسرعنا إليهـــا"[5]، وقوله: "وكنت أشاهدهم"[6]، وقوله: "وكنت في جملة العديد، وزمرة هذا التجريد"[7].

4.2 تاريخ تأليفه مؤلفاته

بدراسة مقدمة التحفة الملوكية في الدولة التركية يتضح أن تدوين مؤلفات بيبرس المنصوري لاسيما زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة، والكتاب المشار إليه آنفاً قد كـــان في عهد السلطان المل ك الناصر محمد بن قلاوون وبإشراف منه عليهما كما يصرح المؤلف نفسه، بدليل قوله : "إذ كان تصنيف أصله وفرعه في أيامه [8]، وتـــأليف وضعه بما إفاضة من فواضل إنعامه ليشرفه بمطالعته ويعطره بملاحظته ويجتلـــي منه أنوار سلفه الشهيد [الملك المنصور قلاوون،] ويجتني ثمار تصـــ رفه الســـعيد، ويتذكر ما آتاه الله من الرأي السديد والملك الذي لا يبيد"[9].

ومع أن بيبرس المنصوري ذكر زمن تدوينها، إلا إنه لم يحدد تـــاريخ كتابتهـــا، ولكن يمكن القول أن زبدة الفكرة قد كتبت قبل التحفة الملوكيـــة بفتـــرة قصـــيرة، وتحديداً قبل أن يتم سجن بيبرس المنصوري من قبل السلطان الناصر محمـــد عـــام

---

(1) المنصوري، التحفة، ص155.

(2) المصدر نفسه، ص182.

(3) المصدر نفسه، ص183 -184.

(4) المصدر نفسه، ص197.

(5) المنصوري، مختار، ص92.

(6) المصدر نفسه، ص114.

(7) المصدر نفسه، ص123 -124.

(8) يقصد المؤلف بأصله كتابه زبدة الفكرة، أما فرعه فيقصد به التحفة الملوكية، وفـــي أيامـــه يعني في زمن السلطان الملك الناصر محمد.

(9) المصدر نفسه، ص24.

712هـ، والدليل على ذلك قوله :"... ثم اختصرت من الجزء المذكور [يقصد زبدة الفكرة] جزءاً... قربت ألفاظه ومعانيه [يقصد التحفة الملوكية]..."[1].

أما كتابه مختار الأخبار، فأن فقدان معظم أجزائه حال دون الرجوع لمقدمته للتعرف على تاريخ تصنيف هذا المؤلف، ولكن يبدو أن تأليفه كان بعد تدوين التحفة الملوكية في عهد السلطان الملك الناصر محمد، بدليل أنه كان يكرر كلمة "مولانا السلطان" في هذا الكتاب، ناهيك عن عدم ذكر المؤلف لهذا الكتاب في مقدمة كتابه التحفة الملوكية الأمر الذي يوحي للباحث أنه كتب بعد التحفة.

5.2 أثره في الدراسات المعاصرة له والتالية

حظي بيبرس المنصوري ومؤلفاته باهتمام المؤرخين المعاصرين والتالين، فقد أفاد منه من مؤرخي القرن الثامن الهجري، النويري، شهاب الدين أحمد بن عبدالوهاب (ت733هـ) وهو مؤرخ معاصر لبيبرس وأشار إلى ذلك في مصنفه نهاية الأرب في فنون الأدب، حيث قال في ترتيب العساكر المملوكية في وقعة حمص عام 680هـ مع المغول :"... ورتب [السلطان المنصور قلاوون] العساكر المنصورة الإسلامية على ما نذكره، بمقتضى ما أورده الأمير ركين الدين بيبرس الدوادار المنصوري في تاريخه هو الميمنة المنصورة...الميسرة المباركة... مقدمة القلب..."[2]. ويبدو أن النويري قد قصد بتاريخ بيبرس كتابه زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة لأن مقارنة النص الذي اقتبسه النويري مع كتاب بيبرس المشار إليه يثبت أنه نفس النص.

كما جاء النويري على ذكر بيبرس المنصوري في مؤلفه المشار إليه آنفاً كمصدر من مصادر معلوماته، فقال :"وأخبرني الأمير ركن الدين بيبرس، في ليلة الثامن من شوال سنة سبع وسبعمائة، أنه ضرب على رأسه بدبوس وأراني أثر

---

(1) المنصوري، التحفة، ص24.

(2) النويري، نهاية الأرب، ج31، ص22.

الضربة. وكان قد ذكر لي كما يقول النويري ذلك في أثناء ذكره السالف في خدمة السلطان، وما لقيه وقاساه"[1].

أما مؤرخو القرن التاسع الهجري، فقد أفاد منه ابن الفرات ناصرالدين محمد ابن عبدالرحيم (ت807هـ)الذي استقى منه معلومات في كتابه تاريخ ابن الفرات تتعلق بترتيب العساكر المنصورة في وقعة حمص المشار إليها آنفاً، حيث قال: "... ورتب السلطان المنصور قلاوون] العساكر المنصورة الإسلامية على ما نذكره بمقتضى ما أورده الأمير ركن الدين بيبرس الدوادار المنصوري في تأليفه زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة وهو...الميمنة المنصورة...والميسرة المباركة..."[2].

أما العيني بدرالدين محمود (ت855هـ)، فقد عول كثيراً على مؤلفات بيبرس المنصوري، بحيث أسهب في الاقتباس منها، والمسح الدقيق لكتابه عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان يثبت ذلك، فقد استقى منه حوالي مائة وتسع روايات لا يتسع المجال هنا لذكرها، ومن الملاحظ أن العيني في هذه الروايات التي أفاد منها لم يحدد أياً من مؤلفات بيبرس التي أطلع عليها، فقد اكتفى في كل رواية بذكر "قال بيبرس في تاريخه"[3] ، و"قال بيبرس"[4]،

---

(1) النويري، نهاية الأرب، ج31، ص173.

(2) ابن الفرات، تاريخ، مج7، ص215.

(3) العيني، عقد الجمان، ج2، ص6، 31، 44، 60، 63، 73، 132، 144، 159، 167، 180، 201، 244، 277، 339، 349؛ العيني، عقد الجمان، ج 3، ص65، 83، 120، 124، 152، 158، 213، 222، 262، 267، 276، 299، 304، 319، 345، 364، 387، 394، 421؛ العيني، عقد الجمان، ج 4، ص15، 66، 71، 76، 121، 139، 173، 185، 195، 225، 231، 245، 254، 260، 295، 300، 309، 316، 319، 343 - 245، 359، 382، 385، 408، 449، 458، 468، 470.

(4)العيني، عقد الجمان ، ج2، ص7، 8، 22، 47، 58، 92، 115، 128، 140، 179، 181، 182، 183، 187، 213، 227، 232، 234، 280، 351، 352، 358، 378، العيني، عقد الجمان، ج 3، ص304، 447؛ العيني، عقد الجمان، ج 4، ص204، 235، 286، 291، 308، 470.

وفي تاريخ بيبرس "[1]، باستثناء روايتين صرح أنه استقاهما من كتاب بيبرس المسمى "اللطائف"[2].

ومن مؤرخي القرن التاسع الهجري الذين اطلعوا على كتابات بيبرس المؤرخ ابن تغري بردي جمال الدين يوسف (ت874هـ) الذي أشار في كتابه النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة إلى معلومات استقاها منه تتعلق بمقتل لاجين عام 696هـ، فقال: "قال الأمير بيبرس الدوادار في تاريخه: وكان سبب قتل لاجين أمور..."[3] كما جاء على ذكره في نفس كتابه المشار إليه آنفاً، حيث اقتبس منه معلومات تتعلق بأسماء الأمراء الذين تولوا الوظائف الإدارية في مصر والشام عند تقلد زين الدين كتبغا السلطنة، ويظهر ذلك من قوله: "قال بيبرس: فلما تسلطن رتب الأمير شمس الدين قراسنقر المنصوري نائباً..."[4] فضلاً عن اقتباسه منه معلومات تتعلق بهروب بعض المماليك من مصر إلى الكرك للالتحاق بالملك الناصر محمد بعد خلعه من السلطنة المرة الثانية، ويتبن ذلك من قوله: "قال الأمير بيبرس الدوادار في تاريخه: تسحب من الديار المصرية إلى الكرك المحروس سيف الدين نوغاي القفجاقي أحد المماليك السلطانية وسيف الدين تقطاي الساقي وعلاء الدين مغلطاي القازاني، وتوجه معهم ..مائة وستة وثلاثون نفراً ..."[5]. كما استقى منه معلومات أخرى فقال: "وقال بيبرس في تاريخه: وأرسل السلطان [الناصر] إلى الأفرم رسلاً بالأمان والإيمان..."[6]. أيضاً اقتبس منه معلومات تتعلق بذهابه إلى السلطان الناصر لإخباره بنزول الجاشنكير عن السلطنة، وبطلبه الأمان منه، وهذا يظهر من قوله: "قال الأمير بيبرس الدوادار في تاريخه: وأما نحن فانا تقدمنا على البريد فوصلنا إلى

---

(1) العيني، عقد الجمان، ج2، ص81، 262، 382، ج3، ص205.
(2) المصدر نفسه، ج3، ص10، ج4، ص378.
(3) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج8، ص99.
(4) المصدر نفسه، ج8، ص100.
(5) المصدر نفسه، ج8، ص248.
(6) المصدر نفسه، ج8، ص267.

السلطان يوم نزوله على غزة فمثلنا بين يديه وأعدنا المشافهة عليه، وطالعناه بنزول الركن عن السلطنة والتماسه مكاناً من بعض الأمكنة..."(1).

كما فعل ابن تغري بردي الشيء ذاته في كتابه المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي الذي أورد فيه رواية استقاها من بيبرس المنصوري تتعلق بالسلطان الظاهر بيبرس فقال: قال الأمير بيبرس الدوادار في تاريخه : وكان القمر قد كسف كسوفاً كاملاً أظلم له الجو، وتأول ذلك المتأولون بموت رجل جليل القدر، فقيل إن السلطان لما بلغة ذلك حذر على نفسه، وخاف ..."(2). ومن الملاحظ فيما تقدم أن ابن تغري بردي لم يحدد أياً من مؤلفات بيبرس التي استقى منها معلوماته.

وفي القرن التاسع الهجري أيضاً كان المؤرخ ابن فهد عمر بن فهد بن محمد (ت885هـ) من الذين اطلعوا على مؤلفات بيبرس المنصوري، فقد أشار إلى ذلك في مؤلفة إتحاف الورى بأخبار أم القرى، حيث قال فيما يتعلق بقدوم الملك المسعود صلاح الدين يوسف بن الملك الكامل إلى مكة للحج، ثم انصرافه إلى اليمن: "... فرحل من مكة إلى اليمن في العشر الثاني من ذي القعدة، كذا ذكر بيبرس الدوادار"(3). كما فعل ابن فهد الشيء ذاته في كتابه المشار إليه آنفاً، حيث استقى من بيبرس معلومات أخرى تتعلق بأخبار الركب المصري الذي خرج للحج عام 711هـ، وما حصل بين أبناء أبي نُمَي شريف مكة وأميرها من خلاف حين وصول الركب، وقد ذكر ابن فهد الرواية وقال في نهايتها : "كذا قال بيبرس الدوادار"(4). ومن الملاحظ إن ابن فهد لم يحدد أياً من مؤلفات بيبرس التي استقى منها معلوماته.

لم يقتصر الاهتمام بمؤلفات بيبرس المنصوري على المؤرخين في الشرق العربي السالف ذكرهم بل تعدى ذلك للمؤرخين في المغرب العربي، فمن الذين اطلعوا على مؤلفات بيبرس المنصوري وأفادوا منها المؤرخ المقري أحمد ابن محمد

---

(1) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج9، ص4.

(2) ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج3، ص463.

(3) ابن فهد، إتحاف الورى، ج3، ص19.

(4) المصدر نفسه، ج3، ص135.

التلمساني الذي أشار لذلك في كتابه نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، حيث قال في ترجمته لابن الصائغ: "وقال الأمير ركن الدين بيبرس في تأليفه زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة إن ابن الصائغ كان عالماً فاضلاً، له تصانيف في الرياضيات والمنطق..."[1].

---

(1) المقري، أحمد بن محمد التلمساني، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، (د.ط)، مج7، بيروت، 1988م، ص28.

الفصل الثالث

السياسة الخارجية لدولة المماليك البحرية كما أرخ لها بيبرس المنصوري

1.3 تمهيد

يقتضي قبل الحديث عن دور بيبرس المنصوري في التأريخ لدولة المماليك البحرية الإجابة عن السؤالين التاليين:

1. ما هي مؤلفات بيبرس المنصوري التاريخية التي عول عليها الباحث في هذه الدراسة؟.
2. ما المقصود بدولة المماليك البحرية كما أرخ لها بيبرس المنصوري؟.

أما فيما يتعلق بالسؤال الأول، فقد اقتصرت مادة بيبرس المنصوري التاريخية على ما دونه في كتبه الثلاثة التالية:

أ. زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة (الجزء التاسع الخاص بتاريخ دولة المماليك البحرية حتى سنة 709هـ).

ب. التحفة الملوكية في الدولة التركية.

ج. مختار الأخبار (الجزء الخاص بتاريخ الدولة الأيوبية ودولة المماليك البحرية حتى سنة 702هـ).

وقد قام الباحث بإيراد معلومات مهمة عن هذه المؤلفات في الفصل الأول. إضافة لقيامه بمسح دقيق لتلك المؤلفات، ومقارنتها مع بعضها البعض، لبيان نسبة المادة التاريخية التي تضمنتها عن دولة المماليك البحرية، لا سيما فيما يتعلق بسياستها الخارجية والداخلية.

أما بالنسبة للسؤال الثاني، فيقصد بدولة المماليك البحرية كما أرخ لها بيبرس المنصوري مجموعة الروايات التي سجلها المؤرخ بيبرس المنصوري عن السياسة المملوكية تجاه غيرها، سواء كان ذلك على الصعيد الخارجي أو الداخلي في إطار زمني يمتد بين سنتي (648-711هـ/1250-1311م). وهذا ما تعنى الدراسة بتسليط الضوء عليه.

2.3 السياسة تجاه الدولة المغولية الإيلخانية

جاءت السياسة المملوكية تجاه المغول الإيلخانيين في مقدمة اهتمامات بيبرس المنصوري، فقد دونّ في هذا الجانب كم ه ائل من المعلومات تقدر نسبتها بـ 40% من إجمالي المادة التي كتبها عن السياسة الخارجية.

ابتدأ بيبرس المنصوري مادته التاريخية عن السياسة المملوكية تجاه المغول الإيلخانيين بإعطاء نبذه عن الواقع السياسي لبلاد الشام قبيل موقعة عين جالوت عام 658هـ/1259م[1] ولا يتسع المجال هنا للدخول في التفصيلات، لأن ذلك يعد خارج إطار هذه الدراسة.

تدرج بيبرس المنصوري بعد ذلك لتدوين المعلومات المتعلقة بموقعة عين جالوت 658هـ/1260م، وقد كان متوسطاً في المادة التي كتبها عن هذه الموقعة إذا ما قورنت بغيره من المؤرخين، فقد أوضح بدايةً موقف السلطان المظفر قطز من رسل قائد المغول كتبغا نوين الواصلين إليه برسالة يطالب فيها ببذل الطاعة، وتعبئة الضيافة، فذكر أنه ما أن وصلت الرسل حتى أمَر الملك المظفر بقتلهم ، فقتلوا وطوفت رؤوسهم الأسواق"[2]. كذلك وضح بيبرس المنصوري العبء الذي وقع على كاهل السلطان المظفر قطز ودولته الفتية إثر اجتياح المغول لبلاد الشام "ولم يبق من يدفعهم عن العباد والبلاد إلا عسكر الديار المصرية"[3]. وأبرز دوره في اتخاذ الاستعدادات المناسبة لمواجهة هذا الخطر الذي أحدق بالبلاد الإسلامية "اتفق المظفر مع الأمراء والأكابر على تجهيز العساكر، وصمموا على لقاء العدو المخذول، واستعانوا بالله و بالرسول، وجمعوا الفارس والراجل من العربان، وغيرهم، واستعدوا أعظم استعداد، وبايعوا الله على الجهاد"[4].

---

(1) المنصوري، زبدة الفكرة، ص 24-50؛ المنصوري، التحفة، ص 33-42؛ المنصوري، مختار، ص9-11.

(2) المنصوري، زبدة الفكرة، ص50؛ المنصوري، التحفة، ص43-44.

(3) المنصوري، زبدة الفكرة، ص50.

(4) المنصوري، زبدة الفكرة، ص50.

ومع ذلك يلحظ أن بيبرس المنصوري في تأريخه لهذه الموقعة يتجاهل الحديث عن كيفية تصفية الخلافات التي كانت بين أمراء المماليك البحرية والدولة المملوكية ممثله بسلطانها المظفر قطز، فنجده يقول "وخرجوا من القاهرة المحروسة بأعظم أهبة وأجمل زي وأكمل رهبة، وقد أخلصوا النيات وأصفوا الطويات"[(1)]. ويبدو أن تجاهله يعود لعدم رغبته في الإطالة حتى ينسجم ذلك مع تسمية مؤلفه زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة.

وبالرغم من عدم تسجيل بيبرس المنصوري بعض المعلومات المتعلقة بالموقعة، فأنه يتجاوز ليؤرخ لمجرياتها ونتائجها، فقد ذكر أن السلطان المظفر بعد أن حشد قواته التقى بقوات كتبغا نوين قائد المغول وكان تعدادهم 12 ألف فارس في عين جالوت يوم الجمعة 25 رمضان 658هـ/1260م[(2)] "فلما التقى الجمعان واتصل الضراب والطعان حمل المظفر بنفسه، وألقى خوذته عن رأسه، وحملت الأمراء البحرية والعساكر المصرية حملة صادقة كانت للعدو صاعقة، فكسروهم أشد كسرة. فقتل كتبغا نوين في المعركة"[(3)]. كما بيّن بيبرس المنصوري كنتيجة من نتائج الموقعة كيفية قيام المماليك بمعاقبة الذين أبدوا التعاون مع المغول في الموقعة "قتل بعده السعيد بن العزيز -صاحب الصبيبة وأعمالها- لأنه وافقه في هذه الحركة"[(4)].

كما أرخ بيبرس المنصوري لدور المماليك البحرية في هذه الموقعة وأعني بذلك دور الأمير بيبرس البندقداري في تتبع المغول المنهزمين والقضاء على الإمدادات الواصلة لهم من عند هولاكو "فتبع المنهزمين وأتى عليهم قتلاً وأسراً حتى استأصل شافتهم، فلم يفلت أحد منهم، وصادف طائفة من التتار جاءت من عند هولاكو مدداً لكتبغا، فلما وصلت هذه النجدة إلى بلد حمص صادفت التتار المنهزمين على أسوأ

(1) المنصوري، زبدة الفكرة، ص50.

(2) المنصوري، زبدة الفكرة، ص51؛ المنصوري، التحفة، ص43-44؛ المنصوري، مختار، ص11.

(3) المنصوري، زبدة الفكرة، ص51؛ المنصوري، التحفة، ص43-44.

(4) المنصوري، زبدة الفكرة، ص51.

الأحوال والخيول تجول في طلبهم كل مجال، فلم تمكنهم الهزيمة، فكانوا للسيوف غنيمة، وكانت عدتهم ألفين، فلم يبق لهم أثر ولا عين"[1].

يعلق بيبرس المنصوري في نهاية حديثه عن الموقعة على أنها تعد أولى الوقائع بين دولة المماليك البحرية والمغول الإيلخانيين، مبرزاً أنه بموجبها تمكنت دولة المماليك البحرية من بسط نفوذها على بلاد الشام[2].

تابع بيبرس المنصوري تطور العلاقات بين دولة المماليك البحرية ودولة المغول الإيلخانية بعد موقعة عين جالوت، فبيّن أنه ما أن تولى السلطان الظاهر السلطنة حتى قام بإحياء الخلافة العباسية وتبني إعادتها إلى بغداد إثر طلب الخليفة أبي العباس أحمد الملقب بالمستنصر بالله منه " وبك يرجى أن يرجع مقر الخلافة إلى ما كان عليه في الأيام الأُول"[3].

بدأ السلطان الظاهر باتخاذ الإجراءات المناسبة للقيام بحملة عسكرية لاستنقاذ العراق من المغول الإيلخانيين، حيث بيّن بيبرس المنصوري من خلال مادته التاريخية التي دونها عن ذلك أولاً كيفية حرص السلطان الظاهر على ألا يخرج الخليفة بالحملة إلا بعد استكمال الاستعدادات العسكرية والإدارية "وشرع السلطان في رده إلى الأوطان، واستخدم له أجناداً ونواباً وحاشية وكُتاباً، ورتب له دست الخلافة كاملاً بوضائعه وبيوتاته وحشمه وآلاته، وجهزه تجهيزاً يليق بمنصبه، واهتم به اهتماماً لم يسمع بمثله، فكان ما أنفقه على كلفته ألف ألف وستون ألف دينار مصرية"[4].

وما أن استكملت الاستعدادات الخاصة بالحملة في مصر، حتى توجه كل من الخليفة والسلطان في السادس من شوال من عام 659هـ/1260م على رأسها نحو

---

(1) المنصوري، زبدة الفكرة، ص51؛ المنصوري، التحفة، ص43 -44.

(2) المنصوري، زبدة الفكرة، ص51 -52؛ المنصوري، التحفة، ص44.

(3) المنصوري، زبدة الفكرة، ص63 -65.

(4)المنصوري، زبدة الفكرة، ص 65؛ المنصوري، التحفة، ص 47؛ المنصوري، مختار، ص17.

بلاد الشام[1]، وقد ذكر بيبرس المنصوري أن أبناء بدر الدين لؤلؤ كانوا برفقتهما في الحملة مبيناً السبب في اصطحابهم "واستصحب (السلطان) ولدي الملك الرحيم صحبته ليرسلهما إلى الموصل قصداً منه في تقرير ما تغير من القواعد، وإعادة الأحوال بدار السلام وممالك الإسلام على العوائد"[2].

بعد وصول الحملة لبلاد الشام، يركز بيبرس المنصوري أولاً على كيفية قيام السلطان الظاهر بإمداد الخليفة المستنصر بالله بقوات عسكرية ترافقه حتى حدود العراق، وثانياً الغاية من تلك السياسة "وجرد معهم الأمير سيف الدين بلبان الرشيدي والأمير شمس الدين سنقر الرومي وهما من أكابر الأمراء وأعيان ذوي الآراء، وجرد معهما طائفة من العساكر وأوصاهما أن لا يزالا مع الخليفة إلى أن يوصلاه إلى الفرات، فإذا عبر الفرات يقيمان ببره الغربي وبجهة البلاد الحلبية لانتظار ما يتجدد من جهة الخليفة حتى إذا احتاج إليهما أو أرسل من يستدعيهما يبادران إليه بمن معهما من العسكر ولا يدعان أحداً يتوقف عنه ولا يتأخر كل ذلك تشييداً لدعائم الإسلام ورغبة في حفظ نظام الإمامة والأمام"[3].

بعد ذلك تحرى بيبرس المنصوري متابعة التطورات التي استجدت إثر خروج الحملة من بلاد الشام للعراق، ويمكن ملاحظة ذلك فيما قدمه من معلومات في ثلاثة اتجاهات:

1. ما يتعلق بمصير الخليفة العباسي المستنصر بالله:

توجه الخليفة بعد وداع السلطان الظاهر له في دمشق بالحملة نحو العراق، حيث عبر الفرات، ولم ينتظر ريثما يستطلع أخبار المغول ظناً منه على حد قول بيبرس المنصوري"أنهم قد انتزحوا عن العراق، وفارقوا تلك الآفاق على عوائدهم المعهودة

---

(1) المنصوري، زبدة الفكرة، ص 66-67؛ المنصوري، التحفة، ص 47؛ المنصوري، مختار، ص18-19.

(2) المنصوري، زبدة الفكرة ، ص66-67؛ المنصوري، التحفة ، ص47؛ المنصوري، مختار ، ص18-19.

(3) المنصوري، زبدة الفكرة، ص 66-67؛ المنصوري، التحفة، ص 47-48؛ المنصوري، مختار، ص18-19.

منهم وقواعدهم المألوفة عنهم أنهم يخربون ويذهبون، ولم يدر أنهم في البلاد ساكنون وبها كامنون"[1].

ويعلق بيبرس المنصوري أثناء حديثه عن السبب المباشر لهزيمة الخليفة أنه كان يجب عليه التريث قبل التقدم داخل الأراضي المغولية "وكان الصواب أن يتأنى في مسيره ويتوانى"[2]. وهذا الرأي انفرد فيه بيبرس المنصوري عن غيره من المؤرخين الآخرين.

ولم يتوان بيبرس المنصوري عن إيراد معلومات تتعلق بكيفية رد المغول على حملة الخليفة ومصيره، فقد ذكر أنه ما أن تعمق الخليفة في العراق حتى علم المغول بقدومه "فجردوا إليه عسكراً صحبة هولاجو وأورداي، فأدركوه، وقد بلغ عانا، فحاربوه حرباً عوانا، فصابرهم جهده، وثبت لصدمتهم وكده ثم تكاثروا عليه، وتبادروا إليه، فلم يكن له قبل بكثرتهم، ولا طاقة بمنعهم لمنعتهم، فأخذته السيوف، وأدركته الحتوف، فمات شهيداً وتولى حميداً وقتل أكثر من كان معه، وتفرق العديد بديداً"[3].

2. ما يتعلق بمصير السلطان الظاهر، وموقفه من مقتل الخليفة:

ذكر بيبرس المنصوري أن السلطان الظاهر بعد مغادرة الحملة كان قد بقي في بلاد الشام[4]، وقد أغفل الهدف من ذلك، وعدم مشاركته في الحملة على العراق مع الخليفة. أما موقف السلطان الظاهر من مقتل الخليفة، فقد ذكر بيبرس المنصوري أن السلطان الظاهر ساءه ذلك، وتأسف غاية الأسف لو انه أجدى[5].

---

(1) المنصوري، زبدة الفكرة، ص68؛ المنصوري، التحفة، ص48.

(2) المنصوري، التحفة، ص48.

(3) المنصوري، زبدة الفكرة، ص 68؛ المنصوري، التحفة، ص 48؛ المنصوري، مختار، ص19.

(4) المنصوري، زبدة الفكرة، ص 66-68؛ المنصوري، التحفة، ص 47-48؛ المنصوري، مختار، ص18-19.

(5) المنصوري، زبدة الفكرة، ص68؛ المنصوري، التحفة، ص48.

3. ما يتعلق بمصير أبناء بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل:

أما أبناء بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل، فقد بيّن بيبرس المنصوري أنهم عادوا للموصل بعد انفصالهم عن حملة الخليفة أثناء الطريق [1]، ليواجهوا بعد ذلك حصاراً من قبل المغول استمر مدة تسعة أشهر وانتهى بمقتل الملك الصالح بن الرحيم ودخولها الموصل[2]، وأما أخواه المجاهد والمظفر، فقد رجعا إلى الشام[3].

يسلط بيبرس المنصوري بعد انتهائه من الحديث عن السياسة المملوكية في استنقاذ العراق الضوء على كيفية تعامل دولة المماليك البحرية مع الاعتداءات التي بدأ يقوم بها المغول على بلاد الشام إثر فشل المماليك في استنقاذ العراق، وقد بلغت حسب ما دونه بيبرس المنصوري في الفترة الممتدة بين سنتي (660-681هـ/1261-1282م) عشرة اعتداءات، فيما يلي بيانها وكيفية تعامل دولة المماليك البحرية معها:

1. اعتداء المغول على البيرة عام663هـ/1264م:

يلحظ أن بيبرس المنصوري قد فصل في معلوماته عن هذا الاعتداء، فقد أورد كيف أن المغول قاموا بقيادة درباي بشن هجمة على البيرة عام 663هـ/1264م وحصارها، لينتقل بعدها لإبراز كيفية تعامل دولة المماليك البحرية مع هذا الاعتداء، فقد ذكر أن السلطان الظاهر ما أن علم بهجوم المغول حتى "جرد الأمير عز الدين يوغان الملقب بسم الموت بمقدمة العساكر، ومن جرد معه من الجند المتوجهين جرائد، فتوجهوا في رابع ربيع الأول "[4]. ويبدو أن السلطان الظاهر كان يهدف من تلك الحملة التي بعثها التمويه على المغول حتى يخرج بنفسه لمواجهتهم، ودليل ذلك يتضح من خلال الاستعدادات العسكرية التي بدأ يـ عدها إثر خروج الحملة المشار

---

(1) المنصوري، زبدة الفكرة، ص 66-68؛ المنصوري، التحفة، ص 47-48؛ المنصوري، مختار، ص18.

(2) المنصوري، زبدة الفكرة، ص 68؛ المنصوري، التحفة ، ص48-49 المنصوري، مختار ، ص19.

(3) المنصوري، مختار، ص19.

(4) المنصوري، زبدة الفكرة، ص95.

إليها كما يذكر بيبرس المنصوري و "شرع السلطان في التجهيز، وإحضار الخيول من الربيع وطرد الجند المتفرقين بالديار المصرية، ورحل في سابع ربيع الآخر، فوصل غزة في العشرين منه"[1].

ومع ذلك لم يتابع السلطان الظاهر وجهته للالتحاق بالحملة التي أرسلها تجاه المغول في البيرة، والسبب في ذلك كما يقول بيبرس المنصوري هو أنه "وردت إليه مطالعة الأمير جمال الدين النجيبي نائب السلطنة بالشام معطوفةً على بطاقة قد وصلت إليه من الملك المنصور صاحب حماة، وكان قد توجه صحبة الأمير عزالدين يوغان والأمراء المجردين إلى البيرة مضمونها أنهم لما وصلوا إليها وشاهدهم التتار النازلون عليها انهزموا، وكان درباي المذكور قد نصب على البيرة سبعة عشر منجنيقاً، فلما ولّوا هاربين عدّى العسكر الفرات، ونهبوا المجانيق وسائر الآلات، فلما وردت الأخبار بهزيمة التتار استبشر السلطان، وثنى العنان قاصداً بلاد الفرنج"[2].

2. اعتداء المغول على مدينة الرحبة وحلب عام 665هـ/1266م:

لم يفصل بيبرس المنصوري في معلوماته عن هذا الاعتداء، فقد ذكر أن المغول في العام المشار إليه قاموا بشن هجمة على الرحبة وحلب، فلما بلغ السلطان الظاهر ذلك -وكان يومئذ في صفد- أسرع باتجاه دمشق لإعداد العدة لمواجهتهم، ولكن ورود الأخبار بتراجع المغول عنها، جعله يعود إلى صفد لإكمال عمارة قلعتها[3].

ومع أن العلاقات بين دولة المماليك البحرية ودولة المغول الإيلخانية كانت سيئة كما يتضح مما تقدم، إلا أن بيبرس المنصوري لم ينس أيراد معلومات قيمة عن محاولة الدولتين لتحسين العلاقة بينهما،فقد ذكر أنه لم يمض على اعتداء المغول على الرحبة عامين -أي عام 667هـ/1268م- حتى قام إيلخان المغول أبغا بإرسال رسول بمعية التكفور صاحب سيس وكان قد سعى من قبل في الصلح بين

(1) المنصوري، زبدة الفكرة، ص95.

(2) المنصوري، زبدة الفكرة، ص95.

(3) المنصوري، زبدة الفكرة، ص107؛ المنصوري، مختار، ص35.

السلطان وبيت هولاكو - إلى السلطانالظاهر الذي استقبله وأكرمه -أي رسول أبغا - وتسلم منه الكتاب الذي بعثه معه أبغا، وكان يتضمن معاني الصلح[1].

أعاد السلطان الظاهر مع الرسول الواصل إليه من أبغا رده على الكتاب الذي بعثه، وكان يتضمن في فحواه أيضاً معاني الصلح[2].

3. اعتداء المغول على الساجور قرب حلب عام 668هـ/1269م:

بالرغم من محاولة الدولتين لتحسين العلاقات بينهما، ألا أن ذلك لم يجدِ، فقد قام المغول حسب قول بيبرس المنصوري بالتحالف مع الفرنج الساحلية، والاعتداء على الساجور قرب حلب عام 668هـ/1269م"واستاقوا مواشي العربان "[3]. أما ردة فعل دولة المماليك البحرية على ذلك، فقد ذكر بيبرس المنصوري بشيء من الاقتضاب أن السلطان الظاهر "توجه جريدةً في ليلة الاثنين الحادي والعشرين من ربيع الأول...إلى غزة، ومنها إلى دمشق، فانهزم التتار ومقدمهم صمغار"[4].

4. اعتداء المغول على عين تاب وعمق حارم عام 670هـ/1271م:

تابع بيبرس المنصوري تطور الاعتداءات الإيلخانية على بلاد الشام، حيث ذكر أنه ما أن انتهى هجوم المغول على الرحبة وحلب حتى اتبعوه بعد عامين بهجوم آخر بقيادة صمغار على عين تاب وحارم، وقد بيّن بيبرس المنصوري موقف العامة في بلاد الشام، وبخاصة أهالي دمشق من هذا الهجوم عندما تأخرت النجدة عنهم "أما التتار فإنهم بعد هجومهم على عين تاب - أغاروا على حارم والمروج، وقتلوا جماعة، فتأخر نائب حلب والعسكر إلى حماة، وجفل أهل دمشق"[5]. أما

---

(1) انظر نص الكتاب: المنصوري، زبدة الفكرة، ص117 -118؛ المنصوري، التحفة، ص65؛ المنصوري، مختار، ص38.

(2) انظر نص جواب السلطان المنصوري، زبدة الفكرة، ص 118؛ المنصوري، التحفة، ص65؛ المنصوري، مختار، ص38.

(3) المنصوري، زبدة الفكرة، ص123 -124؛ المنصوري، مختار، ص43.

(4) المنصوري، زبدة الفكرة، ص123 -124؛ المنصوري، مختار، ص43.

(5)المنصوري، زبدة الفكرة، ص 133 -134؛ المنصوري، التحفة، ص 73؛ المنصوري، مختار، ص47 -48.

موقف دولة المماليك البحرية من هذا الهجوم، فقد ذكر بيبرس المنصوري أن السلطان الظاهر ماأن علم بهجومهم حتى "كتب إلى الديار المصرية يستدعي الأمير بدر الدين بيسرى الشمسي وثلاثة آلاف فارس من العسكر، فوصل البريدي إلى الأمير بدر الدين الثالثة من ليلة الأربعاء الحادي والعشرين من ربيع الأول، فتجهز، وخرج بكرة الأربعاء هو والعسكر المطلوب، وسافروا جميعاً، فوصلوا دمشق في رابع ربيع الآخر"[(1)].

بعد وصول القوات للسلطان الظاهر بدمشق، سار بهم إلى حلب، ومن هناك يذكر بيبرس المنصوري أنه جرد إلى كل جهة حملة صحبة أمير من أمرائه، وقد كان بيبرس المنصوري أكثر تركيزاًعلى الحملة التي جردها السلطان بقيادة الحاج طيبرسلوازيري وعيسى بن مهنا إلى مرعش وحران، حيث قال "فقتلا من وجداه بها من التتار، وانكفوا بحركة السلطان"[(2)]. فضلاًعن تركيزه على الحملة التي تم تجريدها تجاه قاقون للقضاء على الفرنج " وكان الفرنج قد تحركوا بالساحل، وأغاروا على قاقون، وقتلوا الأمير حسام الدين استاذار، وبعض من كان معه، فلما لحقتهم العساكر تفرقوا وعادوا "[(3)]. وقد ذكر بيبرس المنصوري أن اعتداء الفرنج على قاقون كان باتفاق مع المغول للهجوم على عين تاب وحارم[(4)].

في أعقاب هذا الاعتداء وصلت للسلطان الظاهر سفارتان من عند المغول الأولى أوجز بيبرس المنصوري في معلوماتها، فذكر كيف أنه حضرت رسل الأمير معين الدين سليمان البرواناة النائب بالروم ورسل صمغار مقدم المغول المقيم في بلاد الروم إلى السلطان الظاهر عام 670هـ/1271م متجاهلاً ذكر السبب من قدومهم، مع أبرازه كيفية رد الأخير على تلك السفارة"... فجهز الأمير فخر الدين أياز

---

(1)المنصوري، زبدة الفكرة، ص 133- 134؛ المنصوري، التحفة، ص 73؛ المنصوري، مختار، ص47- 48.

(2)المنصوري، زبدة الفكرة، ص 133- 134؛ المنصوري، التحفة، ص 73؛ المنصوري، مختار، ص47- 48.

(3) المنصوري، زبدة الفكرة، ص134؛ المنصوري، مختار، ص48.

(4) المنصوري، مختار، ص48.

المقري والمبارز الطوري أمير طبر صحبة رسلهما بهدية إليهما وإلى أبغا، فدخلا قيسارية، واجتمعا بصمغار والبرواناة، وأوصلا إليهما الهدية، وأبلغهما جواب الرسالة، وتوجها إلى الأردو واجتمعا بأبغا، وأوصلا إليه هديته، وهي؛ جوشن ريش قنفذ وخوذه كذلك وسيف وقوس وتركاش وتسع فردات"[1].

أما السفارة الثانية، فقد كانت في عام 671هـ/1272م، ويذكر بيبرس المنصوري أن هذه السفارة الواصلة من عند أبغا لم تحقق مبتغاها، وهو الصلح مع السلطان الظاهر، لأن ابغا اشترط على السلطان الظاهر أن يحضر بنفسه إليه لتقرير الصلح الأمر الذي اغضب السلطان الظاهر "وأعاد الرسل إلى مرسلهم"[2].

5. اعتداء المغول على البيرة للمرة الثانية عام 671هـ/1272م:

بعد فشل مداولات الصلح بين السلطان الظاهر والايلخان المغولي أبغا، قام المغول بقيادة دربيه بشن هجوم على البيرة عام 671هـ/1272م، وقد بيّن بيبرس المنصوري أنه أثناء المحاصرة للبيرة قام دربيه بتجريد طائفة من جيشه بقيادة جنغر تجاه الفرات وتحديداً إلى مخاضة القاضي، وقد أبرز بيبرس المنصوري أن السبب في ذلك هو إقامة حاجز من الخشب لمنع القوات الإسلامية من الوصول إليهم[3].

أما موقف السلطان الظاهر ودولته من هذا الهجوم، فيذكر بيبرس المنصوري أن السلطان ما أن سمع بهم حتى تحرك بقواته المصرية والشامية تجاه المخاضة المذكورة"وأشرف على التتار من أعلى الجبل وهم عليهم نازلون وبها محيطون عند ذلك استشار أمرائه بكيفية اقتحامها، فتقدم إليه الأمير المخدوم قلاوون كما يورد بيبرس المنصوري، وقال: "هؤلاء أهون علينا من أن نستشير في أمرهم أو أن نتوقف دونهم، وأنا أعبر إليهم وأهجم عليهم، وأنما احتاج دليلاً يعرفني المخاضة"[4].

---

(1) المنصوري، زبدة الفكرة، ص 134؛ المنصوري، التحفة، ص 74؛ المنصوري، مختار، ص48.

(2) المنصوري، زبدة الفكرة، ص136؛ المنصوري، التحفة، ص75.

(3) المنصوري، زبدة الفكرة، ص 137؛ المنصوري، التحفة، ص 75؛ المنصوري، مختار، ص49.

(4) المنصوري، زبدة الفكرة، ص137؛ المنصوري، التحفة، ص75- 76.

يركز بيبرس المنصوري إثر موقف الأمير قلاوون على دوره في موقعة الفرات مع المغول، حيث يـ بيّن الأمير قلاوون تقدم بقواته فاقتحم الفرات بالسفن ، واشتبك مع المغول الذين انهزموا أمامه، وقتل قائدهم جنغـر "فـأدركهم عنـد المخاضـة المخاض الذي لم يجدوا منه إلى الخلاص سبيلاً، وغودروا إما أسير اً وإما جريحـاً وإما قتيلاً"[1].

بعد هزيمة جنغر قائد المغول، اقتحم السلطان الظاهر الفرات، واجتمـع مع قوات الأمير قلاوون الأمر الذي دفع دربيه القائد العام لجيوش المغـول بـالتراجع عـن حصار البيرة تاركاً وراءه كما يقول بيبرس المنصوري "آلاته التي أعدها للحصار، فنزل أهل البيرة وأخذوها واقتسموها وغنموها"[2].

عاد السلطان الظاهر بعد الانتصار بالموقعة إلى دمشق، ومنهـا إلـى الـديار المصرية، وقد قدم بيبرس المنصوري وصفاً للمراسيم الاحتفالية بالنصر في موقعة الفرات على المغول "فجلس (السلطان) لشرب القمز مجلساً خاصاً، وحضره الأعيان والأمراء وأكابر الندماء، ولما فاضوا في المفاكهة، وأفضوا إلى المذاكرة ، تـذاكروا حديث التتار الـ واصلين إلى البيرة، وكيف بادر السلطان إليهم، واستظهرت العساكر عليهم، وكيف كان قطع الجيوش بحر الفرات من غير توقف ولا التيات "[3]. كما قدم بيبرس المنصوري معلومات عن كيفية إشادة الأمراء في المجلـس بـدور الأميـر قلاوون في موقعة الفرات وتصديق السلطان على ذلك، والإنعـام على الأمراء عامة وعليه خاصة "بثلاثة آلاف دينار وفرس من خيار الخيل بسرج ذهـب، وتشـريف كامل مزركش الكلوته والطرز، وجوشن عليه من السقط الذهب ألف دينار، وخوذة وسيف محلى بالذهب"[4].

---

(1)المنصوري، زبدة الفكرة، ص 137؛ المنصوري، التحفة، ص75 -76؛ المنصوري، مختـار، ص49.

(2)المنصوري، زبدة الفكرة، ص 137؛ المنصوري، التحفة، ص75 -76؛ المنصوري، مختـار، ص49.

(3) المنصوري، التحفة، ص76.

(4) المصدر نفسه، ص76 -77.

6. اعتداء المغول على بلاد الشام عام 672هـ/1273م:

قام المغول بقيادة الايلخان ا بغا في عام 672هـ/1273م بشن هجوم تجاه بلاد الشام كرد على الهزيمة التي لحقت بقواته في موقعة الفرات في العام الماضي، حيث يوضح بيبرس المنصوري أن السلطان الظاهر ما أن علم بتحركهم حتى عمل على اتخاذ الاستعدادات المناسبة لمواجهتهم، فقد كتب للأمير بدرالدين الخزندار باستدعاء القوات المصرية[1]، فضلاً عن إصداره أمراً "بأن جميع من في مملكته ممّن له فرس يركب للغزاة، وأن يخرج أهل كل قرية بالشام من بينهم خيالة على قدر حال أهل القرية، ويقومون بكلفتهم"[2].

كما قام السلطان الظاهر بتجريد حملة عسكرية بقيادة الأمير عيسى بن مهنا تجاه الدولة الايلخانية كرد على اعتداءهم، حيث يذكر بيبرس المنصوري أنها وصلت الأنبار الأمر الذي دفع ابغا للتراجع عن بلاد الشام خشية من مباغتة السلطان له[3].

7. اعتداء المغول على البيرة المرة الثالثة عام 674هـ/1275م:

لم تنته هجمات المغول على الدولة المملوكية، فقد أشار بيبرس المنصوري إلى أنهم قاموا بشن هجوم على البيرة مرة أخرى بقيادة ابطاي الذي حاصرها، فلما بلغ السلطان الظاهر ذلك، قام بتجهيز قواته، وخرج بها من دمشق لصدهم، فلما وصل إلى القطيفة"بلغه أن التتار سمعوا بحركته، فوهنوا، ورجعوا عن البيرة"[4].

ويرجع بيبرس المنصوري السبب في تراجع المغول عن البيرة إلى "أن (الأمير معين الدين سليمان) البرواناة كان قد مال إلى جانب الملك الظاهر،وكاتبه يعرفه بأنه على طاعته ومناصرته، ويحسن له التقدم إلى الروم، فصدر الجواب السلطان إليه

---

(1)المنصوري، زبدة الفكرة، ص 140؛ المنصوري، التحفة، ص 78؛ المنصوري، مختار، ص51.

(2)المنصوري، زبدة الفكرة، ص 140؛ المنصوري، التحفة، ص 78؛ المنصوري، مختار، ص51.

(3) المنصوري، مختار، ص52.

(4) المنصوري، زبدة الفكرة، ص146؛ المنصوري، التحفة، ص 82؛ المنصوري، مختار، ص55.

معتذراً بقلة المياه في هذه السنة، ويعد التوجه في العام المقبل ، وبلغ ذلك ابطاي، فجرد أميراً يسمى الكساي بهادر في أربعمائة فارس، ليحفظوا الطرقات على قصاد البرواناة، ويحضرهم إليه، فأحضروهم إليه بعد الإمساك عليهم، فوقف على الكتب، فوجد من مضمونها أنكم تطمعون التتار حتى يحضر بالعساكر، فتكونوا من ورأيهم، ونحن أمامهم، فرحل عنه، وأرسل الكتب والقصّاد إلى ابغا"[1].

8 اعتداء المغول على كوكوصو (النهر الأزرق) وكسرتهم في موقعة الأبلستين عام 675هـ/1276م:

كما ذكر بيبرس المنصوري أنه ما أن دخلت سنة 675هـ/1276م حتى هاجم المغول بقيادة توقو وتداون منطقة كوكوصو (لنهر الأزرق)، الأمر الذي دفع السلطان الظاهر للتحرك بقواته من مصر إلى الشام، ومنها إلى كوكصو التي تركها المغول لعلمهم بوصول السلطان الذي جهز الجاليش ومقدمة صحبة الأمير شمس الدين سنقر الأشقر الذي وقع على ألف فارس من المغول مقدمهم كراي "فانهزموا بين أيديهم، و تيقنوا أن الدايرة [الدائرة] عليهم"[2].

تابع بيبرس المنصوري تطورات الأحداث بين السلطان الظاهر والمغول، فذكر أن المغول لما خرجوا من كوكصو توجهوا إلى الابلستين وكان تعدادهم 12 طلباً، فتبعهم السلطان الظاهر بقواته وتم الالتقاء بينهم في المنطقة المذكورة (الابلستين)[3]، وقد أبرز بيبرس المنصوري أن أهم النتائج التي ترتبت على هذه الموقعة هي:

أ. هزيمة المغول، وقتل قادتهم لا سيما توقو وتداون[4].

ب. فرار الأمير معين الدين سليمان البرواناة وجيشه الرومي من المعركة "وأما البرواناة فانه كان مع جماعته وعسكر الروم في طلب واحد مفرد عن أطلاب التتار، فبادر بالهزيمة، وولى هو وأصحابه الأدبار، وأخذ السلطان

(1) المنصوري، زبدة الفكرة، ص146؛ المنصوري، التحفة، ص82.
(2) المنصوري، زبدة الفكرة، ص153؛ المنصوري، مختار، ص57-58.
(3) المنصوري، زبدة الفكرة، ص 154؛ المنصوري، التحفة، ص 84؛ المنصوري، مختار، ص57-58.
(4) المنصوري، زبدة الفكرة، ص154؛ المنصوري، التحفة، ص84.

غياث الدين معه، وفخر الدين الوزير، ومن كان بقيسارية، وتوجه بهم إلى توقات"[1].

ويعلق بيبرس المنصوري على مخالفة البرواناة وعوده للسلطان الأنفة الذكر قائلاً:"فأخذ يجر ذيول الهزائم، وأخذته لـ ومة كل لائم، لأنه لم يتلق السلطان كما كان يعده"[2].

ج. أسر أعداد كبيرة من المغول والروم، وقد أورد بيبرس المنصوري أسماء الكثير منهم في مؤلفاته[3].

د. فتح السلطان الظاهر عاصمة الممالك الرومية قيسارية بعد هرب البرواناة[4].

9. اعتداء المغول على عينتاب وبغراس والدربساك وحلب عام 679هـ/1280م:

قام المغول بعد اعتلاء الملك المنصور قلاوون السلطنة بشن هجوم على بلاد الشام عام 679هـ/1280م، وقد بيّن بيبرس المنصوري المدن الشامية التي اجتاحها المغول وسياستهم فيها خ اصة حلب وكيفية موقف أهلها منهم:"كان التتار قد وصلوا إلى عينتاب وبغراس والدربساك، وتقدموا إلى حلب فوجدوها خالية من العسكر، وقد أجفل أهلها منها، وأحرقوا الجوامع والمساجد والدور والمنازل، وعاثوا وأفسدوا"[5].

لم يكتب للمغول الاستمرار في توغلهم في بلاد الشام كما يذكر بيبرس المنصوري نظراً لخروج السلطان المنصور قلاوون إليهم، وتراجعهم لبلادهم[6].

10. اعتداء المغول على بلاد الشام عام 680هـ/1281م، وكسرتهم في موقعة حمص:

عاود المغول الاعتداء على بلاد الشام عام 680هـ/1281م، وقد أعطى بيبرس المنصوري صورة مفصلة لهذا الاعتداء، وكيفية تعامل الدولة المملوكية معه، فقد

---

(1) المنصوري، زبدة الفكرة، ص154؛ المنصوري، مختار، ص58- 59.
(2) المنصوري، التحفة، ص84.
(3) المنصوري، زبدة الفكرة، ص155؛ المنصوري، مختار، ص58- 59.
(4) المنصوري، زبدة الفكرة، ص155- 156؛ المنصوري، مختار، ص59- 61.
(5) المنصوري، زبدة الفكرة، ص189؛ المنصوري، التحفة، ص94- 95.
(6) المنصوري، زبدة الفكرة، ص189؛ المنصوري، التحفة، ص94- 95.

بيّن بيبرس المنصوري أولاً الباعث الرئيسي لقدوم المغول لبلاد الشام وهو مكاتبة الأمير شمس الدين سنقر الأشقر -الذي تمرد على السلطان المنصور قلاوون وسيأتي الحديث عن ذلك في السياسة الداخلية للدولة المملوكية- لايلخانهم أبغا[1].

كما بيّن كيفية تقدم القوات المغولية بقيادة منكوتمر تجاه حماة، وكيفية دخولها وإجبار نائبها على مكاتبة السلطان المنصور قلاوون لتعريفه بقوة المغول "وعرفه أن القوم ثمانون ألف مقاتل تحت القلب منها أربعة وأربعون ألفاً مغلاً"[2].

ثم أن بيبرس المنصوري ينتقل ليورد تفصيلاً للاستعدادات التي اتخذها السلطان المنصور قلاوون إثر وصول كتاب نائب حماة له لا سيما تقسيمات قواته وأسماء الأمراء الذين تم ترتيبهم فيها (الميمنة، القلب، الميسرة)[3].

أما مكان الالتقاء بين الطرفين، فقد ذكر بيبرس المنصوري انه كان في حمص يوم الخميس 14 رجب 680هـ/1281م وقد أبرز مجريات الموقعة بشيء من الإسهاب لأنه كان أحد المشاركين فيها، إضافة لإبرازه أن هذه الموقعة انتهت بهزيمة المغول، وقتل أكثرهم، وهروب الأغلبية.

توفي الإيلخان أبغا عام 681هـ/1282م، وخلفه في رئاسة الدولة المغولية الإيلخانية أخيه تكدار بن هولاكو الملقب بأحمد سلطان[4]، وقد وضح بيبرس المنصوري أنه بدأت في عهده (681-682هـ/1282-1283م) العلاقات مع المماليك تأخذ شكلاً آخر تقوم على الود والصداقة، فقد قام بإرسال سفارة منذ توليه عرش المغول مشكله من قطب الدين محمود الشيرازي قاضي سيواس والأمير بهاءالدين أتابك السلطان مسعود صاحب الروم والأمير شمس الدين محمد بن الصاحب إلى السلطان المنصور قلاوون الذي علم بوصولهم إلى البيرة "فكتب إلى

(1) المنصوري، زبدةالفكرة، ص184؛ المنصوري، مختار، ص71.

(2) المنصوري، زبدةالفكرة، ص196.

(3) المنصوري، زبدةالفكرة، ص196-197؛ المنصوري، التحفة، ص 99-100؛ المنصوري، مختار، ص73.

(4) المنصوري، زبدة الفكرة، ص218؛ المنصوري، التحفة، ص107.

النواب بالاحتراز عليهم، بحيث لا يراهم أحد ولا يجتمع بهم، فساروا بهم في الليل، وأحضروا إلى الباب الشريف، فأحضروا من أيديهم كتاباً من جهة أحمد سلطان"[1].

أما الكتاب الذي احتفظ بيبرس المنصوري بنسخه منه فيتضمن في فحواه إخبار السلطان المنصور قلاوون بدخوله الإسلام هو وجماعته من المغول، ورغبته في حماية الإسلام والذود عنه والعمل على إعلاء شأنه، كما اظهر فيه رغبته في أن يعيش في سلام ومودة مع جيرانه المسلمين[2].

جاء الرد على كتاب أحمد سلطان في العام ذاته 681هـ/1282م، فقد بعث السلطان المنصور قلاوون سفارة لأحمد سلطان تحمل كتاباً احتفظ بيبرس المنصوري بنسخه منه، وقد تضمن هذا الكتاب الترحيب بدخوله الإسلام، وبزوال الأحقاد التي كانت بين الدولتين[3].

كما يذكر بيبرس المنصوري أن هذه السفارات تجددت مره أخرى عام 682هـ/1283م بين الدولتين، فقد وصلت سفارة يترأسها الشيخ كمال الدين عبد الرحمن النجار وصمداغو من عند الايلخان أحمد سلطان تحمل كتاباً أخر للسلطان المنصور قلاوون، وقد وضح بيبرس المنصوري أنه تم إنزال المذكوران في قلعة دمشق[4] حتى قدم السلطان المنصور قلاوون الشام، حيث علم قبل الالتقاء بالمذكورين بأن ايلخانهم أحمد سلطان قد قتل وحل مكانه أرغون، وأن فرقة من المغول تقدر بأربعة آلاف فارس أغارة على بلاد الشام دون علم المذكورين[5].

---

(1) المنصوري، زبدة الفكرة، ص219؛ المنصوري، التحفة، ص107.

(2)انظر نص الكتاب المنصوري، زبدة الفكرة، ص 219-222؛ المنصوري، مختار، ص 74-78.

(3) انظر نص الكتاب: المنصوري، زبدة الفكرة، ص222-227؛ المنصوري، مختار، ص78-84.

(4) المنصوري، زبدة الفكرة، ص233؛ المنصوري، التحفة، ص109.

(5) المنصوري، زبدة الفكرة ، ص240-241؛ المنصوري، التحفة، ص109.

وبالرغم من تلك الظروف، فقد قام السلطان المنصور قلاوون باستقبالهما، وأخذ منهما الكتاب الذي كان قد أرسله معهما أحمد سلطان قبل قتله[1]. أما الكتاب الذي احتفظ بيبرس المنصوري بنسخه منه، فقد تضمن في فحواه التأكيد على تصفية النزاع بين الدولتين، وتقرير الصلح و"الآن آن أن نستبدل وحشة النزاع بأنس الصلح"[2].

ومن الجدير بالذكر أن بيبرس المنصوري أثناء حديثه عن السفارة، يبرز دور الشيخ كمال الدين عبدالرحمن في تشجيع أحمد سلطان على دخول الإسلام وهدفه منه "وهو الذي أشار عليه بالإسلام على جهة المكر والخداع حتى يطمئن من هذه الجهة، ويتفرغ لقتال قومه وأقاربه وولد أخيه"[3]؛ ناهيك عن أبرازه كيفية تحكمه في الأوقاف بالعجم والعراق والروم وأموالها[4]، ويتابع بيبرس المنصوري في تشكيكه في هذا الشيخ، ذاكراً أن هدفه من القدوم لمصر هو التمكن من التحم في أمور الدولة المملوكية كما فعل في الدولة الايلخانية، ثم يعقب أن ذلك لم يتم له لأنه "لما خرج من الاردو استصحب جماعة من أكابر المغل وهم صمداغو وجماعته وكتّاب وفقهاء وفقراء، وكان الشيخ المذكور يحمل على رأسه جتر في الطريق وخلفه سلحدارية وحواشي وأرباب أشغال وغلمان، وأخباره كانت تتصل بالسلطان منزلة بمنزلة، فلما وصل إلى البيرة تلقاه الأمير جمال الدين أقش الفارسي أحد أمراء حلب، ومنعه من حمل الجتر والسلاح وتنكب به، وبمن معه عن الطريق المسلوكه، وساق بهم في الليل، وقرر مع المجردين صحبته أن أحداً لا يكلمهم ولا يملأ عينه منهم، ولما وصل بهم إلى حلب أخفى أمرهم، وأخرجوا منها في الليل، وسير بهم في غير الجادة على العادة، ولما وصلوا دمشق أدخل في الليل، وانزلوا في القلعة"[5].

---

(1) المنصوري، زبدة الفكرة، ص240-241.

(2) المصدر نفسه، ص242-243.

(3) المصدر نفسه، ص240.

(4) المصدر نفسه، ص240.

(5) المصدر نفسه، ص240-241.

وإذا كان بيبرس المنصوري قد بيّن أن العلاقات بين المماليك والمغول قبيل مقتل أحمد سلطان كانت قائمة على أساس الصداقة، فإنه يوضح أنها لم تكن كذلك في عهد أرغون بن أبغا، فقد ذكر أن السلطان المنصور قلاوون قام بفتح قلعة قطينا من قلاع آمد التابعة للمغول عام 682هـ/1283م، مبرزاً أن السبب في ذلك "وكانت كثيرة المضرة على كركر، ولما تحقق السلطان مضرتها بهذه الثغور فكر في مضايقتها وإضعافها"[1]. أما كيفية فتحها، فقد بيّن بيبرس المنصوري أن السلطان الناصر لما علم بخلوها من الغلة جرد إليها حملة من كركر تمكنت من مضايقتها ومحاصرتها، وفتحها بعد طلب أهلها الأمان "وأحضر إليها جماعة من الرجال من البيرة وعينتاب والراوندان، وجهز لها كل ما تحتاجه من الغلة والعدة والسلاح والأقوات"[2].

يعطي بيبرس المنصوري أثر حديثه عن كيفية فتح قطينا صوره مفصله لتخطيطها[3].

أما الفترة الممتدة بين سنتي (683-694هـ/1284-1294م) فليس ثمة معلومات يذكرها بيبرس المنصوري عن العلاقات بين المماليك والمغول، ويبدو أن ذلك يعود لانشغال كلا الدولتين بأمورها الداخلية.

تابع بيبرس المنصوري تطور العلاقات بين دولة المماليك البحرية ودولة المغول الإيلخانية بين سنتي (698-702هـ/1298-1302م)، وقد كان هذا الموضوع في هذه الفترة من أبرز المواضيع التي ركز عليها بيبرس المنصوري وأسهب فيها لأنه يدوّن معلوماته عنه اعتماداً على:

مطالعه عنه نظراً لمركزه في الدولة المملوكية كنائب للسلطان في قلعة الجبل في مصر الأمر الذي أتاح له الفرصة أن يكون شاهد عيان على أحداث لم يتمكن غيره من المؤرخين تدوينها.

(1) المنصوري، زبدة الفكرة، ص244؛ المنصوري، التحفة، ص109.
(2) المنصوري، زبدة الفكرة، ص244؛ المنصوري، التحفة، ص109.
(3) المنصوري، زبدة الفكرة، ص244-245.

ب. ما شاهده بيبرس المنصوري بأم عينية أو شارك به بنفسه، ويظهر ذلك من خلال الأدوار السياسية التي منحها إياه السلطان الناصر محمد كجزء من سياسته تجاه المغول الإيلخانيين، وهذا ما سيتضح تالياً.

وقد تحرى بيبرس المنصوري في تأريخه لهذا الموضوع بيان الواقع السياسي لبلاد الشام خلال هذه الفترة، وقد سلك في ذلك ثلاثة اتجاهات هي:

1. ما يخص الاجتياح المغولي الإيلخاني الأول لبلاد الشام في عهد محمود غازان عام (698-699هـ/1298-1299م)، وكيفية رد الدولة المملوكية عليه.

مع اعتلاء الملك الناصر عرش السلطنة في مصر للمرة الثانية عام 698هـ/1298م قام المغول الايلخانيين بالإغارة برئاسة ايلخانهم محمود غازان على بلاد الشام، وقد بيّن بيبرس المنصوري أن السلطان الناصر خرج كرد عليهم بحملة عسكرية من مصر[1]، بعد أن جعله نائباً له بالقلعة[2].

وصل السلطان الناصر دمشق، ومن هناك تحرك تجاه حمص، حيث يبيّن بيبرس المنصوري أن اللقاء كان بين الطرفين في مكان يطلق عليه وادي الخزندار (مجمع المروج) عام 699هـ/1299م[3]، وقد كان أبرز ما ركز عليه في هذه الوقعة بالرغم من ميوله وتشيعه لبيت المنصور قلاوون هو إظهاره للحقيقة التي ذكرها غيره من المؤرخين من أن السلطان الناصر قد هزم في هذه الوقعة على يد الايلخان محمود غازان[4]. ومن المستغرب أن بيبرس المنصوري يرجع سبب هذه الهزيمة إلى نحس يوم الأربعاء الذي جرت فيه الوقعة"وهذا اليوم ذكر المفسرون في تأويل قوله تعالى: ﴿فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ﴾[5] أنه يوم الأربعاء، فإنه كان يتوقع منه

(1) المنصوري، زبدة الفكرة، ص328-329.
(2) المنصوري، زبدة الفكرة، ص329.
(3) المنصوري، زبدة الفكرة، ص 331؛ المنصوري، التحفة، ص 156-157؛ المنصوري، مختار، ص111.
(4) المنصوري، زبدة الفكرة، ص 331؛ المنصوري، التحفة، ص 156-157؛ المنصوري، مختار، ص111.
(5) سورة القمر، الآية19.

الشر ولا سيما إذا اتفق أواخر الشهر "[1]. كذلك ركز بيبرس المنصوري في هذه الوقعة على إيراد أسماء الذين استشهدوا من أبناء الدولة المملوكية فيها[2]، ناهيك عن أبرازه موقف العامة في مصر من هذه الهزيمة، وكيفية تدخله كنائب للسلطان الناصر في القلعة لإزالة الشكوك لديهم بأن السلطان قد هزم خشية منه أن يقوموا بفتنة" ولما وصل البريد بهذا الخبر إلى القلعة، وأنا بها يومئذ في النيابة، أخفيت أمره وأظهرت ضده، وتقدمت بضرب الطبلخاناه وتحريك الكوسات، فزالت الأوهام وسكنت غوغاء العوام، ووصل السلطان إلى الديار المصرية وهي آمنه وأحوالها ساكنه..."[3].

بعد أن اختتم بيبرس المنصوري الحديث عن موقعة مجمع المروج بدأ يعطي صورة مفصلة عن أثرها في بلاد الشام، فعلى الجانب المغولي الايلخاني بيّن أنهم بقيادة محمود غازان بداؤا بالتحرك تجاه حمص عام 699هـ/1299م، حيث اجتاحوها من غير قتال لأن صاحبها محمد بن الصارم سلمها بخزائنها للمغول لحماية أهلها[4]. ثم تحرك المغول تجاه دمشق، حيث بيّن بيبرس المنصوري السياسة التخريبية التي اتبعوها في جبل الصالحية "فخربوا ما فيه من الجوامع والمساجد والمساكن والبساتين"[5]، كما قاموا بحصار قلعة دمشق بالمنجنيقات، وقد بيّن بيبرس المنصوري أن هذا الحصار لم يستمر عليها نظراً للسياسة التي اتبعها نائبها الأمير علم الدين سنجر المنصوري (بارجواش) حيث قام بـ "هدم جميع ما حولها من العماير والبيوت وصيّرها دكاً، وهدم دار السعادة، وكان هدمها من السعادة لئلا يتستر العدو في المنازلة بجدرانها، ويتسلطوا بنصب المجانيق خلف بنيانها، فتناوبوا

(1) المنصوري، التحفة، ص157.

(2) المنصوري، زبدة الفكرة، ص332؛ المنصوري، التحفة، ص 157؛ المنصوري، مختار، ص111.

(3) المنصوري، التحفة، ص157؛ المنصوري، مختار، ص112.

(4) المنصوري، زبدة الفكرة، ص 332؛ المنصوري، التحفة، ص 158؛ المنصوري، مختار، ص111-112.

(5) المنصوري، زبدة الفكرة، ص332-333؛ المنصوري، التحفة، ص158.

على حصارها أياماً متوترة، وليالي متكاثرة وهو يراميهم بالمنجنيقات التي نصبها، فيصيب منهم ولا يصيبون ممن عنده أحداً"[1].

بعد فشل فتح قلعة دمشق قام الايلخان محمود غازان بإرسال عدة فرمانات لجهات مختلفة كما يذكر بيبرس المنصوري [2]، الفرمان الأول بعثه إلى النواب والعساكر في القلاع الشامية يتضمن الترهيب والترغيب لتسليم قلاعهم، ولكن لم يتم الاستجابة له[3]. أما الفرمان الثاني، فقد تم إرساله لجامع بني أمية لقراءته على أهل الشام، وقد عرفهم فيه أنه من أهل الإسلام، وحضهم على طاعته وإلا السيف[4].

قرر الايلخان محمود غازان بعد فشله في اجتذاب النواب والأهالي في بلاد الشام العودة للعراق، لذلك قام بتقسيم الولايات في بلاد الشام اعتماداً على ما ذكره بيبرس المنصوري على أمرائه، فالأمير سيف الدين قفجاق أوكل له دمشق، والأمير سيف الدين بكتمر السلحدار أوكل له حلب وحمص وحماة، في حين جرد معهم نائبه قطلوشاه ليقوم بحصار قلعة دمشق مره ثانية، وجعل يحيى بن جلال الدين لجباية المال[5] وقد كتب لهم فرمانات بما فوضه إليهم من الولايات [6]. كما قام غازان بتجريد حملة عسكرية تقدر بعشرين ألف مقاتل صحبة مولاي وابشقا وحيحك تجاه المناطق الساحلية لبلاد الشام "فنزلوا بالأغوار وبيسان، وشنوا الغارات على تلك البلاد ونهبوا ما وجدوا من المواشي والأقوات، والأزواد وقتلوا من وقع في أيديهم،

---

(1) المنصوري، زبدة الفكرة، ص332 -333؛ المنصوري، التحفة، ص158.

(2) المنصوري، زبدة الفكرة، ص333؛ المنصوري، التحفة، ص158.

(3) انظر نص الفرمان: المنصوري، زبدة الفكرة، ص333 -337.

(4) انظر نص الفرمان: المصدر نفسه، ص337 -339.

(5) المصدر نفسه، ص333.

(6)انظر فرمان غازان للأمير سيف الدين قفجاق بولاية دمشق: المصدر نفسه، ص340 -341؛ وانظر فرمان غازان للأمير سيف الدين بكتمر السلحدار بولاية حلب وحمص وحماة: المصدر نفسه، ص342 -343.

وانتهت غاراتهم إلى القدس والخليل ... ووصلوا غزة وقتلوا بجامعها خمسة نفر من المسلمين كانوا به منقطعين"[1].

وعقب هذا الترتيب عاد غازان إلى العراق في نصف جمادى الأول من عام 699هـ/1299م[2].

وننوه هنا قبل الـ حديث عن أثر موقعة مجمع المروج على الجانب المملوكي إلى أن بيبرس المنصوري كان قد تتبع أخبار كل من الأمير سيف الدين قفجاق والأمير سيف الدين بكتمر السلحدار منذ هربهما بمعية العديد من الأمراء أثر سياسة السلطان حسام الدين لاجين ونائبه منكوتمر التعسفية ضدهم إلى ا لمغول عام 697هـ/1297م، حيث تزوجا منهم، وأقاما في بلادهم إلى أن قصد غازان بلاد الشام عام698هـ/1298م[3]حيث حضرا معه موقعة مجمع المروج [4]، واجتياح بلاد الشام وتولية أحدهما دمشق والثاني حلب كما ذكر آنفاً، ثم رجوعهما إلى مصر كما سيذكر تالياً.

أما على الجانب المملوكي، فقد تتبع بيبرس المنصوري مصير السلطان الناصر وأمراء دولته وقواته أثر انهزامهم من وقعة مجمع المروج، فقد ذكر أن السلطان الناصر وأمرائه لا سيما الأمير سيف الدين سلار وا لأمير ركن الدين استاذ الدار والأمير سيف الدين بكتمر أمير جاندار عادوا إلى القلعة في مصر، حيث شرعوا في إخراج الأموال والذخائر لإنفاقها على القوات المصرية والشامية ونواب الولايات الشامية الواصلة في أعقابهم هرباً من المغول[5].

أما بالنسبة للجزء الذي تفرق في أرجاء بلاد الشام في أعقاب الموقعة، وتحديداً في قلاعها وحصونها من النواب والعساكر، فقد ذكر بيبرس المنصوري أن السلطان

---

(1)المنصوري، زبدة الفكرة، ص 343- 344؛ المنصوري، التحفة، ص 159؛ المنصوري، مختار، ص111- 113.

(2) المنصوري، زبدة الفكرة، ص344؛ المنصوري، التحفة، ص159.

(3) المنصوري، زبدة الفكرة، ص317- 318.

(4) المصدر نفسه، ص331.

(5) المصدر نفسه، ص344.

الناصر قام بتجريده مع من كان مقيماً في القلعة ولم يشهدوا موقعة مجمع المروج إلى الصالحية قرب دمشق، وذلك لحضهم على مقاومة المغول " وإخبارهم بان العساكر على عزم المعاودة [من مصر] لإنجادهم"[1].

بلّغ بيبرس المنصوري النواب في الـ قلاع الشامية رسالة السلطان الناصر فحطّل للذين في القلاع القوة والمنعة، ولم يهنوا، ولا استكانو ا، ولا أذعنوا للتتار، ولا دانوا"[2].

ولما عبر غازان الفرات راجعاً، قام نائبه قطلوشاه بحصار قلعة دمشق مرة أخرى عدة أيام، ولكن دون جدوى، الأمر الذي دفعه كما يذكر بـ يبرس المنصوري - للحاق قائده غازان بعد أن أخذ الأموال التي جباها الأمير سيف الدين قفجاق من أهل دمشق[3].

كما تراجع مولاي ومن معه من المغول -الذين تم تجريدهم تجاه الأغوار وبعلبك - إلى العراق، حين علموا بخروج السلطان الناصر إليهم[4].

أما السلطان الناصر وأمراؤه، لا سيما الأمير سيف الدين سلار والأمير ركن الدين أستاذ الدار، فقد ذكر بيبرس المنصوري أنهم خرجوا بالقوات الإسلامية تجاه الصالحية، ولما وصلوها بقي السلطان فيها، في حين أن الأميرين المشار إليهما تقدما مع القوات الإسلامية ونواب الممالك الشامية ليرتبا كلاً منهم في مكانه، ويعيدا أعمار كل بلد خربه المغول، والنظر في أحوالها[5].

ويعطي بيبرس المنصوري تفصيلاً لأسماء الأمراء الذين تم ترتيبهم من جديد في المناصب الإدارية في الشام (النواب)[6].

---

(1) المنصوري، زبدة الفكرة، ص344- 345.
(2) المصدر نفسه، ص345.
(3) المصدر نفسه، ص345.
(4) المصدر نفسه، ص345.
(5) المصدر نفسه، ص345.
(6) المصدر نفسه، ص346.

يشير بيبرس المنصوري بعد ذلك إلى أن الأميرين المشار إليهما لما وصلا منزلة سكرير قاما بمراسلة كلاً من الأمير سيف الدين قفجاق والأمير سيف الدين بكتمر السلحدار والأمير فارس الدين البكي -وكانوا قد قدموا مع غازان كما ذكر سابقاً - للحضور إلى الخدمة والطاعة للسلطان ودولته[1].

استجاب الأمراء المذكورون لمراسلة الأميرين المذكورين، فحضروا إلى سيكرو فأرسل الأميران المذكوران الأمير بكتوت الجوكندار (الفتاح) إلى السلطان في الصالحية لأخباره بخضوع الأمراء الخارجين عليه للطاعة، فعندها يصف بيبرس المنصوري الصورة حين وصل الخبر "فابتهجت بذلك الخواطر، وضربت البشاير [البشائر]"[2].

وفي العاشر من شعبان وصل الأمراء المذكورون سابقاً إلى السلطان الذي تلقاهم بالإكرام والإحسان وأعادهم معه إلى القاهرة، حيث منح للأمير سيف الدين قفجاق نيابة السلطنة في الشوبك وأعمالها، وأقطع الأمير سيف الدين بكتمر السلحدار دار إقطاع بالديار المصرية، وأعطي مائة فارس، والأمير سيف الدين البكي إقطاع بدمشق[3].

2. ما يخص الاجتياح المغولي الإيلخاني الثاني لبلاد الشام في عهد محمود غازان عام (700هـ/1300م)، وكيفية رد الدولة المملوكية عليه.

لم ينته الاجتياح الأول لبلاد الشام في عهد غازان حتى أعقبه بثاني عام (700هـ/1300م)وقد مهد بيبرس المنصوري لهذا الاجتياح بإعطاء صورة مفصلة عن موقف الخاصة والعامة من أهالي الشام أثر سماعهم بتقدم المغول إليهم "ووقع الجفل في الخاصة من أهلها والعوام لما في قلوبهم من الرعب الذي ما بالعهد فيه من قدم والوجل الذي صيّر وجود صبرهم إلى العدم، وتواتروا إلى الديار المصرية، وتتابعوا من جميع الأعمال الشامية حتى ملأوا الأقاليم والنواحي وشحنوا

(1) المنصوري، زبدة الفكرة، ص346.

(2) المصدر نفسه، ص346.

(3) المصدر نفسه، ص346.

المدن والضواحي، وضاقت بهم الأماكن، وعجز أكثرهم عن المساكن "[1]. كما وضح بيبرس المنصوري الوضع الاقتصادي في مصر أثر هجرتهم إليها، فقال: "وظن الناس أنهم يعدمون الأقوات لكثرة من آتى ومن هو آت، فلطف الله بالعباد بهر الألباب، ولم يكن اتفاقه في الحساب، ووضع البركة في الغلال، وانزل الرخا [الرخاء] في الأسعار، فكانت كلما تواتر الوُرّاد، وتكاثر الجفال من البلاد تنحط الأسعار، وتأخذ في البوار حتى انتهى سعر القمح إلى خمسة عشر درهماً الإردب، وكان قبل الجفل وفي مباديه بعشرين درهماً الإردب"[2].

أما رد الدولة المملوكية على هذا الاجتياح، فقد ذكر بيبرس المنصوري أن السلطان الناصر ابتدأ قبل خروجه من مصر لمواجهة المغول بجمع الأموال من الأملياء والتجار، وأرباب المعايش والأسباب في القاهرة، حيث وصل المبلغ إلى مائة ألف دينار، وكان الهدف من ذلك تجهيز قواته به[3].

توجه السلطان الناصر أثر تجهيز قواته لبلاد الشام، حيث وصل غزة، ونزل على بدعرش (ماء العوجاء)، في حين أن القوات المغولية كانت قد وصلت حلب، ويبيّن بيبرس المنصوري أن الطرفين لم يكتب لهما الالتقاء نظراً للصعاب والأهوال التي لاقوها في بلاد الشام من شدة الأمطار والثلوج، وقلة الكلأ للدواب (التبن والشعير) مما دفع الطرفين للعودة كل إلى بلاده[4].

بعد انتهاء الاجتياح المغولي لبلاد الشام، يبيّن بيبرس المنصوري بشيء من التفصيل أن العلاقات قد دخلت مرحلة جديدة تقوم على تبادل السفارات والزيارات بين الطرفين، فقد ذكر بيبرس المنصوري أنه في عام 700هـ/1300م وصلت من جهة الايلخان محمود غازان رسل إلى بلاد الشام يحملون كتاباً للسلطان الناصر

(1)المنصوري، زبدة الفكرة، ص 349-350؛ المنصوري، التحفة، ص 160؛ المنصوري، مختار، ص115-116.

(2) المنصوري، زبدة الفكرة، ص349-350؛ المنصوري، مختار، ص116.

(3) المنصوري، زبدة الفكرة، ص350؛ المنصوري، مختار، ص115-116.

(4)المنصوري، زبدة الفكرة، ص 350 المنصوري، التحفة، ص 160؛ المنصوري، مختار، ص115-116.

الذي أرسل الأمير سيف الدين كراي السلحدار لإحضارهم " فأحضرهم وهم الأمير ناصرالدين علي خواجه، والقاضي كمال الدين بن يونس قاضي الموصل ورفقتهما"[1]. ويبيّن بيبرس المنصوري المراسيم التي أعدها السلطان الناصر لاستقبال أصحاب السفارة" وجمع الأمراء جمعاً عاماً لسماع رسالة القاضي المذكور...، وجلس السلطان بالإيوان الكبير الاشرفي بالقلعة، وأوقد من الشموع ما صيّر الليل نهاراً، وخيّل الإيوان فلكاً قد تضمن شموساً وأقماراً، وحضر الرسول، فقبل الأرض ثلاثاً، وأدى رسالته، وخطب عند افتتاحه الكلام خطبة بديعة النظام، بسط فيها لسانه، وأبان بها بيانه، وذكر سلطانه، واحضر كتاب مرسله "[2]. أما الكتاب الواصل معهم، فقد احتفظ بيبرس المنصوري بنصه، ويستشف منه أنه يتضمن في فحواه التهديد والوعيد للسلطان الناصر ودولته[3].

وفي سنة701هـ قام السلطان الناصر برد جوابه على الكتاب الذي بعثه اليه الإيلخان محمود غازان، وقد سجل بيبرس المنصوري نص هذا الكتاب [4] الذي يستشف منه أن السلطان الناصر أراد به تخفيف حدة التوتر مع المغول، والحث على الصلح"وينتظر إن شآ [شاء] الله شمل الصلح احسن انتظام، ويحصل التمسك من الموادعة والمصافاة بعروة لا انفصال لها ولا انفصام، وتستقر قواعد الصلح على ما يُرضي الله تعالى ورسوله عليه الصلوة [الصلاة] والسلام"[5].

3 ما يخص ا لاجتياح المغولي الإيلخاني الثالث لبلاد الشام في عهد محمود غازان عام (702هـ/1302م)، وكيفية رد الدولة المملوكية عليه.

بعد أن انتهت المراسلات بين السلطان الناصر والايلخان محمود غازان، يـ بيّن بيبرس المنصوري أن النواب في الولايات الشامية كاتبوا السلطان الناصر لا خباره

---

(1)المنصوري، زبدة الفكرة، ص 352المنصوري، التحفة، ص 161؛ المنصوري، مختار، ص 117.

(2) المنصوري، مختار، ص117 -118.

(3) انظر نص الكتاب: المنصوري، زبدة الفكرة، ص352 -354.

(4) انظر نص الكتاب: المصدر نفسه، ص356-361.

(5) المصدر نفسه، ص361.

بأنه وصلهم كتاب من نائب الايلخان محمود غازان وهو قطلوشاه يتضمن على حسب قول بيبرس المنصوري أن بلادهم [أي المغول] "قد أمحلت، وأراضيهم من الأعشاب والمراعي خلت، وأن التتار على عزم الانتشار لارتياد المروج والأماكن التي يوجد بها المرعى، ويروج وربما وصلت منهم طائفة إلى صوب الفرات لأجل قصد الأعشاب، فيحصل بهم الارتياب، وليس قصدهم سوى الانتجاع والنزول بمهما صادفوا به خصباً من تلك البقاع، فإذا سمع أهل البلاد الحلبية، وسكان الأعمال الفراتية باقترابهم لا يبرحون من أماكنهم، ولا ينزحون من مواطنهم فلا بأس عليهم وليس ثم تعرض إليهم"[1].

تقدم المغول في أعقاب رسالتهم إلى نواب الشام نحو الرحبة بقيادة غازان، ووصلوا دير بسير، في حين أن طائفة أخرى منهم تقدمت لمرعش، مما تسبب في أثارة الرعب والخوف بين الأهالي في حلب[2].

أما ردة فعل الدولة المملوكية عليهم، فقد وضح بيبرس المنصوري أن السلطان الناصر ما أن علم باجتياحهم البلاد الحلبية حتى قام باتخاذ الاستعدادات المناسبة لمواجهتهم، فقد أصدر أمره إلى أمراء مصر والشام بأن "يستخدم نظير الربع من عدته، ويضيفهم إلى جماعته، وقرر على أهل البلاد من الحواضر والبوادِ خيّالة يقومون بها من أموالهم، ويقيمونها من أحوالهم"[3].

لم يقف السلطان في سياسته عند هذا الحد، فقد قام كذلك كما يذكر بيبرس المنصوري باعتباره أحد الشاهدين على الأحداث بتجريد حملة عسكرية بعد تشاور الأمراء لدمشق "تقوية لجاش أهل الشام، وتثبيتاً لجيوشه على المقام إلى أن يتضح الحال، ويزول الإشكال"، كما ذكر بيبرس المنصوري أن هذه الحملة خرجت بقيادة ستة من مقدمي الألوف كان هو أحدهم.

(1) المنصوري، زبدة الفكرة، ص366- 367؛ المنصوري، التحفة، ص163.

(2) المنصوري، زبدة الفكرة، ص367؛ المنصوري، التحفة، ص163.

(3) المنصوري، زبدة الفكرة، ص367؛ المنصوري، التحفة، ص163.

سارت الحملة، فوصلت قاقون كما يذكر بيبرس المنصوري [1] في الوقت الذي كان غازان قد قصد الرحبة، وكان ينوي محاصرتها، إلا أن صاحبها علم الدين سنجر الغتمي استطاع أن يرد غا زان عنها من خلال إرساله الهدايا إليه بصحبة ولده" وتلطف به واستوقفه عما أزمعه من المحاصرة والمنازلة، وأرسل يقول له الملك الآن سائر إلى الشام لقصد المدن العظام، وهذا بلد سهل المرام، فإذا أخذت البلاد التي قدامك، وحويت ملك الممالك التي هي أمامك، فهذا البلد بين يديك، وما يتعسر أمره عليك".

رجع غازان عقب رسالة علم الدين سنجر الغتمي عن محاصرة الرحبة، وكتب منها كتاباً لأهل الشام هدفه كما يشير بيبرس المنصوري استمالتهم لجانبه ، وحضهم على عدم مساندة الدولة المملوكية في حربها ضد المغول[2].

وفي أعقاب ذلك عاد غازان إلى الارعاق بعد أن جرد نائبه قطلوشاه لاستكمال ما بدأه من فتح المدن الشامية، وقد كانت القوات التي تركها معه اثنا عشر تمان[3].

تقدم قطلوشاه إلى الشام، في الوقت الذي كانت فيه كما يذكر بيبرس المنصوري الأخبار تتوارد من نواب الشام للسلطان الناصر بوضعهم وأحوالهم بسبب قدوم المغول.

قام السلطان الناصر أثر تحققه من صحة الأخبار الواصلة إليه من نوابه بحشد القوات المصرية من كافة طبقات المجتمع، وخرج بها بمعية الخليفة المستكفي بالله إلى الشام. أما المغول، فقد تقدموا إلى الأطراف الحلبية وهاجموها بعد مغادرة الأمراء والقوات الموجودة فيها[4]، وقد شكك بيبرس المنصوري أن عددهم كان اثنا عشر تمان، فقال :"وأما التتار، فأنهم كانوا في صورة التطليب وهيئة الترتيب اثني عشر تومان، وفي حقيقة العدة تسعين ألفاً من الفرسان"[5].

---

(1) المنصوري، زبدة الفكرة، ص367 -368؛ المنصوري، التحفة، ص163 -164.

(2) انظر نص الكتاب: المنصوري، زبدة الفكرة، ص368 -372.

(3) الممصوري، زبدة الفكرة، ص372.

(4) المنصوري، زبدة الفكرة، ص372؛ المنصوري، التحفة، ص164.

(5) المنصوري، زبدة الفكرة، ص372.

أما بالنسبة التي جردها السلطان الناصر لتقوية أهل الشام، وكان بيبرس المنصوري أحد قادتها كما ذكر مقدماً، فقد ذكر أنهم وصلوا دمشق في العشر الأوسط من شهر شعبان عام 702هـ/1302م، ويبيّن موقف العامة فيها من قدومهم "واستبشر أهلها وفرحوا". كما يوضح بيبرس المنصوري كيف أنهم اجتمعوا بنواب الشام وقواتهم فيها "اتّصل بنا اجتماع عسكر حلب صحبة الأمير شمس الدين قراسنقر المنصوري نائب السلطنة بها، وعسكر حماة صحبة الأمير زين الدين كتبغا المنصوري الملقب بالعادل، وعسكر طرابلس صحبة الأمير سيف الدين اسندمر الكرجي نائب السلطنة بطرابلس، ومن كان قد جرد إليهم من العساكر الدمشقية، وهم الأمير سيف الدين بهادر آص والأمير سيف الدين انص الجمدار وغيرهما"[1].

وفي الوقت الذي اجتمعت فيه القوات الإسلامية بدمشق كان المغول قد تقدموا إلى القريتين، فأغاروا عليها وعلى أهلها من التركمان.

أما ردة فعل الأمراء الموجودين في دمشق على غارتهم تلك، فقد روى بيبرس المنصوري أنهم جردوا حملة عسكرية تجاههم في القريتين، وكانت بقيادة سيف الدين اسندمر والأمير بهادر آص وغيرهم من الأمراء والعساكر، وقد كان هدفهم من ذلك إيقاف التحرك المغولي، والتصدي لهم، وقد ذكر بيبرس المنصوري أن هذه التجريدة تمكنت من إلحاق الهزيمة بقوات المغول في القريتين موضحاً أن السبب في هزيمتهم هو انشغال المغول في الغنائم التي نهبوها من التركمان "وغلب القليل من المسلمين جمعهم الكثير وكسروهم، واستنقذوا التركمان الذين كانوا أسروهم، وخلّصوا النسوان والولدان، واقتلعوا منهم المواشي والأموال"[2].

ولما عاد المغول الذين انهزموا في القريتين اجتمعوا مع بقية قواتهم، وتشاوروا في انه يجب استغلال تأخر السلطان الناصر وقواته في مصر، والإغارة على القوات الإسلامية الموجودة في الشام[3].

---

(1) المنصوري، زبدة الفكرة، ص373؛ المنصوري، التحفة، ص164.

(2) المنصوري، زبدة الفكرة، ص373- 374؛ المنصوري، التحفة، ص164- 165.

(3) المنصوري، زبدة الفكرة، ص374؛ المنصوري، التحفة، ص165.

يصور بيبرس المنصوري الموقف والحال التي كانت عليه القوات الإسلامية في الشام عند تقدم المغول إليهم وتأخر السلطان عنهم، فيقول: "فتقسمت الأفكار والظنون، وتطلعت لقدومه العيون، واجتمعنا للاستخارة، واقتدحنا زناد الاستشارة، فاجمعنا على استطلاع الحال قبل العزم على الترحال".

كما يبرز بيبرس المنصوري كيفية خروجهم لاستطلاع القوات المغولية، ودوره فيها، فيقول: "فتوجهت مستكشفاً والأخبار متعرفاً، فلما وصلنا القطيفة صادفنا عسكر حلب وحمص وحماة [العسكر الذي تم تجريده للقضاء على المغول في القريتين] قد تقدموا جائين، واقبلوا متواترين، واخبروا بان العدو ساير سير المجدّ في الرواح والغدو، وقد اقترب الأقوام من الأقوام، ودنت الخيام من الخيام" عندها تراجع بيبرس المنصوري والقوات الإسلامية إلى مرج راهط انتظاراً لوصول السلطان واصفاً بعد ذلك حالهم وحال أهل دمشق من تقدم المغول وتأخر السلطان عنهم "فلما رجعوا إلى خلف شيئاً يسيراً ولت الاطلاب، وعادت العساكر على الأعقاب حتى أن أكثرهم ترك حماله ورمى أثقاله، وأهمل قماشه وماله ولم يتهيأ ردهم و لا أمكن صدهم، وعبروا على مدينة دمشق بهذه الصورة، فتصدعت قلوب أهلها المكسورة وعجوا وضجوا واستصرخوا ولّجوا وحملهم ما دهمهم من انتقاض العزائم على أن صرحوا بالشتايم، وبادر أكثرهم بالجفل لينجوا، وقالوا: إذا رجعت عنا العساكر فأي حياة نرجوا، فحصل بلطف الله التوقف والتثبط والتمسك بالمرج والتضبط فما كان إلا كلمح شرارة أو وحي إشارة حتى أتى البريد مخبراً باقبال الملك الناصر وأطلاب العساكر، فزال البأس وغلب الرجاء اليأس"[1].

وما أن وصل السلطان الناصر وبصحبته الخليفة المستكفي بالله بلاد الشام حتى قسم القوات الشامية والمصرية إلى ثلاثة أقسام هي الميمنة والقلب والميسرة، وقد ذكر بيبرس المنصوري باعتباره شاهد عيان بشكل مفصل أسماء الأمراء الذين كانوا في كل قسم، أضف إلى ذلك ذكره لأسماء أمراء المغول ومقدمهم قطلوشاة، وكيفية

(1) المنصوري، زبدة الفكرة، ص374 -375؛ المنصوري، التحفة، ص165 -166.

اصطدام الطرفين في موقعة مرج الصُّفَّر، وانتصار المماليك على القوات المغولية فيها، وكيفية تجريد حملة لتتبع الهاربين من المغول[1].

3.3 السياسة تجاه الفرنج (الصليبيين)

اهتم بيبرس المنصوري في التأريخ لسياسة الدولة المملوكية تجاه الفرنج (الصليبيين) حيث أحتل هذا الجانب المركز الثاني ضمن اهتماماته بالتأريخ لسياسة الدولة الخارجية، وتقدر نسبة المادة التي دونّها عن ذلك بـ 25%.

ابتدأ بيبرس المنصوري مادته التاريخية بإعطاء صورة مختصرة عن محاولات الفرنج لطلب الصلح من الدولة المملوكية، فقد قدم على السلطان الظاهر في عام 659هـ/1260م رسل من عند جوان دبلين كند يافا وغيره من الفرنج الذين بالساحل يسألونه الأذن للمذكور (كند يافا) للقدوم للسلطان الذي أجابهم لطلبهم، فجاء كند يافا: "فأكرمه السلطان، وأقبل عليه، وأجاب سؤاله، ورسم بتقرير الهدنة له ولصاحب بيروت على القاعدة التي كانت مقررة في الأيام الناصرية، وكتب له منشوراً بما في يده من البلاد، فقبل الأرض شكراً على هذه النعمة"[2].

تدرج بعد ذلك بيبرس المنصوري لبيان السياسة العدائية التي تبناها السلطان الظاهر ومن أعقبه من السلاطين خلال الفترة الممتدة من (660-690هـ/1261-1291م) تجاه الفرنج القاطنين على طول الشريط الساحلي لبلاد الشام، وقد أخذت هذه السياسة العدائية شكل غارات فصل في أغلبها واقتضب في غيرها، ويمكن تقدير عدد تلك الغارات حسب المادة التاريخية التي دونها بـ "23" غارة، انتهت بتصفية الفرنج من بلاد الشام، وهي:

1. غارة الدولة المملوكية الأولى تجاه إنطاكية عام 660هـ/1261م:

قام السلطان الظاهر في عام 660هـ/1261م بتجريد حملة عسكرية تجاه إنطاكية بقيادة الأمير شمس الدين سنقر الرومي والأمير سيف الدين الرشيدي، وتوجه

---

(1) المنصوري، زبدة الفكرة، ص375-378؛ المنصوري، التحفة، ص166-168.

(2) المنصوري، زبدة الفكرة، ص67.

بصحبتهما نائبا حماة وحمص، وقد بيّنبيبرس المنصوري أنهم "أغاروا عليها وأخذوا ميناءها، وحاصروا السويدا، ونهبوا وغنموا وعادوا"[(1)].

2. غارة الدولة المملوكية الأولى تجاه عكا عام661هـ/1262م:

وفي عام661هـ/1262م وصلت رسل الفرنج من عكا إلى السلطان الظاهر الذي يوضح بيبرس المنصوري أنهم " انفصلوا من [عنده من] غير رضى إلى عكا"[(2)].

ويبدو أن سوء علاقة السلطان الظاهر بالفرنج في عكا -كما هو واضح من النص - قد كان الدافع في أن يقوم السلطان بشن غارة عليهم في العام ذاته، فقد بيّن بيبرس المنصوري بشيء من الاختصار أن السلطان سار ليلة السبت 4 جمادى الآخرة تجاه الفرنج في عكا، حيث نزل على المدينة، وأحاط بها من ناحية البر، وندب فرقة من عسكره لمحاصرة أحد أبراجها، فحاصروه، وخرج من فيه مستأمنين، أما السلطان، فقد استمر في حصار المدينة "وحرق ما حولها من الأخشاب، وقطع ما هناك من الأشجار"، ثم عاد السلطان[(3)].

وفي العام التالي [أي عام662هـ/1263م]عقد السلطان الظاهر - كما يشير بيبرس المنصوري - الهدنة مع الفرنج في الساحل إلى أيام الحصاد[(4)].

3. غارة الدولة المملوكية تجاه قيسارية وعثليث وحيفا عام 663هـ/1264م، وفتحها:

عاود السلطان الظاهر غاراته على الفرنج منذ دخول عام 663هـ/1264م، فقد وضح بيبرس المنصوري كيف أن السلطان سار بقواته في يوم الخميس 9 جمادى الأولى تجاه الفرنج في قيسارية، حيث عمل على ضربها بالمجانيق، ومن ثم نصب السلالم على أسوارها، وصعدت قواته إلى المدينة " وطلعوا إليها، ونصبوا السناجق

(1)المنصوري، زبدة الفكرة، ص 76؛ المنصوري، التحفة، ص 50؛ المنصوري، مختار، ص19.

(2) المنصوري، مختار، ص24.

(3) المنصوري، زبدة الفكرة، ص81؛ المنصوري، التحفة، ص24-25.

(4) المنصوري، زبدة الفكرة، ص87؛ المنصوري، التحفة، ص26.

السلطانية عليها، وحرقت أبوابها "الأمر الذي دفع أهلها من الفرنج إلى الالتجاء لقلعتها، ومن ثم تسليمهم لها نظراً لحصار الذي فرضته قوات السلطان "فجدّ العسكر في الحصار، فلما كان ليلة الخميس منتصف جمادى الأولى هربت الفرنج، وأسلموا القلعة بما فيها، فتسلق المسلمون إليها من الأسوار، واستولوا عليها، ورسم السلطان بهدم مبانيها، فهدمت"(1).

وفي أثر هذا الانتصار يذكر بيبرس المنصوري أن السلطان الظاهر سار إلى الفرنج في عثليث، وسيّر في الوقت ذاته فرقة عسكرية تجاه الفرنج في حيفا " فدخلوها، فنجا الفرنج بأنفسهم إلى المراكب، وأخربت المدينة، وقلعتها في يوم واحد"(2) أما السلطان الظاهر، فقد وصل إلى عثليث، وحصلت بينه وبين أهلها مناوشات انتهت بترك السلطان لها دون أن يفتتحها(3).

يركز بيبرس المنصوري في حملة السلطان على عثليث على دور الأمير المخدوم قلاوون فيها، حيث يبيّن أنه قام بالتسلل إلى بساتين عثليث، فقتل أحد الفرنج، فكافأه السلطان على ذلك بخمسة آلاف درهم(4).

4. غارة الدولة المملوكية تجاه أرسوف عام663هـ/1264م:

توجه السلطان الظاهر في أعقاب فتح قيسارية إلى مدينة أرسوف، حيث قام بضربها بالمجانيق "وضيقوا عليها أنواع التضييق، وتمكنوا منها، وأطلعوا السناجق السلطانية عليها" الأمر الذي دفع أهلها من الفرنج إلى طلب الأمان، فتسلمها السلطان، وبعث أهلها كأسرى إلى الكرك، ثم عاد لمصر(5).

---

(1) المنصوري، زبدة الفكرة، ص 95؛ المنصوري، التحفة، ص 53؛ المنصوري، مختار، ص29.

(2) المنصوري، زبدة الفكرة، ص96؛ المنصوري، التحفة، ص54.

(3) المنصوري، زبدة الفكرة، ص96؛ المنصوري، التحفة، ص53-54.

(4) المنصوري، التحفة، ص54.

(5) المنصوري، زبدة الفكرة، ص 96؛ المنصوري، التحفة، ص 54-55؛ المنصوري، مختار، ص30.

ويعقب بيبرس المنصوري كشاهد عيان على فتح مدينة أرسوف بأن السلطان الظاهر لما تسلمها"قسّم أبراجها على الأمراء ليهدموها، وجعل هدمها دستورهم"[1].

كذلك أشار بيبرس إلى أنّ السلطان الظاهر قام بعد رجوعه لمصر بتوزيع البلاد الإفرنجية وضياعها التي فتحها لا سيما قيسارية، حيفا، أرسوف على أمرائه "وأعطاها لهم تمليكاً مؤبداً شرعياً، وكتبت لهم بها تواقيع ثابتة مستمرة الأحكام لا ينقضها مرور الأيام"[2].

5. غارة الدولة المملوكية تجاه طرابلس وأعمالها عام 664هـ/1265م، وفتحها:

عمل صاحب طرابلس البرنس بيمند (بوهيمند) كرد على السياسة التي اتبعها السلطان الظاهر في بلادهم على شن هجوم عام 664هـ/1265م على مخاضة بلاله طالباً جهة حمص للسيطرة عليها، ويبدو واضحاً مما ذكره بيبرس المنصوري أن ذلك لم يتحقق له، نظراً لتصدي نائبها الأمير علم الدين سنجر الباشقردي له: "فبلغه الخبر فسبق البرنس إلى المخاضة، فلما دناها عدت العساكر، فجرّ بين أيديهم ذيول الهزايم [الهزائم]، وكان يأمل أملاً، فخاب، وقنع من الغنيمة بالإياب"[3].

كان اعتداء صاحب طرابلس على بلاد الشام سبباً في قيام السلطان الظاهر في السنة نفسها بتجريد حملة تجاه بلاده[4]، فقد ذكر بيبرس المنصوري أن السلطان لما عزم على فتح صفد، وما حولها من بلاد الفرنج، ووصل إلى غزة قام بتوجيه الأمير المخدوم قلاوون والأمير جمال الدين أيدغدي العزيزي لفتح الحصون المحيطة بطرابلس لا سيما القليعات وحلبا وعرقا[5]، ويبيّن بيبرس المنصوري -الذي شارك في الحملة عليها- أن هذه الحصون الثلاثة تم فتحها دون قتال نظراً لطلب أهلها من

---

(1) المنصوري، زبدة الفكرة، ص96؛ المنصوري، التحفة، ص54-55.

(2) المنصوري، التحفة، ص55.

(3) المنصوري، زبدة الفكرة، ص103.

(4) المنصوري، التحفة، ص56.

(5) المنصوري، زبدة الفكرة، ص 103؛ المنصوري، التحفة، ص 56؛ المنصوري، مختار، ص30-31.

الفرنج الأمان[1] كما يبرز دور الأمير قلاوون في أعقاب فتحها ذاكراً أنه قام بـحمل الأسرى المأخوذين منه [حصن القليعات] على جمال أرسلها السلطان إليه، وعبر بهم على جسر يعقوب، بحيث يراهم أهل صفد" للتسليم للدولة المملوكية[2].

6. غارة الدولة المملوكية تجاه صفد عام 664هـ/1265م، وفتحها:

تحرك السلطان الظاهر بقواته الشامية والمصرية بعد انضمام الحملة ا لتي جردها تجاه حصون طرابلس إليه -إلى صفد ، حيث بيّن بيبرس المنصوري أنه ما أن نزل عليها حتى بدأ بحصارها، وضربها بالمنجنيقات الأمر الذي دفع أهلها من الفرنج إلى طلب الأمان " واشتّد على الفرنج الحصار، وامتّد للمسلمين الاستظهار، فأرسلوا يطلبون الأمان، فأجيبوا إليه، وفي تاسع الشهر [رمضان] فتحت أبوابها، وطلعت عليها الصناجق [السناجق]، وتسلمها السلطان"[3]. أما مصير أهل صفد، فقد وضح بيبرس المنصوري أنه تم أخراجهم إلى تل قريب المدينة صفد "كانوا يجتمعون عليه [فيه] لقطع الطريق على المسلمين "فتم قتلهم هناك[4]. كذلك وضح بيبرس المنصوري أن السلطان قام في أعقاب فتح المدينة بإحضار ما تحتاج إليه من معدات للقتال لا سيما الآلات والزردخانات، كما أحضر عدد من الدمشقيين، وأسكنهم فيها[5].

(1) المنصوري، زبدة الفكرة، ص 104؛ المنصوري، التحفة، ص56- 57؛ المنصوري، مختار، ص30- 31.

(2) المنصوري، زبدة الفكرة، ص 104؛ المنصوري، التحفة، ص56- 57؛ المنصوري، مختار، ص30- 31.

(3) المنصوري، زبدة الفكرة، ص 104؛ المنصوري، التحفة، ص56- 57؛ المنصوري، مختار، ص31- 32.

(4) المنصوري، زبدة الفكرة، ص 104؛ المنصوري، التحفة، ص56- 58؛ المنصوري، مختار، ص31- 32.

(5) المنصوري، زبدة الفكرة، ص104؛ المنصوري، التحفة، ص57- 58.

7. غارة الدولة المملوكية تجاه صور عام 664هـ/1265م:

تابع السلطان الظاهر غاراته تجاه الفرنج، فقد ذكر بيبرس المنصوري بشيء من الإيجاز أن السلطان قام بتجريد قواته بقيادة الأمير علاء الدين البندقدار، والأمير عز الدين أوغان الركني في أعقاب فتح صفد الى صور "فدخلوا الجبال في الليل، وأغاروا عليها، وأسروا كمندور صاحب سيس، وأخذوا وزير صور، وجماعة من الفرنج" ثم عادوا(1).

8. غارة الدولة المملوكية الثانية تجاه عكا عام 665هـ/1266م:

وفي عام 665هـ/1266م شن السلطان الظاهر هجوماً على عكا "وعمل اليزك على أبوابها، وقطع الأشجار، وأحرق الثمار، وهدم طاحوناً لبيت الاسبتار"(2).

أما السبب في هذه الغارة، فقد أرجعه بيبرس المنصوري إلى قيام الفرنج فيها بالهجوم على مشغرا "فأنكر [السلطان] عليهم [ذلك]"(3).

أعقب هذه الغارة غارة أخرى تجاه قارا "فأمر السلطان بأن ينهبوهم ويقتلوهم، ففعلوا، وسبيت ذراريهم"(4)، وقد وضح بيبرس المنصوري أن السبب المباشر في مهاجمتهم هو وصول الخبر للسلطان أنهم يبيعون المسلمين لأهل حصن عكار(5).

لم يستمر السلطان الظاهر في غاراته تجاه الفرنج خلال السنة المشار إليها، فقد ذكر بيبرس المنصوري بإيجاز أن السلطان قام بعقد ثلاثة اتفاقيات صلح مع الفرنج، وهي:

أ. الاتفاقية الأولى: عقد السلطان الظاهر هذه الاتفاقية مع صاحبة بيروت، وقد بيّن بيبرس المنصوري أن هذه الاتفاقية لم يتم أقرارها إلا بعد إطلاق سراح

---

(1) المنصوري، مختار، ص31.
(2) المنصوري، زبدة الفكرة، ص107 -108؛ المنصوري، مختار، ص35.
(3) المنصوري، زبدة الفكرة، ص107 -108؛ المنصوري، مختار، ص35.
(4) المنصوري، مختار، ص33.
(5) المصدر نفسه، ص33.

التجار الذين تعرض لهم أخاها أثناء توجههم لقبرص، ودفع المال المنهوب منهم[1].

ب. الاتفاقية الثانية: فقد تم أقرارها مع بيت الاسبتار على حصن الأكراد والمرقب كما يذكر بيبرس المنصوري[2]

ج. الاتفاقية الثالثة: كانت هذه الاتفاقية مع أهل صور، فقد وضح بيبرس المنصوري أن هذه الاتفاقية قررت بعد دفع أهلها دية السابق شاهين الذي قتلوه، وكانت 15 ألف دينار صورية، ثم "كتبت هدنة [معهم] لمدة عشر سنين لصور وبلادها، وهي تسعه وتسعين قرية"[3].

9. غارة الدولة المملوكية تجاه يافا عام 666هـ/1267م، وفتحها:

ابتدأ السلطان الظاهر عام 666هـ/1267م بفتح يافا، فقد أورد بيبرس المنصوري معلومات قليلة عن كيفية الفتح، فذكر أن السلطان لما نزل على العوجاء بفلسطين وصل إليه رسل صاحب يافا جاك جوان دبلين يطلبون الصلح، إلا إنه أخرهم، وتحرك بقواته تجاه مدينتهم (يافا)، حيث دب الرعب في صفوف الفرنج الأمر الذي دفعهم إلى ا للجوء إلى قلعة المدينة "وسألوا الأمان على أن يطلقوا بأموالهم وأولادهم، فأجابهم [السلطان] إلى ذلك وتسلم القلعة منهم ... فأمر بهدم المدينة، فهدمت"[4].

10. غارة الدولة المملوكية تجاه حصن شقيف أرنون عام666هـ/1267 م، وفتحه:

توجه السلطان الظاهر أثر فتح يافا إلى حصن الشقيف، ويوضح بيبرس المنصوري أنه ما أن وصلها حتى أرسل فرقة عسكرية لفتحه بقيادة بجكا العزيزي ، ويذكر بيبرس المنصوري أن الحصن كان له قلعتان الأولى تم إحراقها، وتسلمها المسلمون، أما الثانية، فقد خرج الوزير كليام منها مستأمناً "فأمنه السلطان، وفي آخر

---

(1) المنصوري، زبدة الفكرة، ص108.

(2) المنصوري، زبدة الفكرة، ص108؛ المنصوري، مختار، ص36.

(3) المنصوري، زبدة الفكرة، ص108؛ المنصوري، مختار، ص35- 36.

(4)المنصوري، زبدة الفكرة، ص 110؛ المنصوري، التحفة، ص61- 62؛ المنصوري، مختار، ص36.

الشهر[رجب] سلمت، وطلعت عليها السناجق السلطانية، وأخرج أهلها، وسيروا إلى جهة صور"[1].

11. غارة الدولة المملوكية تجاه طرابلس وأعمالها عام 666هـ/1267م:

أعقب فتح حصن الشقيف، إغارة السلطان الظاهر على طرابلس وأعمالها، وقد أبرز بيبرس المنصوري بشيء من الاختصار السياسة التي اتبعها السلطان وقواته تجاهها، فقال"قطعوا الأشجار، وخربوا ما حولها من الكنايس [الكنائس]، ونهبوا وسلبوا"[2].

كما أبرز بيبرس المنصوري موقف صاحب صافيتا وأنطرسوس من السياسة التي اتبعها السلطان تجاه الفرنج في طرابلس، مورداً أنه أسرع إلى تقديم الطاعة للسلطان" وتلقى العسكر بالإقامة، وأحضر من كان عنده من أسارى [أسرى] المسلمين، فكانوا ثلاثماية [ثلاثمائة] أسيراً"[3].

12. غارة الدولة المملوكية نحو أنطاكية عام 666هـ/1267م، وفتحها:

تقدم السلطان الظاهر أثر فتح حصن الشقيف نحو أنطاكية لفتحها، حيث قسم قواته إلى ثلاثة فرق عسكرية، الأولى جعلها بقيادته، والثانية بقيادة الأمير سيف الدين قلاوون، والثالثة بقيادة الأمير عز الدين يوغان الركني، وقد كان بيبرس المنصوري عند حديثه عن الفتح أكثر تركيزاً على دور الفرقة العسكرية التي كان يترأسها الأمير سيف الدين قلاوون، وهذا يرجع لكونه كان أحد المشاركين بالفتح مع الأمير المذكور" فأما المخدوم، ومن معه فإنه سار من أفاميه، فصابحنا القصير

(1) المنصوري، زبدة الفكرة، ص 110؛ المنصوري، التحفة، ص 62؛ المنصوري، مختار، ص36.

(2) المنصوري، زبدة الفكرة، ص 111؛ المنصوري، التحفة، ص 62؛ المنصوري، مختار، ص36.

(3) المنصوري، زبدة الفكرة، ص 111؛ المنصوري، التحفة ، ص 62؛ المنصوري، مختار، ص36.

صباحاً، وناوشنا أهله القتال غدواً ورواحاً، ورحلنا إلى أنطاكية، ونزلنا عن غربيتها على سفح الجبل، وتواصلت العساكر إليها"[1].

كما ركز على دور السلطان الظاهر، وكيفية اشتباك فرقته مع كند اصطبل عم صاحب سيس القاطن في أنطاكية، مبرزاً أنه تم القبض على الأخير [2]، وسيأتي تفصيل هذه النقطة عند الحديث عن السياسة المملوكية تجاه الأرمن . إضافة لذلك أبرز بيبرس المنصوري ما ترتب على فتح المدينة وقلعتها "وشرعوا في النهب والقتل والأسر حتى أثخنوا منهم غاية الإثخان، واجتمع إلى القلعة حول ثمانية آلاف منهم، وسألوا الأمان، فأجيبوا إليه، وأخذوا في الجبال، وقتل وأسر جمع يتجاوز الإحصا [الإحصاء] من النساء والرجال"[3].

أما بالنسبة لموقف السلطان الظاهر من صاحب أنطاكية الذي لم يكن موجود فيها حين فتحها، فقد بيّن بيبرس المنصوري أنه قام بإرسال كتاب له تضمن بيان كيفية فتح أنطاكية، و مصير أهلها، ويهنئه فيه بسلامته "وكتابنا هذا يتضمن البشرى لك بما وهبك الله من السلامة، وطول العمر بكونك لم يكن لك في أنطاكية في هذه المدة إقامة، ولو كنت بها لكنت إما قتيلاً، وإما أسيراً وإما جريحاً"[4].

أما الغنائم التي تم كسبها من فتح أنطاكية، فقد ذكر بيبرس المنصوري أن السلطان الظاهر قام بتقسيمها على أمرائه وقواته "وقسمت الغنايم [الغنائم] على الأمراء والعساكر، وتقاسموا السبايا والمواشي والنسوان والأطفال، فلم يبق غلام إلا وله غلام، وبيع الصغير باثني عشر درهماً ..وأما ما خصه من الغنايم ، فأنه أفرده، وارصده لعمارة الجامع الذي أمر بانشايه [بإنشائه] بالحسينية "[5].

---

(1) المنصوري، زبدة الفكرة، ص111؛ المنصوري، التحفة، ص62- 63.

(2) المنصوري، زبدة الفكرة، ص111- 112؛ المنصوري، التحفة، ص62- 64.

(3)المنصوري، زبدة ا لفكرة، ص111- 112؛ المنصوري، التحفة، ص 62- 64؛ المنصوري، مختار، ص36- 37.

(4) انظر نص الكتاب: المنصوري، زبدة الفكرة، ص112- 114.

(5)المنصوري، زبدة الفكرة، ص 114؛ المنصوري، التحفة، ص 64؛ المنصوري، مختار، ص36- 37.

ولما رأى الداوة الذين كانوا في قلعة بغراس ما جرى لأهل أنطاكية، تركوهـا، فأرسل السلطان الأمير شمس الدين اقسنقر الفارقاني إليها، فتسلمها[1].

وفي نهاية سنة 666هـ/1267م عقد السلطان الظاهر عدة اتفاقيات مع الفرنج أوجز بيبرس المنصوري في معلوماته عنها، وهي:

أ. الاتفاقية الأولى: كانت مع صاحب القصير، وبموجبها تم تسليم السلطان الظاهر نصف بلاد القصير، وكتابة هدنة مع صاحبها[2]

ب. الاتفاقية الثانية:كانت مع افرير ماهي صافاج صاحب صافيتا وأنطرسوس، وبموجبها منح السلطان الظاهر للمذكور الأمان على بلاده [3] مقابل تسليم جبلة[4].

ج. الاتفاقية الثالثة: كانت مع صاحب عكا اوك بن هري ابن أخت صاحب قبرص، فقد حضرت رسله للسلطان الظاهر الذي قرر معهم الصلح على عكا وبلادها وثلاثين ضيعة "وتقرر أن تكون حيفا للفرنج، ولها ثلاث ضياع، وبقية بلادها مناصفة، وبلاد الكرمل مناصفة، وعثليث يكون لها خمس قرى، والباقي مناصفة، وللقرين عشر قرايا، والباقي للسلطان، وبلاد صيدا الوطأة للفرنج، والجبليات للسلطان، واتفق على مم لكته قبرس، وأن تكون الهدنة لعشر سنين، وسيّر السلطان هدية عشرين نفراً من أسارى أنطاكية"[5].

(1)المنصوري، زبدة الفكرة، ص 114؛ المنصوري، التحفة، ص 64؛ المنصوري، مختار، ص37.

(2) المنصوري، زبدة الفكرة، ص114؛ المنصوري، مختار، ص37.

(3) المنصوري، مختار، ص37.

(4)المنصوري، زبدة الفكرة، ص 115؛ المنصوري، التحفة، ص 64؛ المنصوري، مختار، ص37.

(5)المنصوري، زبدة الفكرة، ص 115- 116؛ المنصوري، التحفة، ص 64؛ المنصوري، مختار، ص37- 38.

13. غارة الدولة المملوكية نحو صور ومرج يعقوب وما حول عكا وحصن الأكراد وعسقلان:

تركزت غارات الدولة المملوكية في الفترة (667-668هـ/1268-1269م) نحو صور ومرج يعقوب وما حول عكا وحصن الأكراد وعسقلان، وقد أوجز بيبرس المنصوري في معلوماته عنها بشكل كبير، فالنسبة لغارة الدولة المملوكية نحو صور عام667هـ/1268م ذكر أن السلطان الظاهر قام بتوجيه فرقة عسكرية إليها "فأغاروا [عليها] وضايقوها"(1).

أما غارة الدولة على مرج يعقوب وماحول عكا عام 668هـ/1269م، فقد ذكر أن السلطان أغار عليها "وأسر من محتشمي الفرنج جماعة، وقتل نايب [نائب] فرنسيس بعكا، ولم يعدم من الإسلام إلا الأمير فخر الدين الطونبا الفائزي، وعاد السلطان"(2).

توجه السلطان الظاهر في أعقاب حملته على عكا نحو حصن الأكراد "فخرج إليه جماعة من الفرنج ملبسين، وبلأم الحرب مدرعين، فحمل عليهم، وكسرهم، وبدد شملهم... وأتى على أكثرهم قتلاً"(3).

وفي طريق عودته من حصن الأكراد عرج على عسقلان " فعفاها، وأمر برمي حجارتها، فرميت في ميناها [ميناءها]"(4).

14. غارة الدولة المملوكية نحو طرابلس والمرقب عام 669هـ/1270م:

وفي سنة669هـ/1270م شن السلطان الظاهر هجوماً على طرابلس وصافيتا، وندب أثناء ذلك كما يذكر بيبرس المنصوري فرقة عسكرية بقيادة الأمير سيف الدين قلاوون والأمير بدرالدين بيليك الخازندار وولده الملك السعيد للإغارة على حصن

---

(1) المنصوري، زبدة الفكرة، ص120؛ المنصوري، التحفة، ص66.

(2) المنصوري، زبدة الفكرة، ص 124؛ المنصوري، التحفة، ص 68؛ المنصوري، مختار، ص43-44.

(3) المنصوري، زبدة الفكرة، ص 124؛ المنصوري، التحفة، ص 68؛ المنصوري، مختار، ص44.

(4) المنصوري، زبدة الفكرة، ص124؛ المنصوري، التحفة، ص68.

المرقب، وللأسف أن بيبرس المنصوري لم يتتبع نتائج الغارة على المرقب بل اكتفى بذكر أن هذه الفرقة بقادتها عادت منها، والتقت مع السلطان بعد غارته على طرابلس، وتوجهوا نحو حصن الأكراد[1].

15 . غارة الدولة المملوكية تجاه حصن الأكراد عام 669هـ/1270م، وفتحه:

لم يفصل بيبرس المنصوري في حديثه عن هذه الغارة بل ذكر باختصار أن السلطان الظاهر وقواته قاموا بالاستيلاء على حصن الأكراد أثر طلب أهله الأمان[2]، وقد كان بيبرس المنصوري في معلوماته عن هذا الفتح أكثر تركيزاً على الكتاب الذي كتبه السلطان الظاهر لمقدم الاسبتار صاحب الحصن الذي يعرفه فيه بأنه ظالم كونه لم يسلم الحصن "هذه الكاتبة إلى أفرير أوك جعله الله ممن لا يعترض على القدر، ولا يعاند من سخر لجيشه النصر والظفر، ولا يعتقد أنه ينجي من أمر الله الحذر، ولا يحمي منه محجور البناء، ولا مبنى الحجر تعلمه بما سهل الله من فتح حصن الأكراد الذي حصنته و بنيته وخليته، وكنت الموفق لو أخليته، واتكلت في حفظه على أخوتك فما نفعوك، وضيعتهم بالإقامة فيه، فضيعوه وضيعوك، وما كانت هذه العساكر تنزل على حصن، ويبقى أو تخدم سعيداً ويشقى"[3].

لم يكد السلطان الظاهر ينتهي من حصن الأكراد حتى وصله كمندور أنطرطوس ومقدم بيت الا سبتار لطلب الصلح منه، فصالحهم السلطان على أساس الاعتراف بحق الكمندور في أنطرطوس، والاسبتارية في المرقب، أما صافيتا وبلادها، فجعلها خارج دائرة الصلح، كما استرجع بموجب هذا الصلح بلدة وأعمالها منهم وما أخذوه في أيام الملك الناصر يوسف، إضافة لذلك اشترط عل يهم أن

(1)المنصوري، زبدة الفكرة، ص 127؛ المنصوري، التحفة، ص 70؛ المنصوري، مختار، ص44.

(2)المنصوري، زبدة الفكرة ، ص127؛المنصوري، التحفة، ص 127؛ المنصوري، مختار ، ص45.

(3) المنصوري، زبدة الفكرة، ص127 -128؛ المنصوري، التحفة، ص70.

يتركوا ما لهم من الحقوق والمناصفات على بلاد الإسلام، وأن تكون بلاد المرقب ووجوه أمواله مناصفة بينه وبين الاسبتار، وأن لا تجدد عمارة المرقب[(1)].

16 . غارة الدولة المملوكية نحو حصن عكار عام 669هـ/1270م:

اتجه السلطان الظاهر بعد ذلك نحو حصن عكار، حيث وضح بيبرس المنصوري كيفية مهاجمة السلطان له، والمقاومة التي أبداها أهله من الفرنج في البداية، ثم كيفية تسليمهم الحصن بعد اشتداد الحصار عليهم "وأشتدّ القتال، وجدّ أهله في المناضلة، ورمي الحجار بالمجانيق ... وشددت العساكر الحصار، وأخذ النقوب تحت الأسوار، فلما رأى الذين فيه أمراً يعجزون عن احتماله، وجيشاً لا طاقة لهم بقتاله، فطلبوا الأمان، فأجابهم إليه السلطان"[(2)].

تابع بيبرس المنصوري معلوماته عن كيفية تحرير الدولة المملوكية الأراضي الاسلامية من الفرنج، فذكر أن السلطان الظاهر سار بعد حصن عكار نحو طرابلس، حيث حاصرها من جميع جهاتها، ولكن لم يكتب أن تتحرر هذه المدينة، لأن صاحبها بعث للسلطان الظاهر يطلب الصلح منه، فأجابه "وتقررت الهدنة لمدة عشر سنين"[(3)].

17 . غارة الدولة المملوكية تجاه حصن القرين عام 669هـ/1270م، وفتحه:

سار السلطان الظاهر في أثر الصلح الماضي نحو حصن الـقرين، حيث يذكر بيبرس المنصوري أنه فتح الحصن دون أن يبين كيفية ذلك بل اكتفى بذكر أن أهله من الفرنج سألوا السلطان الأمان، فأجابهم إليه بشرط أن لا يأخذوا معهم من مالهم ولا سلاحهم شيء[(4)].

---

(1) المنصوري، زبدة الفكرة، ص128؛ المنصوري، التحفة، ص70.

(2)المنصوري، زبدة الفكرة، ص 128؛ المنصوري، التحفة، ص71- 72؛ المنصوري، مختار، ص45.

(3)المنصوري، زبدة الفكرة، ص 128- 129؛ المنصوري، التحفة، ص 72؛ المنصوري، مختار، ص45.

(4)المنصوري، زبدة الفكرة ، ص129؛ المنصوري، التحفة، ص 72؛ المنصوري، مختار ، ص46.

بعد فتح القرين قدم بيبرس المنصوري معلومات مختصرة عن اتفاقيات الصلح ي تمتلق بين السلطان والفرنج، فذكر أن السلطان لما توجه لتحرير عكا عام 669هـ/1270م سأله أهلها الصلح، فأجابهم إليه[1]. كما ذكر بيبرس المنصوري أن السلطان الظاهر أجاب أيضاً صاحب صور للصلح عام 669هـ/1270م على أن يكون له عشرة بلدان، ويكون للسلطان خمسة بلدان يختارها، وبقية البلدان مناصفة بينهما[2].

وفي بداية سنة 670هـ/1271م حضر رسل من عكا إلى السلطان الظاهر وهو في الروحاء "فزادهم ثماني ضياع، وأنعم عليهم بشفرعم، ونصف اسكندرونة، وتقررت الهدنة مع صاحب قبرص"[3].

بعد هذه الاتفاقيات قام الفرنج بالساحل بشن هجوم على قاقون أثناء انشغال الدولة المملوكية في الحرب مع المغول، وقد بيّن بيبرس المنصوري أن القوات الحلبية لما عادت من تلك الحرب تراجع الفرنج عنها: "وتفرقوا وغربوا من حيث أشرقوا"[4].

18. غارة الدولة المملوكية تجاه حصن القصير عام 673هـ/1274م، وفتحه:

كان هذا الهجوم بمثابة الدافع الذي حرك السلطان الظاهر لإكمال تحريره للأراضي الإسلامية من الفرنج، فقد ذكر بيبرس المنصوري بإيجاز أن السلطان الظاهر قام بالتوجه نحو حصن القصير عام 673هـ/1274م، حيث تسلمه بعد طلب أهله الأمان[5]. أما مصير نائب حصن القصير كليام، فقد ذكر بيبرس المنصوري أنه تم القبض عليه، وإحضاره إلى دمشق[6].

تابع السلطان المنصور قلاوون السياسة التي ابتدأها الملك الظاهر، وهي تحرير البلاد الإسلامية من الفرنج، حيث ابتدأ نشاطه عام 679هـ/1280م كما يذكر بيبرس

---

(1) المنصوري، التحفة، ص72.

(2) المنصوري، زبدة الفكرة، ص130؛ المنصوري، مختار، ص47.

(3) المنصوري، زبدة الفكرة، ص134؛ المنصوري، مختار، ص48.

(4) المنصوري، التحفة، ص73.

(5) المنصوري، التحفة، ص81؛ المنصوري، مختار، ص54-55.

(6) المنصوري، مختار، ص54-55.

المنصوري بتوجيه حملة عسكرية بقيادة الأمير علاء الدين أيدكين البندقدار إلى الساحل لحفظ البلاد من الفرنج بحكم أنه لم يقرر بعد معهم هدنة[1].

19 . غارة الدولة المملوكية نحو حصن المرقب عام 679هـ/1280م:

ولما انشغل السلطان قلاوون بصد اعتداء المغول على بلاد الشام عام 679هـ، قام الفرنج في حصن المرقب بشن هجوم على أطراف الدولة المملوكية، وقد بيّن بيبرس المنصوري كيفية رد الدولة المملوكية أثر انتهائهم من المغول، فذكر أن نائب السلطنة في حصن الأكراد الأمير سيف الدين بلبان الطباخي قام بمراسلة السلطان يطلب منه مهاجمة الفرنج في حصن المرقب باعتباره قريباً منهم، وقد هون أمر تحرير الحصن "وذكر له قلة من فيه من الرجالة، فأذن له في ذلك"[2].

توجه الطباخي نحو حصن المرقب " واستصحب المجانيق والآلات، وتقدم إلى أن وقف قريباً من الحصن ... وأخفى أهله أمرهم، ولم يتحركوا في مبدأ الحال، فازداد العسكر فيهم طمعاً وإليهم تقدماً، فلما صاروا بحيث تبلغ إليهم السهام أرسلوا عليهم الجروخ، فنالت منهم النصال، وأنكت فيهم النبال لأنهم كانت تنحدر على العسكر من أعالي الجبال"[3].

أدى هذا الوضع كما يذكر بيبرس المنصوري إلى أن يقوم الطباخي باستشارة الأمراء الذين أشاروا عليه بالتراجع لترتيب أوضاعهم ثم الهجوم، ولكن عدم معرفة الجنود بالرأي الذي اتفق عليه الطباخي مع أمرائه جعلهم يظنون أن التراجع هو الهزيمة" فولوا الأدبار، وأسرعوا الفرار "على حد تعبير بيبرس المنصوري"[4].

أما السلطان الظاهر، فقد وضح بيبرس المنصوري أنه قام أثر سماعه بهزيمة نائب حصن الأكراد بالتوجه لبلاد الشام لشن هجوم على حصن المرقب[5]، ولكن لم يكتب له أن يقوم بغارة ضد الحصن المذكور نظراً لوصول رسل الفرنج إلى أبوابه

---

(1) المنصوري، زبدة الفكرة، ص189؛ المنصوري، التحفة، ص95.
(2) المنصوري، زبدة الفكرة، ص189؛ المنصوري، التحفة، ص95.
(3) المنصوري، زبدة الفكرة، ص189- 190؛ المنصوري، التحفة، ص95- 96.
(4) المنصوري، زبدة الفكرة، ص189- 190؛ المنصوري، التحفة، ص95- 96.
(5) المنصوري، زبدة الفكرة، ص190.

عام 680هـ/1281م "يسألون تقرير الهدنة والزيادة على الهدنة الظاهرية والصلح لأهل المرقب، ولم يزالوا يترددون إلى أن تقرر الحال على أن يكون لهم مناصفة الربض وبلنياس على أن يردوا كل من عندهم من أسرى المسلمين"[1].

كما قدم رسل الفرنج في العام المشار إليه لا سيما مقدم بيت الاسبتار، وجميع الأخوة الاسبتارية إلى السلطان المنصور الذي عقد معهم هدنة لمدة عشر سنين وعشرة أشهر وعشرة أيام وعشر ساعات، وقد اشترط فيها السلطان كما يذكر بيبرس المنصوري عليهم عدم الاعتداء على جميع الأراضي التابعة لدولته أو حتى للتجار والمسافرين، ومقابل ذلك تعهد لهم بعدم التعرض لحصن المرقب وما يجاوره[2].

كذلك قرر السلطان المنصور قلاوون في العام نفسه هدنة مع صاحب طرابلس بيمند بن بيمند لمدة عشر سنين، وقد اشترط فيها السلطان عليهم بعدم التعرض للأراضي الإسلامية، ويحدد بيبرس المنصوري بشكل مفصل أسماء الممالك والقلاع والحصون التي تم الاتفاق عليها[3].

كما قرر السلطان قلاوون الهدنة في العام نفسه مع أفرير كليام ديبا جوك مقدم بيت الديوية بعكا، والديوية بأنطرطوس لمدة عشر سنين، وقد اشترط السلطان عليهم الشروط المشار إليها آنفاً كما يشير بيبرس المنصوري[4].

وفي بداية سنة 682هـ/1283م جددت الهدنة مع الفرنج في عكا، فقد أشار بيبرس المنصوري إلى أنه حضر رسولان من بيت الديوية، ورسولان من الاسبتارية، وفارسان من الملوكية وهما والي الولاة كليام والوزير فهد إلى السلطان الذي قرر معهم الهدنة على الشروط الجاري بها العادة لمدة عشر سنين وعشرة شهور وعشرة أيام وعشر ساعات على حد تعبير بيبرس المنصوري[5].

---

(1) المنصوري، زبدة الفكرة، ص191؛ المنصوري، التحفة، ص96.

(2) المنصوري، زبدة الفكرة، ص210؛ المنصوري، التحفة، ص106.

(3) المنصوري، زبدة الفكرة، ص210- 212.

(4) المصدر نفسه، ص229- 230.

(5) المصدر نفسه، ص232.

20 . غارة الدولة المملوكية نحو حصن المرقب عام 684هـ/1285م، وفتحه:

لم تستمر اتفاقيات الصلح بين السلطان المنصور قلاوون والفرنج، فقد بيّن بيبرس المنصوري أنه ما بدأت سنة 684هـ/1285م حتى قام السلطان بالتوجه نحو حصن المرقب لفتحه، مبرزاً أن السبب في ذلك هو استمرار أهالي الحصن المذكور في غاراتهم على حدود الدولة المملوكية بالرغم من الاتفاقيات المبرمة بين الطرفين(1).

وصل السلطان الحصن فحاصره حصاراً شديداً دفع أهله إلى طلب الأمان "فأجابهم إليه[السلطان]، وخرجوا وسلموا الحصن، فتسلمه السلطان، وطلعته السناجق المنصورة، والألوية المنشورة، وجهز السلطان أهله إلى طرابلس"(2).

21 . غارة الدولة المملوكية تجاه طرابلس عام 688هـ/1289م، وفتحها:

لم يورد بيبرس المنصوري أية معلومات عن أية غارات للدولة المملوكية تجاه الفرنج في الفترة (685-688هـ/1286-1289م)، بل يلاحظ أنه انتقل للحديث عن غارة الدولة المملوكية نحو طرابلس عام 688هـ/1289م، حيث وضح بدايةً السبب في الهجوم عليها، فقال:"وسار إلى الشام -أي السلطان- على عزم طرابلس، وأخذها، وذلك أن أهلها نقضوا قواعد الصلح، وكدروا موارد الهدنة بما ارتكبوا من الفساد، وسوء الاعتماد، والتطرق إلى الطرقات، والتعرض إلى المسلمين"(3).

تدرج بيبرس المنصوري بعد ذلك لبيان كيفية قيام السلطان بمكاتبة نوابه في الولايات والحصون الإسلامية لإعداد المجانيق وآلات الحرب، والتقائه معهم على طرابلس(4).

---

(1) المنصوري، زبدة الفكرة، ص252-253؛ المنصوري، التحفة، ص113-114.

(2) المنصوري، زبدة الفكرة، ص252-253؛ المنصوري، التحفة، ص113-114؛ المنصوري، مختار، ص84.

(3) المنصوري، زبدة الفكرة، ص 266؛ المنصوري، التحفة، ص 120؛ المنصوري، مختار، ص87.

(4) المنصوري، زبدة الفكرة، ص 266؛ المنصوري، التحفة، ص 120؛ المنصوري، مختار، ص87.

يعطي بيبرس المنصوري بعد استكمال الاستعدادات تفصيلاً لكيفية فتح طرابلس وما ترتب على ذلك من نتائج معتمداً في معلوماته تلك على من شاهد الفتح بأم عينيه، فقد ذكر أن ا لسلطان لما وصل طرابلس حاصرها حصاراً شديداً في الوقت الذي" أظهر أهلها الامتناع ودفعوا مدة، ولكن لم يغن الدفاع، فشدد عليهم التضييق، وأذاقهم حرباً أشدّ من عذاب الحريق، وأمطر عليهم ديماً من الموت الزؤام من مرامات السهام، وحجارة المنجنيق، وأخذ النقابون النقوب، وانسربوا إلى نحو أسوارها في السروب، فضعف أهلها"[(1)].

أما السياسة التي اتبعتها الدولة المملوكية أثر الاستيلاء على طرابلس، فقد تمثلت في الفتك بأهلها وأسر الأغلبية لا سيما النساء والأطفال والغلمان، أما من فر من أهلها نحو أحد الجزر في البحر المتوسط بمستلزماتهم من القماش والأثاث وغيره، فقد ذكر بيبرس المنصوري أن الرياح الشديدة أعادت مراكبهم إلى ساحل طرابلس "فخرج اليهم الغلمان والشاكردية والوشاقية وأميراخورية، فوقعوا عليهم ونهبوهم، وأسروا من وجدوه منهم "[(2)]. أما السلطان، فقد أمر بهدم المدينة وحرقها، وبناء مدينة جديدة بالقرب منها أطلق عليها اسم طرابلس المستجدة[(3)].

22 غارة الدولة المملوكية تجاه عكا عام 689-690هـ/1290-1291م، وإنهاء الاحتلال الإفرنجي لبلاد الشام:

لم يكد السلطان ينتهي من فتح طرابلس حتى قام بالإعداد لفتح عكا عام 689هـ/1290م وقد أبرز بيبرس المنصوري أن السبب لهذا الفتح هو اعتداء الفرنج في عكا على التجار المسلمين[(4)].

(1) المنصوري، زبدة الفكرة، ص 266-267؛ المنصوري، التحفة، ص 120؛ المنصوري، مختار، ص87.

(2) المنصوري، زبدة الفكرة، ص 266-267؛ المنصوري، التحفة، ص 120؛ المنصوري، مختار، ص87.

(3) المنصوري، زبدة الفكرة، ص267.

(4) المنصوري، زبدة الفكرة، ص270؛ المنصوري، التحفة، ص 122-123؛ المنصوري، المختار، ص87.

خرج السلطان بقواته إلى مسجد التبن، حيث يوضح بيبرس المنصوري بعد ذلك أنه لم يكمل طريقه إلى عكا نظراً لوفاته أثر المرض الذي أصابه[1].

أما غارة الدولة المملوكية على الفرنج في عكا عام 690هـ والتي جاءت استكمالاً لما بدأه الملك المنصور، فقد كان بيبرس المنصوري أكثر تركيزاً عليها من غيرها، إذ فصل و أطنب في الحديث عنها، وقدم معلومات قيمة عنها انفرد بها عن غيره من المؤرخين، فقد زودنا بمعلومات قيمة عن تفصيلات الفتح كونه كان أحد المشاركين فيه، فوضح الاستعدادات العسكرية التي اتخذها الملك الأشرف خليل قبيل الفتح لا سيما المراسلات التي تمت بين السلطان ونوابه بالشام لإحضار آلات الحرب وموافاته بعكا[2]، ناهيك عن إسهابه في الحديث عن الاستعدادات الحربية التي اتخذها بعد وصول رسالة السلطان إليه بالكرك[3]، فضلاً عن تغطيته لمجريات الفتح لا سيما كيفية محاصرة المدينة ومقاومة الفرنج فيها لهم "وحصنوا الأبراج والأسوار، واظهروا المصابرة، وعدم المبالاة بالمحاصرة، ولم يغلقوا للمدينة باباً وأسدلوا دونها حجاباً، فنصبت عليها المجانيق الإسلامية، وأحدقت بها العساكر المحمدية، وأرسلت عليها حجارة كالصواعق الصاعقة، وسهاماً كالبوارق البارقة"[4].

ومع ذلك لم يتمكن السلطان وقواته من اقتحام المدينة إلى أن قام بيبرس المنصوري كما يذكر بوضع خطة تم فيها اقتحام المدينة، وفتحها[5].

---

(1) المنصوري، زبدة الفكرة، ص270؛ المنصوري، التحفة، ص122- 123.

(2) المنصوري، زبدة الفكرة، ص 278؛ المنصوري، التحفة، ص 126- 127؛ المنصوري، مختار، ص91- 92.

(3) المنصوري، زبدة الفكرة، ص278؛ المنصوري، التحفة، ص126- 127.

(4) المنصوري، زبدة الفكرة، ص278- 279؛ المنصوري، التحفة، ص126- 127؛ المنصوري، مختار، ص91- 92.

(5) المنصوري، زبدة الفكرة، ص278- 280؛ المنصوري، التحفة، ص126- 127؛ المنصوري، مختار، ص91- 92.

وفي أثر هذا الفتح يذكر بيبرس المنصوري أن الفرنج في صور وصيدا وعثليث وبيروت وحيفا قاموا بالتسليم للسلطان الأشرف خشية منه نظراً للسياسة التي اتبعها في عكا(1).

4.3 السياسة تجاه الأرمن

اتبعت الدولة المملوكية في الفترة الممتدة بين سنتي (662-709هـ/1263-1309م) سياسة عدائية تجاه الأرمن، يظهر ذلك من خلال المادة التاريخية المفصلة التي دونّها بيبرس المنصوري عن غارات الدولة المملوكية تجاههم، فقد بلغ مجموع الروايات التي سجلها في هذا الجانب ثمانية عشر رواية رسم من خلالها ملامح تلك السياسة.

ابتدأ بيبرس المنصوري في هذا الجانب بالحديث بإيجاز عن تحالف الأرمن والمغول والروم ضد الدولة المملوكية عام 662هـ/1263م، حيث تتبع خط سير حملتهم حتى وصولها عين تاب، ثم ركز بعد ذلك على دور عسكري حماة وحمص في التصدي لعسكر الأرمن بأمر من السلطان الظاهر بيبرس موضحاً للنتائج السلبية التي عادت على الأرمن من القتل والأسر(2).

ومع أن بيبرس المنصوري يذكر أن التحالف قد تم بين الأطراف الثلاثة المشار إليها آنفاً، إلا أنه يتجاهل دور المغول والروم في الحملة بعكس توضيحه لدور الأرمن وسياسة الدولة المملوكية تجاههم.

تابع بيبرس المنصوري تطور سياسة الدولة المملوكية تجاه بلاد الأرمن بين سنتي (664-709هـ/1265-1309م) حيث أورد معلومات مفصلة عن غارات الدولة المملوكية تجاههم، إذ بلغت تسع غارات هي:

1. غارة الدولة المملوكية تجاه عاصمة الأرمن "سيس" عام 664هـ/1265م، يلحظ أن بيبرس المنصوري أسهب في الحديث عنها، فقد أورد أسماء الأمراء الذين

---

(1) المنصوري، زبدة الفكرة، ص282-283؛ المنصوري، التحفة، ص127-128؛ المنصوري، مختار، ص92.

(2) المنصوري، زبدة الفكرة، ص88؛ المنصوري، مختار، ص27-28.

جردهم السلطان الظاهر في هذه الغارة وهم ؛ الملك المنصور صاحب حماة والأمير المخدوم قلاوون والأمير عز الدين يوغان الركني [1]، وأوضح خط سيرهم "ودخلوا درب ساك منه إلى الدربند" وطبيعة الأحوال في بلاد الأرمن آنذاك لا سيما تنازل الملك هيثوم بن قسطنطين لولده ليفون عن الملك، وبناء الملك الجديد ليفون الأبراج ليمتنع بها أمام غارة الدولة المملوكية[2]. ثم ينتقل بيبرس المنصوري لتقديم معلومات قيمة عن كيفية الالتقاء بين الطرفين في موقعة"سيس"، ذاكراً أهم ما ترتب عليها من نتائج سلبية ضد الأرمن لا سيما أسر ملكهم ليفون وولده، وقتل أقاربه، وانهزام عمه كند اصطبل -الذي سيأتي الحديث عنه تالياً- فضلاً عن إشارته إلى أهم المدن الأرمنية التي تم فتحها في أعقاب تلك الموقعة خاصة عاصمتهم سيس التي يقدم بيبرس المنصوري وصفاً لكيفية دخول القوات الإسلامية لها "... وغارت العساكر على كرنجيل وسرفندكار وعلى تل حمدون ونهر جهان، ونزلوا من هناك لمكان قريب يسمى العمودين فأصابوا جماعة من تتر وغيرهم ، فقتلوا ما شاء الله منهم وسبوا سباياهم وأخربوا القلعة وأحرقوها، ودخلوا إلى سيس، فأخربوها وتركوها خاوية على عروشها، وهدموا قلعة الديوية المعروفة بالتينات، وغنمت العساكر في هذه الغزاة ما لا يحصى كثرة"[3].

كما يزودنا بيبرس المنصوري بمعلومات هامة عن كيفية إخبار السلطان الظاهر بالنصر في تلك الغارة، حيث يحدد اسم الجندي الذي أوصل إليه الخبر من قبل الأمير عز الدين سم الموت وهو "كرخي"، وقد ركز بيبرس المنصوري أثناء حديثه عن هذا الجندي على كيفية إيصاله للخبر وتعامل السلطان معه وإنعامه عليه بإمرة

(1) المنصوري، زبدة الفكرة، ص 104؛ المنصوري، التحفة، ص 58؛ المنصوري، مختار، ص32-33.

(2) المنصوري، زبدة الفكرة، ص 105؛ المنصوري، التحفة، ص 58؛ المنصوري، مختار، ص32-33.

(3) المنصوري، زبدة الفكرة، ص 105؛ المنصوري، التحفة، ص 58 المنصوري، مختار ، ص32 -33.

طبلخاناة[1]. كما أمدنا بيبرس المنصوري بمعلومات غنية عن كيفية التقاء السلطان الظاهر بالقوات الإسلامية العائدة من سيس في قارا، والقيام بتسلم أسرى الأرمن وحملهم معه لمصر [2]، مبرزاً لكيفية تعامل السلطان الظاهر مع ملكهم ليفون الذي كتب له موادعة على بلاده لسنة[3].

أما عن مصير كند اصطبل عم صاحب سيس المذكور آنفاً، فيلاحظ أن بيبرس المنصوري قد ركز في ثنايا مادته التاريخية على تتبع أخباره بعد هروبه من وقعة سيس الآنفة الذكر، حيث ذكر أنه كان في إمارة أنطاكية الصليبية، و بيّن دوره في مواجهة الدولةالمملوكية حين قيامهابغزو الإمارة المذكورة عام 666هـ/1267م وخرّج منها جماعة منهم كند اصطبل عم صاحب سيس ... فالتقوا مع الجاليش المنصور، فاستظهر الجاليش عليهم، وأسر الكند .."[4]. كما يزودنا بيبرس المنصوري بمعلومات هامة عن دور الكند في تحذير أهل أنطاكية من السلطان وقواته "...وسأل هذا الكند [السلطان] أن يدخل إلى أنطاكية، ويتحدث مع أهلها وينذرهم ويحذرهم، وأحضر ولده رهينة على ذلك، فلم تغن شيئاً "[5]. إضافة لذلك يذكر بيبرس المنصوري كيف قام السلطان الظاهر بإطلاق سراح الكند وأهله وأقاربه وإرجاعهم لبلدهم سيس[6].

ولم يغفل بيبرس المنصوري ما كان يشوب تلك السياسة من علاقات ودية مع الأرمن، فقد ذكر بيبرس المنصوري أنه في أعقاب تلك الغارة على سيس بسنتين (666-667هـ/1267-1268م) تقرر الصلح بين السلطان الظاهر وصاحب سيس التكفور بن هيثوم، حيث أعطى انطباعاً واضحاً عن شروط ذلك الصلح، وال متمثلة

---

(1) المنصوري، زبدة الفكرة، ص105.

(2) المنصوري، زبدة الفكرة، ص105؛ المنصوري، التحفة، ص58.

(3)المنصوري، زبدة الفكرة، ص 106؛ المنصوري، التحفة، ص 59؛ المنصوري، مختار، ص32-33.

(4) المنصوري، زبدة الفكرة، ص111.

(5) المنصوري، زبدة الفكرة، ص111.

(6) المنصوري، زبدة الفكرة ، ص114.

بإطلاق السلطان الظاهر ولد صاحب سيس المأسور عنده مقابل إطلاق سراح الأمير شمس الدين سنقر الأشقر من قبضة المغول الإيلخانيين، فضلاً عن استرداده القلاع التي أخذها صاحب سيس من المملكة الحلبية ، وقد بيّن بيبرس المنصوري أن هذه الشروط قد تم تنفيذها [1]. كما أبرز بيبرس المنصوري في مادته التاريخية ما ترتب على تلك العلاقة من قبول السلطان الظاهر وساطة التكفور بن هيثوم صاحب سيس في تحقيق الصلح بينه وبين أبغا إيلخان المغول عام 667هـ/1268م[2].

2. أما غارة الدولة المملوكية الثانية تجاه سيس وأعمالها عام 673هـ/1274م، فقد أوجز بيبرس المنصوري في ذكر أحداثها دون أن يفصل فيها، بحيث اكتفى بذكر جوهر الفكرتوجّه عسكر حلب إلى بلاد سيس، وأغاروا عليها وعلى مرعش، وقلعوا أبواب ربضها "[3]. ويبدو أن هذا الاقتضاب يأتي انسجاماً مع تسمية مؤلفه "زبدة الفكرة". أي أنه يكتفي بذكر لب الفكرة في أغلب الأحداث التاريخية.

3. تبع ذلك غارة أخرى للدولة المملوكية تجاه سيس وأعمالها في العام نفسه، فبدراسة مادة بيبرس المنصوري المتعلقة بهذه الغارة يتضح أنه يغطي مجرياتها بدقة، لأن معلوماته عنها مبنية على ما شاهده بأم عينية باعتباره أحد المشاركين فيها، فقد ذكر أسماء الأمراء الذين جعل لهم قيادة الغارة وهم؛ الأمير المخدوم قلاوون والأمير بدر الدين بيليك الخزندار، إضافة لذلك يذكر بيبرس المنصوري كيفية دخولهم المصيصة أحد أعمال عاصمة الأرمن سيس - مبرزاً لسياستهم تجاه أهلها "فهجمت العساكر عليها عند فتوح أبوابها، فملكوها وقتلوا من بها، وملكوا الجسر..."[4]. ثم يركز بيبرس المنصوري على دور السلطان الظاهر

---

(1)المنصوري، زبدة الفكرة، ص 115؛ المنصوري، التحفة، ص 64؛ المنصوري، مختار، ص37.

(2) المنصوري، زبدة الفكرة، ص117 -118؛ المنصوري، التحفة، ص65.

(3)المنصوري، زبدة الفكرة، ص 144؛ المنصوري، التحفة، ص 80؛ المنصوري، مختار، ص53.

(4) المنصوري، زبدة الفكرة، ص144؛ المنصوري، التحفة، ص80.

فيها، ذاكراً لكيفية أعداده المراكب وحملها على الجمال لغزوها من جهة البحر - أي سيس - وكيفية وصوله في أثرهم، ودخول سيس وتخريبها دون الحاجة لتلك المراكب[1].ناهيك عن أبرازه لأهم المدن الأرمنية التي تم دخولها بعد فتح سيس، موضحاً لسياسة السلطان ودولته فيها "... ووصل دربند الروم، ووصلت بعوثه إلى إياس والبرزين وأذنه، وقتلوا وغنموا ... ولما عاد إلى المصيصة راجعاً من الدربند أمر بإحراق جانبيها، فأحرقت وتحكمت عساكره في كل ما حوت ..."[2]. وأخيراً أوضح بيبرس المنصوري كيفية خروج السلطان الظاهر لمرج أنطاكية وتوزيعه الغنائم التي حصلها من فتح سيس وأعمالها على عساكره[3].

4. تابع السلطان السعيد بركة نهج والده السلطان الظاهر تجاه سيس، فقد تم إرسال الغارة الرابعة تجاهها في عهده عام 677هـ/1278م، ويستشف من مادة بيبرس المنصوري عن هذه الغارة أنه يركز الحديث على الهدف منها دون أن يدخل في تفاصيل أحداثها، حيث ذكر كونه كان شاهد عيان أن السلطان السعيد "لما استقر بمدينة دمشق فرق العساكر، فسيّر فرقة صحبة الأمير بدر الدين بيسرى الشمسي إلى جهة قلعة الروم، وفرقة إلى بلاد سيس صحبة الأمير المخدوم، وسيّر معه خزانة برسم نفقات العساكر، فأنفق فيهم بحلب، ثم ساروا إلى سيس، وسار بدرالدين بيسرى إلى قلعة الروم، وكان القصد بتفريقهم التمكن من التدبير عليهم، فلما أبعدوهم إلى هذه الجهات، وفرقوهم بحجة الغارات قرروا [خاصكيته] مع الملكالسعيد القبض عليهم عند عودهم ..."[4]. وسيأتي الحديث عن هذه المؤامرة التي دبرها السلطان السعيد وخاصكيته ضد الأمراء الكبار في الدولة المملوكية بشكل مفصل عند الكلام عن سياسة الدولة الداخلية تالياً.

---

(1) المنصوري، زبدة الفكرة، ص144؛ المنصوري، التحفة، ص81.

(2) المنصوري، زبدة الفكرة، ص144 -145؛ المنصوري، التحفة، ص81.

(3) المنصوري، زبدة الفكرة، ص145؛ المنصوري، التحفة، ص81.

(4)المنصوري، زبدة الفكرة، ص 166؛ المنصوري، التحفة، ص 88؛ المنصوري، مختار، ص66.

5. اتبع السلطان المنصور قلاوون نهج أسلافه لا سيما السلطان الظاهر وولده السلطان السعيد في عدائيه للأرمن، فقد أشار بيبرس المنصوري إلى غارة الدولة المملوكية في عهده تجاه سيس وأعمالها عام 682هـ/1283م، وقد ركز بيبرس المنصوري حين أرخ لها على دور المملكة الحلبية في تبني حركة الجهاد ضدهم، فقد أوضح كيفية تحريض السلطان المنصور قلاوون لنائبها في توجيه غاراته تجاهها ذاكراً السبب في ذلك "... نكاية في حق ليفون صاحبها لما كان قد ارتكبه في نوبة حمص من الفساد في حلب، وإحراق جامعها ..."[1]. وبالإضافة لذلك يذكر بيبرس المنصوري كيفية مشاركة القوات المصرية القوات الشامية في دخول العاصمة الأرمينية "سيس" بالقوة، مع ذكره ما أعقب دخولها من مهاجمة لمدينة إياس -أحد أعمالها- وتوضيحه السياسة التي اتبعوها فيها "وقتلوا من أهلها جماعة، ونهبوها وخربوها وباتوا قريباً منها ...". فضلاً عن ذكره ما كان بعد ذلك من التقاء القوات الإسلامية وعسكر سيس بالقرب من باب اسكندرونة، وانتصار القوات الإسلامية عليهم[2].

6. تتبع بيبرس المنصوري دور المملكة الحلبية العسكري في الإغارة على بلاد الأرمن في العام ذاته، حيث أوضح بإيجاز كيفية أشارة السلطان المنصور قلاوون على نائبها بالإغارة عليها[3]، كما بين كيفية استجابة نائبها للسلطان، وتسييره حملة عسكرية تجاه قلعة التينات، وتصويره لسياستهم تجاه أهلها "... فنزلوا عليها ونازلوها ورموها بالمنجنيقات، وأخربوا برجاً من أبراجها، وبدنة من أسوارها، فصاح أهلها الأمان، وطلبوا من يتحدث معهم، فتوجه إليهم اثنان من الحلقة الحلبية، وتحدثا معهم، فتقرر الحال على أن يقوموا بسبعة عشر ألف درهم برسم تطابيق الخيول، وعجلوا منها ألفي درهم، وأعطوا رهينة على بقية المبلغ"[4].

(1) المنصوري، زبدة الفكرة، ص231؛ المنصوري، التحفة، ص108.
(2) المنصوري، زبدة الفكرة، ص231.
(3) المنصوري، زبدة الفكرة، ص240.
(4) المنصوري، زبدة الفكرة، ص240؛ المنصوري، التحفة، ص109.

يستطرد بيبرس المنصوري بعد ذلك، حيث يوضح كيفية اشتباك القوات الحلبية مع قراغول المغول الواصلين لبلاد الأرمن،وكيفية الانتصار عليهم[1]، ثم يعود من جديد ليتحدث عن كيفية تخريب قلعة التيني، ومصير أهلها "فلم تتمكن الأرمن من الإقامة بها بعد ذلك"[2].

7. لم يقف بيبرس المنصوري في تتبعه لغارات الدولة المملوكية تجاه الأرمن عند هذا الحد، بل يلحظ أنه قدم معلومات مهمة تتعلق بغ ارتي الدولة المملوكية تجاه سيس وأعمالها عام 697هـ/1297م ففي الغارة الأولى بيّن كيفية قيام السلطان المنصور لاجين ونائبه سيف الدين منكوتمر بتجريد ثلاثة فرق عسكرية لغزو سيس، مبرزاً فيها الهدف منها وهو تفريق الأمراء وتشتيتهم لتصفوا لهما الأجواء -هذه المؤامرةسيأتي الحديث عنها تالياً - كما أبرز أسماء الأمراء الذين تم تجريدهم فيها، وكيفية دخولهم سيس وتخريبها، ناهيك عن ذكره لأهم المدن الأرمينيةالتي تم اجتياحها في أعقاب دخولهم سيس "... وفتحوا تل حمدون والمصيصة وحموص وقلعة نجم وسرونذكار وحجر شغلان، وعادوا من هذه الغزاة إلى مدينة حلب، فأقاموا بها..."[3].

8. أما ثانيها، فقد مهد بيبرس المنصوري في تأريخه لها، بذكر الأوضاع السياسية التي دفعت السلطان المنصور لاجين للقيام بها لا سيما كيفية وفود سلامش بن أفاك التتري-بعد مراسلات عديده مع السلطان المنصور لاجين - من البلاد المشرقية إلى مصر مستأمناً من غازان الذي كان ينوي قتله، وذكره لكيفية حضوره لحلب وتجهيزه وإرساله منها للسلطان الذي استقبله وأكرمه[4].

يتابع بيبرس المنصوري أحداث تلك الغارة، فيذكر كيفية تجريد حملة عسكرية من حلب بأمر من السلطان المنصور لاجين تجاه سيس، موضحاً ال سبب المباشر لذلك، وهو إحضار أهل سلامش بن أفاك التتري منها من جهة، وكيفية اتحاد الأرمن

(1) المنصوري، زبدة الفكرة، ص240؛ المنصوري، التحفة، ص109.
(2) المنصوري، زبدة الفكرة، ص240.
(3) المنصوري، زبدة الفكرة، ص316؛ المنصوري، مختار، ص106.
(4) المنصوري، زبدة الفكرة، ص319.

والمغول الموجودين في سيس ضد الحملة الإسلامية والانتصار عليها من جهة أخرى، وفرار سلامش بن أفاك لقلعة الروم، ثم القبض عليه من قبل غازان وقتله، وبقاء أخيه قطقطوا في مصر[1].

9. أما عن غارة الدولة المملوكية تجاه سيس عام 701هـ/1301م، فيلحظ أن بيبرس المنصوري قد اقتضب في حديثه عنها، فقد ذكر أنه تم تجريد الأمير بدر الدين بكتاش الفخري أمير سلاح والأمير عزالدين أيبك الخزندار ومضافوهما من الأمراء إلى جهة سيس في شهر رمضان[2]، متجاهلاً مجريات أحداثها وما ترتب عليها من نتائج، ويبدو أن عدم تتبعه لها ناجم عن افتقاره لمصدر يروي له أحداثها من جهة، وذهابه في أعقابها لأداء فريضة الحج الأمر الذي حال دون إطلاعه على مجرياتها من جهة أخرى[3].

10. بهذه الأحداث يسلط بيبرس المنصوري الضوء على أحداث غارة الدولة المملوكية في عهد السلطان الناصر محمد تجاه سيس عام 705هـ/1305م، وفي هذا الجانب من تغطيته يسهب بيبرس المنصوري في الحديث عنها باعتبار أنه كان شاهد عيان بها بل ومشاركاً بها، فقد وضح بيبرس المنصوري دور نائب حلب الأمير شمس الدين قراسنقر المنصوري في تجريده حملة عسكرية تجاه سيس ذاكراً السبب المباشر لها "وذلك أن صاحبها أخّر حمل المال المقرر عليه، وقطع القطيعة، فاقتضى الحال مقابلته بما يغض طرفه ويرغم انفه"[4]. كما أوضح أسماء أغلب الأمراء الحلبيين الذين خرجوا فيها مع تتبعه لكيفية دخول الغارة سيس واشتباكها مع المغول القاطنين فيها، وما ترتب على الاشتباك من انهزام القوات الإسلامية، وأسر أغلب أمرائهم[5]، فضلاً عن توضيحه موقف صاحب سيس الخور من انهزام القوات الإسلامية"... فلما جرت هذه الواقعة

---

(1) المنصوري، زبدة الفكرة، ص319.
(2) المنصوري، زبدة الفكرة، ص364؛ المنصوري، مختار، ص120.
(3) المنصوري، زبدة الفكرة، ص364.
(4) المنصوري، زبدة الفكرة، ص383؛ المنصوري، التحفة، ص177.
(5) المنصوري، زبدة الفكرة، ص383؛ المنصوري، التحفة، ص177.

استشعر صاحب سيس الخور، وتحقق وقوعه في الغـــرر، وأيقـــن أنـــه مـــن السطوات الشريفة على خطر، فأرسل إلى الأمير شمس الدين قراسنقر رســـلاً يبذل الطاعة ويذكر الإنابة والقيام بما عليه مـــن القطيعـــة، ويســـأل الصـــفح والإغضاء والمسامحة والإعفاء ..."[1]. كما يوضح بيبرس المنصوري في أثـــر تلك المراسلات بين نائب حلب وصاحب سيس كيفية مراســـلة الأول للســـلطان الناصر محمد يخبره بطلب صاحب سيس الآنف الذكر، مبرزاً بعد ذلك لموقف السلطان السياسي من طلبه"... فاقتضى الحال أن يجرد عســـكر إلـــى حلـــب، ويكتب لصاحب سيس بأنه أجيب إلى ما طلب، فأن حقق قوله بفعله وحمل مـــا جرت عادته بحمله أعفي من الإغارة، وكفي من الاستثارة، وأن سوّف وتوقـــف كانت الجيوش قريبة من إرهاقه متمكنة من خناقة"[2].

أما عن الحملة التي أعدها السلطان الناصر محمـــد للتوجـــه لحلـــب لإخضـــاع صاحب سيس في حالة عدم تنفيذه ما طلب منه، فيلاحظ أن بيبرس المنصوري يورد معلومات هامة عنها لم نجدها عند غيره من المؤرخين المعاصرين، وذلـــك يعـــود لكونه كان مشاركاً فيها، فقد كان بمثابة المستشار لقائد تلك الحملة الأمير بدر الدين بكتاش الفخري أمير سلاح [3]، حيث أوضح كيف كان تقدمهم من مصر إلى غـــزة، وكيفية مراسلة نائب حلب لصاحب سيس يهدده بالحملة التي أرسلها السلطان الناصر محمد أن لم ينفذ مطالبه، ناهيك عن توضيحه لموقف صاحب سيس منها ، ذلك أنـــه أذعن لتلك المطالب الأمر الذي دفع السلطان نظراً لاستجابته إلى مراســـلة أمـــراء الحملة بالعودة لمصر، وهذا ما حصل حسب قول بيبرس المنصوري[4].

بعد تلك الغارة دخلت الدولة المملوكية في علاقتها مع الأرمن مرحلة جديدة من التطور القائم على الود نظراً لتأدية ملكهم القطيعة المفروضة على عاصمتهم سيس، فقد بيّن بيبرس المنصوري ذلك بإيجاز، فذكر أنه في عام 706هـــ/1306م وصلت

(1) المنصوري، زبدة الفكرة، ص383 -384؛ المنصوري، التحفة، ص177.

(2) المنصوري، زبدة الفكرة، ص383؛ المنصوري، التحفة، ص177-178.

(3) المنصوري، زبدة الفكرة، ص384؛ المنصوري، التحفة، ص178.

(4) المنصوري، زبدة الفكرة، ص384؛ المنصوري، التحفة، ص178.

رسل صاحب سيس بالقطيعة المفروضة عليهم للدولة المملوكية [1]. كما ذكر أنه في عام 707هـ/1307م وصل شخص من مماليك الأمير شمس الدين قراسنقر نائب حلب من بلاد سيس التي ذهب إليها للمطالبة بالقطيعة التي جرت العادة على أخذها من صاحبها[2] فضلاً عن إشارته لوصول رسل صاحب سيس عام 708هـ/1308م إلى مصر ومعهم الهدايا، وتصويره لكيفية استقبال السلطان الناصر محمد لهم، وأعادتهم لبلادهم [3]؛ إضافة لإيراده معلومات قيمة تتعلق بوصول رسول صاحب سيس بالقطيعة المفروضة عليه، وإحضار هديه معه للسلطان الناصر محمد الذي أكرمه وأعاده لبلاده[4].

5.3 السياسة تجاه مغول القبيلة الذهبية

في ضوء دراسة الباحث لمادة بيبرس المنصوري التاريخية المتعلقة بالسياسة المملوكية تجاه مغول القبيلة الذهبية، يتبين أنها سياسة كانت تقوم على أساس ودي، يظهر ذلك من خلال السفارات والزيارات المتبادلة بين الدولتين، والبالغة حسب المسح الدقيق لها عشر سفارات.

ابتدأت تلك السفارات والزيارات والمكاتبات بين الدولتين منذ عام 659هـ/1260م، فقد عمل السلطان الظاهر في العام المشار إليه كما يتضح من مادة بيبرس المنصوري على تعميق علاقته مع بركة خان ملك القبيلة الذهبية من خلال الكتاب الذي بعثه للأخير يحثه ويحرضه فيه ضد هولاكو، ويعرفه أن جهاده واجب عليه إذا كان قد دخل الإسلام[5].

---

(1) المنصوري، زبدة الفكرة، ص388.

(2) المنصوري، التحفة، ص183.

(3) المنصوري، زبدة الفكرة، ص402.

(4) المصدر نفسه، ص413.

(5) المصدر نفسه، ص70.

جاء الرد على كتاب السلطان الظاهر عام 661هـ/1262م، فقد بعث بركة خان ملك القبيلة الذهبية سفارة برئاسة الأمير جلال الدين ابن القاضي والشيخ نور الدين علي تحمل كتاباً كان أبرز ما ركز عليه بيبرس المنصوري فيه ما يلي:

1. ذكر أسماء من أسلم من بيوت المغول وتفصيلهم بقبائلهم وعشائرهم وأنفارهم وعساكرهم وصغيرهم وكبيرهم[1].
2. كما بيّن في هذا الكتاب كيفية إخبار ملك القبيلة الذهبية بركة خان السلطان المملوكي الظاهر بمحاربة هولاكو والانتصار عليه، وإرساله ابن شهاب الدين غازي كشاهد عيان على الوقعة التي كانت بينهما "... فليعلم السلطان أني حاربت هولاكو الذي من لحمي ودمي لإعلاء كلمة الله العليا تعصباً لدين الإسلام، لأنه باغ والباغي كافر بالله ورسوله، وقد سيرت قصادي ورسلي صحبة رسل السلطان وهم اربوغا وارتيمو واونا ماس، ووجهت ابن شهاب الدين غازي معهم، لأنه كان حاضراً في الوقعة ليحكي للسلطان ما رآه بعينه من عجائب القتال..."[2].
3. إضافة لذلك يورد بيبرس المنصوري معلومات قيمة عن كيفية إشادة ملك القبيلة الذهبية بالسلطان الظاهر على إحيائه للخلافة العباسية ومحاولته استرداد العراق من المغول الايلخانيين لإعادة الخلافة إليها "... ثم لنوضح لعلم السلطان أنه موفق للخيرات والسعادات لأنه أقام أماماً من آل عباس في خلافة المسلمين وهو الحاكم بأمر الله، فشكرت همته وحمدت الله تعالى على ذلك لا سيما لما بلغني توجهه بالعساكر الإسلامية إلى بغداد واستخلاص تلك النواحي من أيدي الكفار"[3].

يعقب بيبرس المنصوري أثر المعلومات السابقة أن الكتاب الواصل من ملك القبيلة الذهبية للسلطان الظاهر هو: "كتاب مطول مشتمل على إسهاب وإطناب هذا

(1) المنصوري، زبدة الفكرة، ص82؛ المنصوري، التحفة، ص52.
(2) المنصوري، زبدة الفكرة، ص82-83؛ المنصوري، التحفة، ص52.
(3) المنصوري، زبدة الفكرة، ص83.

من جملته"[1]. لينتقل بعدها لإيراد معلومات بشيء من الاتساع عن كيفية دخول ملك القبيلة الذهبية الإسلام[2].

كما تناول بيبرس المنصوري في مادته التاريخية كيفية تعامل السلطان الظاهر مع مبعوثي ملك القبيلة الذهبية الواصلين إليه"..فأكرم السلطان رسل بركة ..."[3]. وكيفية رد السلطان الظاهر على سفارتهم بإرسال الهدايا لبركه خان، وقد أورد بيبرس المنصوري معلومات مفصلة عن فحوى تلك الهدايا "... وجهز لبركة من الهدايا من كل شيء مستحسن وهي ختمة شريفة ذكر أنها خط عثمان ابن عفان نمزلوقات وسجادات للصلاة متنوعة الألوان، خرق بندقي واكسيه لواثية ودسوت من النطوع المصردقة والأديم، سيوف قلجورية مسقطة ودبابيس مذهبة وخوذ فرنجية وطوارق مذهبة فوانيس مغشاة شمعدانات ومنجنيقات بأغشية ومشاعل جفتاة، وقواعد برسمها قلفتة سروج خوارزمية وغازينات ولجم كل ذلك بأنواع السقط الذهب والفضة قسي حلق وقسي بندق وقسي جروخ ورماح قنا وأسنة ونشاب في صناديقه قدور برام و قناديل مذهبة بسلاسل فضة مطلاه بالذهب وخدام سود وجوار طباخات وخيل سوابق عربية وهجن نوبية ودواب فارهة ونسانيس وبغابغ وغير ذلكوألبس رسله الفتوة و أعادهم في شهر رمضان منها أي في عام 661هـ/1262م"[4].

أعقب إرسال السلطان الظاهر الهدايا لبركة خان وفود جماعة من مغول القبيلة الذهبية عددهم زهاء ألف نفس إلى مصر ذكر بيبرس المنصوري أسماء بعضهم، وبيّن السبب في قدومهم"... وهولاء [هؤلاء] كانوا من أصحاب بركة، وكان قد أرسلهم إلى هولاكو نجدةً، فأقاموا عنده مدةً، فلما وقع بينه وبين بركة، وتمكنت العداوة كتب بركة إليهم بأن يفارقوا هولاكو، ويحضروا إليه، وإن لم يتمكنوا من

---

(1) المنصوري، زبدة الفكرة، ص83.
(2) المصدر نفسه، ص83.
(3) المصدر نفسه، ص83.
(4) المصدر نفسه، ص83 -84.

التوجه إليه، فيحازوا إلى عساكر الديار المصرية "(1). كما بيّن كيف تم التعامل معهم حين وصولهم أراضي دولة المماليك البحرية عام 661هـ/ 1262م"ولما وصلوا أسلموا وطهروا، وقُدّم كبراؤهم ... وأمرّوا وعينت لهم الإقطاعات والطبلخانات، وافيضت عليهم الصلات والخلع والهبات وأنزلهم باللوق"(2).

لم تنقطع العلاقات الودية بين دولة القبيلة الذهبية ودولة المماليك البحرية بعد وفاة ملكها بركة خان بدليل ما أورده بيبرس المنصوري من معلومات قيمة تؤكد استمرار تلك العلاقة الودية، فقد ذكر بإيجاز كيف أن السلطان الظاهر كتب في أعقاب وفاة بركه خان إلى منكوتمر القائم مقامه كتاباً عام 666هـ/1267م يعزيه فيه بوفاة بركه ويهنئه بتسلمه ملك القبيلة الذهبية، ويغريه فيه بمحاربة ولد هولاكو "أبغا"(3).

ومع أن بيبرس المنصوري لم يذكر أية معلومة عن كيفية رد ملك القبيلة الذهبية منكوتمر على كتاب السلطان الظاهر، إلا أنه من الواضح أن الكتاب المختصر الذي بعثه بيسو نوغاي قريب بركه، وأكبرمقدمي جيوشه عام 669 هـ/1270م للسلطان الظاهر يعكس أمرين؛ الأول دخول مغول القبيلة الذهبية بما فيهم بيسو نوغاي المشار إليه الإسلام (4)، وثانيهما رغبة مغول القبيلة الذهبية في استمرار العلاقة الجيدة التي ابتدأها ملكهم بركة خان مع دولة المماليك البحرية والقائمة على استمرار تبادل السفارات الودية بينهما من جهة، وعداء من يعاديها من جهة أخرى(5).

حرص السلطان الظاهر على اغتنام الفرصة لتعميق علاقته مع مغول القبيلة الذهبية أثر الكتاب الواصل إليه من بيسو نوغاي، حيث كتب للأخير -كما يذكر

(1) المنصوري، زبدة الفكرة، ص84- 85.
(2) المنصوري، زبدة الفكرة، ص84- 85.
(3) المنصوري، زبدة الفكرة، ص109.
(4) المنصوري، زبدة الفكرة، ص131؛ المنصوري، التحفة، ص71.
(5) المنصوري، زبدة الفكرة، ص131؛ المنصوري، التحفة، ص71.

بيبرس المنصوري جواباً تضمن الإشادة في بيسو نوغاي كونه يسير على نهج بركه خان، ويحثه فيه على استكمال ما ابتدأه الأخير في جهاد المغول الإيلخانيين[1].

ويبدو أن بيبرس المنصوري لم يورد كافة المعلومات التي تضمنها هذا الجواب بل ركز على ما تم ذكره آنفاً، ودليل ذلك يستشف من كلامه في نهاية هذا الجواب " تونته تتضمن الأشلاء على التتار والإغراء بهم "[2]. ويظهر أنه أراد من ذلك الاختصار والاقتضاب بما يتوافق مع تسمية مؤلفه زبدة الفكرة.

تابع بيبرس المنصوري تطور العلاقات بين دولة المماليك البحرية ودولة القبيلة الذهبية بعد وفاة السلطان الظاهر، حيث ذكر أن السلطان المنصور قلاوون قام عام 681هـ/1282م بإرسال سفارة لبيت بركة خان برئاسة شمس الدين سنقر الغتمي وسيف الدين بلبان الخاص تركي محملة بالقماش النفيس الذي يزودنا بيبرس المنصوري بمعلومات مهمة عن كيفية توزيعه على مغول القبيلة الذهبية: "وسير معهما ست عشر تعبية من القماش النفيس منها ما هو لمنكوتمر وما هو لاوكجي أخيه وما هو لتتا منكو وما هو لنوغاي ... وما هو للخواتين وهن ججك خاتون وألجي خاتون وتوتلين خاتون ...ومنه ما هو للأمراء وهم الأمير ماوو أمير ميسرة والأمير طيرا أمير الميمنة ..."[3] كما زودنا بمعلومات عن الظروف التي وافقت وصول رسل السلطان المنصور قلاوون، وكيفية تعاملهم معها "فلما وصل الرسولان وجدا منكوتمر قد مات، وقد جلس تدان منكو في الملك، فقدموا إليه الهدية فقبلها وفرح بها، ووردت كتب الرسل إلى الأبواب السلطانية مخبرة بذلك"[4].

رداًعلى سفارة السلطان المنصور قلاوون ، أرسل تدان منكو سفارة عام 682هـ/1283م برئاسة فقيهين من فقهاء القفجاق أحدهم يسمى مجدالدين أطا والأخر نورالدين، وقد ذكر بيبرس المنصوري السبب في إرسال هذه السفارة "وأحضرا [الفقيهان] على أيديهما كتاباً من جهته [تدان منكو] بالخط المغلي فعُرب،

---

(1) المنصوري، زبدة الفكرة، ص131 -132؛ المنصوري، التحفة، ص71.

(2) المنصوري، زبدة الفكرة، ص132.

(3) المنصوري، زبدة الفكرة، ص227 -228.

(4) المنصوري، زبدة الفكرة، ص227 -228.

فكان مضمونه الإعلام بدخوله في دين الإسلام وجلوسه على التخت، وإنه أقام شرائع الدين ونواميس المسلمين، وأوصى على الفقهاء الواصلين، وإن يساعدوا على الحج المبرور الذي جاؤوا له قاصدين، وذكروا من ألسنتهم أنه سأل السلطان أن ينعته نعتاً يتسمى به من أسماء المسلمين، وعلماً سلطانياً يقاتل بهما أعداء الدين"[1].

استجابة لمطالب تدان منكو ملك القبيلة الذهبية قام السلطان الظاهر كما يذكر بيبرس المنصوري بتجهيز الفقهاء الواصلين مع الكتاب إلى الحجاز لأداء فريضة الحج، وبعد عودتهم منها أعادهم السلطان الظاهر لبلادهم[2]. كما بعث في أثرهم سفارة برئاسة سيف الدين بلبان الحلبي ومظفر الدين موسى بن نمرش الى تدان منكو[3] وبمعيتهم جواب السلطان الظاهر على كتاب تدان منكو، وقد تضمن الجواب حسب ما دونه بيبرس المنصوري باقتضاب على إخبار تدان منكو بالمسرة التي حصلت للسلطان الظاهر بسبب إسلامه[4].

لم يذكر بيبرس المنصوري بعد هذه السفارة أية معلومات عن سفارات أخرى بين الدولتين بين سنتي (682-703هـ/1283-1303م)، ويبدو أن ذلك يعود لعدم الاستقرار الداخلي لدولة المماليك البحرية (الصراع على السلطنة) خلال هذه الفترة الأمر الذي حال دون استمرار الروابط الوثيقة (السفارات) بين الدولتين. ومع ذلك يلحظ أن بيبرس المنصوري يذكر أن السفارات بدأت تعود بين الدولتين منذ عام 704هـ/1304م، يتبيّن ذلك من خلال السفارة التي بعثها ملك القبيلة الذهبية طقطا برئاسة قرقجي إلى السلطان الناصر محمد الذي يوضح بيبرس المنصوري كيفية تعامله مع هذه السفارة ورئيسها "فأكرم غاية الإكرام [أي قرقجي]، وأنزل بمنظرة الكبش في خير مقام، ووصل بكثير من الإنعام وتفرج في الجيزة والأهرام، وأعيد جوابه، وجهز إلى مرسله بأنواع التحف والهدايا واللطف"[5].

---

(1) المنصوري، زبدة الفكرة، ص234؛ المنصوري، التحفة، ص108.

(2) المنصوري، زبدة الفكرة، ص234.

(3) المنصوري، زبدة الفكرة، ص239.

(4) المنصوري، التحفة، ص108- 109.

(5) المنصوري، زبدة الفكرة، ص381.

وقد ذكر بيبرس المنصوري أن السلطان الناصر محمد حين جهز مبعوث طقطا، أرسل سفارة بمعيته برئاسة الأمير سيف الدين بلبان الصرخدي إلى ملك القبيلة الذهبية طقطا[1] الذي لم يذكر بيبرس المنصوري معلومات عن ماهية الكتاب الواصل إليه مع رسول السلطان وكيفية استقباله لهذه السفارة وتعامله معها بل يلحظ أنه ينتقل لذكر أن رسل السلطان الظاهر، وهم الأمير سيف الدين بلبان الصرخدي والأمير سيف الدين بلبان الحكيمي وفخرالدين أمير أخور الشمسي تم إعادتهم لمصر عام 706هـ/1305م وبمعيتهم رسول من طقطا أسمه نامون الذي تم إكرامه، وأعيد جواب رسالته القادم بها للسلطان الناصر محمد [2] والتي أغفل بيبرس المنصوري ماهية فحوها، لـ يركز على أن السلطان الناصر قام بإرسال سفارة برئاسة سيف الدين بكمش الخزنداري وفخرالدين اياز أمير أخور الشمسي بمعية نامون إلى ملك القبيلة الذهبية طقطا[3]، والتي لم تلبث أن عادت تلك السفارة لمصر في العام المشار إليه آنفاً بخلف المعلومة التي استقاها بيبرس المنصوري من شاهد عيان كان في تلك السفارة وهو سيف الدين الحكيمي[4].

بعد السفارة الأنفة الذكر لم يعد بيبرس المنصوري يزودنا بمعلومات عن تلك السفارات والزيارات بين الدولتين، ويبدو أن ذلك يعود لتوتر الأوضاع الداخلية لدولة المماليك البحرية(الصراع بين السلطان الناصر وكلٍ من الأمير بيبرس الجاشنكير والأمير سلار) الذي يلحظ من خلال مؤلفات بيبرس المنصوري أنه بعد عام 706هـ/1305م يركز على تدوين تلك الأحداث كونه شاهد عيان عليها بدلاً من تدوين علاقات الدولة الخارجية.

(1) المنصوري، زبدة الفكرة، ص381.
(2) المنصوري، زبدة الفكرة، ص388؛ المنصوري، التحفة، ص180.
(3) المنصوري، زبدة الفكرة، ص388.
(4) المنصوري، زبدة الفكرة، ص388.

6.3 السياسة تجاه بيزنطه

سجل بيبرس المنصوري معلومات لا بأس بها عن سياسة الدولة المملوكية تجاه القسطنطينية، فقد بلغ مجموع الروايات التي دونّها فيما يتعلق بهذا الجانب أحد عشر رواية.

ابتدأ بيبرس المنصوري هذه الروايات بتسليط الضوء على سياسة السلطان الظاهر بيبرس تجاه إمبراطور القسطنطينية الأشكري، وقد حظي هذا الجانب لدى بيبرس المنصوري بأكبر عدد من الروايات، إذ بلغ مجموعها ستة روايات أوضح من خلالها اتصالات الدولتين ببعضهما لا سيما بتبادل الهدايا والسفارات والزيارات، ففي عام 659هـ/1260م ذكر بيبرس المنصوري بإيجاز دون أن يفصل كيف أنه وصل رسول الأشكري للسلطان الظاهر يبذل المودة والمساعدة[1]، مع إيراده كيفية رد السلطان الظاهر عليه بإرساله هدية من جملتها الزراف وجماعة من أسرى المغول في وقعة عين جالوت[2].

تابع بيبرس المنصوري تتبعه لسياسة السلطان الظاهر تجاه الإمبراطور الأشكري، فقد أشار بإيجاز إلى السفارة التي كانت بين الطرفين عام 660هـ/1261م، فذكر كيف أنه وصل من عند الأشكري الأمير فارس الدين اقوش المسعودي الذي كان السلطان الظاهر قد وجهه مع بطرك الملكية بمصر للقسطنطينية بناءاً على طلب الأشكري له -أي للبطرك- الذي أعطاه المال والقماش والمصوغ[3]، إضافة لذكره كيف أن البطرك عند عودته لمصر عرض ما منحه الأشكري له على السلطان الظاهر الذي رفض قبول ذلك[4]. كما بيّن بيبرس

---

(1) المنصوري، زبدة الفكرة، ص70.

(2) المنصوري، زبدة الفكرة، ص70.

(3) المنصوري، زبدة الفكرة، ص76؛ المنصوري، مختار، ص22.

(4) المنصوري، زبدة الفكرة، ص76؛ المنصوري، مختار، ص22.

المنصوري موقف السلطان الظاهر من إبقاء الأشكري الجامع الموجود بالقسطنطينية "... فأمر السلطان بأن يجهز له الحصر والستور والقناديل والمباخر والسجادات والطيب"(1).

يستطرد بيبرس المنصوري بعد ذلك، فيتحدث عن المسجد الموجود بالقسطنطينية لا سيما عن الذي قام ببنائه "مسلمة بن عبدالملك" وسنة البناء "58هـ"(2).

وفي عام 661هـ/1262م ذكر بيبرس المنصوري خبراً مقتضباً بوصول سفارة إلى السلطان الظاهر من عند الأشكري، تزامنت مع وصول سفارة أخرى من عند بركة ملك القبيلة الذهبية، وقد أولى بيبرس المنصوري عنايته بتتبع سفارة بركة من حيث كيفية استقبال السلطان الظاهر لها، وتجهيزهم بالهدايا لملكهم، بعكس سفارة الأشكري التي لم يذكر عنها أية معلومة سوى أنه تزامن وصولها مع سفارة بركة وإكرامه لها دون أن يفصل في الحديث عنها كما فعل عندما تكلم عن سفارة بركة(3).

كما أورد بيبرس المنصوري معلومات مقتضبة عن سفارة الأشكري عام 667هـ/1268م تجاه السلطان الظاهر الذي أوضح بيبرس المنصوري موقفه من تلك السفارة"... وكان ببابه جماعة من رسل الفرنج وغيرهم من الملوك، وسفّر صحبتهم هداياه وهم ؛ رسل منكوتمر، ورسل جارلا أخي الريدافرنس، ورسل الأشكري صاحب القسطنطينية"(4).

ومع أن بيبرس المنصوري قد اختصر في تناوله للسفارات السابقة بين الدولتين، بحيث لم يذكر سوى جوهر الفكرة دون التفصيل في الأحداث، فأنه لم يتبع النهج ذاته عند الحديث عن سفارة الدولة المملوكية تجاه القسطنطينية عام 668هـ/1269م، إذ فصل فيها، حيث مهد للحديث عنها بذكر كيفية اعتداء المغول

(1) المنصوري، زبدة الفكرة، ص76؛ المنصوري، مختار، ص22.
(2) المنصوري، زبدة الفكرة، ص76؛ المنصوري، مختار، ص22.
(3) المنصوري، زبدة الفكرة، ص83 -84.
(4) المنصوري، زبدة الفكرة، ص117.

برئاسة منكوتمر على القسطنطينية، ليركز بعدها على موقف رسول السلطان الظاهر الموجود أثناء ذلك بالقسطنطينية - الأمير فارس الدين المسعودي -المشار إليه آنفاً - من هذا الاعتداء وكيفية أبعادهم عنها"... فخرج إلى جيوش التتار، وتحدث مع مقدميهم، وقال : أنا رسول الملك الظاهر صاحب مصر متوجه إلى منكوتمر وانتم تعلمون أن صاحب اصطنبول صلح مع السلطان، وأن مصر اسطنبول واسطنبول مصر وبين أستاذي وأستاذكم الملك منكوتمر صلح فارجعوا من هاهنا، فاغتروا بقوله ورجعوا عن اصطنبول [إسطنبول]..."[1]. ثم يتابع بيبرس المنصوري ليزودنا بمعلومات قيمة عن موقف الاشكري إمبراطور القسطنطينية من رسول الملك الظاهر، وكذلك موقف منكوتمر والملك الظاهر منه "... وأما الفارس المسعودي فأن الأشكري أنعم عليه بمال وقماش، وتوجه إلى منكوتمر فهمّ بضربة لأنه صدّ جيشه عن اصطنبول [إسطنبول] دون بلوغ المأمول، فشفع فيه، فعفا عنه، ولما عاد إلى الملك الظاهر خاف على نفسه من هذه الجريرة، فاتفق وصول بعض التجار، فأخبر السلطان بهذه الأخبار فقبض عليه واعتقله وضربة تأديباً له"[2].

ومع أن بيبرس المنصوري يقل اهتمامه في التأريخ لسياسة الدولة المملوكية تجاه القسطنطينية بعد وفاة السلطان الظاهر، بحيث يذكر خمس روايات في ذلك، فإنه يبيّن من خلالها أن أعقاب السلطان الظاهر من السلاطين قد نهجوا نهجه في سياسته الودية مع القسطنطينية، ففي عهد السلطان المنصور قلاوون أورد بيبرس المنصوري روايتين توضحان تلك السياسة الودية، الأولى تكلم فيها عن سفارة الملك الأشكري الواصلة بالهدايا للسلطان المنصور قلاوون عام 680هـ/1281م بمناسبة جلوسه على عرش مصر، وركز فيها على كيفية مراسلته الأشكري للسماح لرسله بالمرور إلى ملك المغول بالبلاد المشرقية وملك المغول بالبلاد الشمالية لإخبارهما بجلوسه على العرش، لكونه يتحكم بالطرقات المؤدية لهما، ثم يبيّن بيبرس المنصوري كيفية رد الأشكري على ذلك بالسماح لهم بالمرور

(1) المنصوري، زبدة الفكرة، ص126.
(2) المصدر نفسه، ص126.

مع إرسال السلطان رسولاً لأخذ الأيمان منه على ذلك[1]. أما الرواية الثانية، فقد جاءت مكملة للحديث عن السفارة الأنفة الذكر، فقد وضح بيبرس المنصوري فيها كيفية وصول رسل السلطان المنصور قلاوون للقسطنطينية لأخذ الأيمان من صاحبها الأشكري عام 682هـ/1283م كما تقدم ذكره - وكيفية تزامن وصولهم مع وفاة الأشكري و أخذ الأيمان من ولده أنذرونيكوس، وإبرازه لموقف السلطان المنصور قلاوون من الملك الجديد للقسطنطينية بعد أخذ الأيمان "... فجهز السلطان إليه الأمير ناصر الدين محمد بن المحسني الجزري رسولاً بهدية جليلة..."[2].

يستطرد بيبرس المنصوري بعد ذلك، فيتناول بإسهاب كيفية و صول الملك الأشكري لحكم القسطنطينية[3].

ينتقل بيبرس المنصوري بعد تلك الأحداث لتسليط الضوء على كيفية نفي السلطان الأشرف خليل ولدي الملك الظاهر نجم الدين خضر وبدر الدين سلامش (إلى القسطنطينية عام 690هـ/1291م[4]، موضحاً بإيجاز لكيفية استقبال صاحبها لهما "... فلما وصلا إليها أحسن الاشكري إليهما، وأمر بإنزالهما وأجرى عليهما ما يقوم بهما..."[5]. ثم يستكمل بيبرس المنصوري تتبعه لتلك السياسة الودية في عهد السلطان المنصور لاجين،حيث يذكر أنه قام بمراسلة الملك الاشكري عام 696هـ/1296م لإعادة ولدي الملك الظاهر وأمهما إلى مصر[6]، ناهيك عن توضيحه لموقف الملك الأشكري من طلب السلطان المنصور لاجين "... فجهزهم الاشكري في مركب من مراكب الفرنج إلى ثغر الإسكندرية، وخرجوا من ظلمة البلاد الرومية إلى نور البلاد الإسلامية..."[7].

---

(1) المنصوري، زبدة الفكرة، ص209.

(2) المنصوري، زبدة الفكرة، ص239؛ المنصوري، التحفة، ص108.

(3) المنصوري، زبدة الفكرة، ص239 -240.

(4) المنصوري، زبدة الفكرة، ص286؛ المنصوري، التحفة، ص129.

(5) المنصوري، زبدة الفكرة، ص286 -287.

(6) المنصوري، زبدة الفكرة، ص315؛ المنصوري، التحفة، ص149.

(7) المنصوري، زبدة الفكرة، ص315.

ولما تولى محمد بن قلاوون السلطنة استكمل سياسة الدولة الودية مع القسطنطينية، وقد ذكر بيبرس المنصوري في ذلك رواية واحدة مختصرة وضح من خلالها كيفية وصول رسل ملك الكرج ورسل الاشكري إلى مصر عام 705هـ/1305م وبمعيتهم رسالة يسألون فيها أن تعاد إليهم كنيسة معروفة بهم بالقدس تسمى المصلّبة كانت قد أخذت منهم، وبني مكانها مسجد بميذنة [1]، ناهيك عن بيانه بإيجاز موقف الدولة من ذلك "... فأعيدت إليهم، وردت ضالتهم"[2].

7.3 السياسة تجاه بقايا البيت الأيوبي

تحرى بيبرس المنصوري في مادته التاريخية عن دولة المماليك البحرية التأريخ لعلاقاتها السياسية مع بقايا البيت الأيوبي، وقد سلك في ذلك خمسة اتجاهات هي:

أ. ما يخص علاقة الدولة المملوكية بالملك الناصر بن العزيز الأيوبي صاحب حلب ودمشق.

مهد بيبرس المنصوري لهذه العلاقة بالحديث عن كيفية قيام الأمراء البحرية والمماليك النجمية عام 648هـ/1250م بإشراك الملك الأشرف بن الملك المسعود الملقب بابن أتسز مع الملك المعز بالسلطنة "وفوضوا إليه أمر المماليك، وأضيف اسمه إلى اسم الملك الأشرف في التواقيع والمناشير وسكة الدراهم والدنانير"[3]. وقد كان الملك المعز يهدف من هذه الخطوة كما يقول بيبرس المنصوري إيقاف الملك الناصر عن غزو مصر[4].

---

(1) المنصوري، زبدة الفكرة، ص385.

(2) المنصوري، زبدة الفكرة ، ص386.

(3) المنصوري، زبدة الفكرة، ص6؛ المنصوري، التحفة، ص28؛ المنصوري، مختار، ص9.

(4) المنصوري، التحفة، ص28.

لم يلبث الملك الأشرف طويلاً في السلطنة، فقد تم خلعه ليستقل الأمير عز الدين أيبك الصالحي بالسلطنة، ويرجع بيبرس المنصوري السبب في خلع الأشرف إلى أنه كان "مهتضم الجانب لصغر سنه وطفولته"[1].

ويظهر أن بيبرس المنصوري كان يقصد من هذا التمهيد تعريف القارئ أن خلع الملك الأشرف من السلطنة كان السبب المباشر الذي حدا بالملك الناصر صاحب الشام في التفكير في استعادة مصر من المماليك البحرية[2]. ولذلك نجد أن بيبرس المنصوري يسجل لنا محاولتين قام بهما الملك الناصر لتحقيق هدفه آنف الذكر، وفيما يلي بيانها وكيفية رد الدولة المملوكية عليها:

1. المحاولة الأولى: كانت في عام 648هـ/1250م، وقد بيّن بيبرس المنصوري أن هذه المحاولة لم يكتب لها النجاح، مبرزاً أن السبب في ذلك يعود لتقرير رسول الخليفة المستعصم الشيخ نجم الدين البادرائي الصلح بين الملك المعز أيبك صاحب مصر والملك الناصر صاحب الشام وعودة كلٍ منهما لبلاده[3].

2. أما المحاولة الثانية :فكانت في عام 652هـ/1254م، وقد وضح بيبرس المنصوري أن هذه المحاولة كانت بالتحالف مع المماليك البحرية الذين هربوا من مصر إلى بلاد الشام، وتحديداً للملك الناصر بسبب سوء علاقتهم بالملك المعز أيبك أثر مقتل زعيمهم الأمير فارس الدين أقطاي"ثم عزم -الملك الناصر بعد استقباله للمماليك البحرية وإكرامهم - على التجريد إلى الديار المصرية، فجرد عسكراً من العساكر الشامية صحبة من توجه إليه من البحرية، فساروا ونزلوا بالغوار ثم انتقلوا إلى الأغوار، واتخذوا العوجا منزلاً للاستقرار"[4].

أما موقف الدولة المملوكية من هذه المحاولة، فقد ذكر بيبرس المنصوري أنه ما أن" بلغ الملك المعز مسيرهم إليه واتفاقهم عليه" حتى عمل على حشد قواته

(1) المنصوري، زبدة الفكرة، ص6.

(2) المنصوري، زبدة الفكرة، ص6.

(3) المنصوري، زبدة الفكرة، ص6؛ المنصوري، التحفة، ص31.

(4) المنصوري، زبدة الفكرة، ص13؛ المنصوري، التحفة، ص31.

المصرية والتوجه إلى البارده قرب العباسة لمواجهتهم، فانتهت السنة وهو مخيم بها[1].

بعد هذه الاستعدادات يبيّن بيبرس المنصوري أن هذه المحاولة أيضاً لم يكتب لها النجاح مبرزاً أن السبب في ذلك يعود لتقرير رسول الخليفة المستعصم بالله الشيخ نجم الدين البادرائي الصلح عام 654هـ/1256م للمرة الثانية بين الملك المعز والملك الناصر[2] أما يؤخذ على بيبرس المنصوري في هذا الاتفاق أيضاً أنه لم يورد معلومات تتعلق ببنوده أو شروطه.

ب. ما يخص علاقة الدولة المملوكية بالملك المغيث صاحب الكرك.

بعد فشل المحاولة الثانية للملك الناصر، يذكر بيبرس المنصوري أن العلاقة ساءت بين الملك الناصر والمماليك البحرية الذين شاركوه في تلك المحاولة "فخافوه وخافهم على نفسه، ففارقوه -أي البحرية-"[3].

تتبع بيبرس المنصوري بعد مفارقة البحرية للملك الناصر مصيرهم وكيفية التجاؤهم للملك المغيث صاحب الكرك وتعامله معهم، فقال: "وخرجوا من دمشق، ولما وصلوا نابلس اتفقوا على التوجه إلى الملك المغيث بالكرك، فتوجهوا إليه وهم الأمير ركن الدين بيبرس البندقداري والأمير سيف الدين قلاوون الألفي والأمير سيف الدين بلبان الرشيدي وغيرهم، فأكرمهم المغيث وقبلهم وبرهم ووصلهم"[4].

كما تتبع كيفية إقناع البحرية الملك المغيث صاحب الكرك بتبني استكمال الخطة التي ابتدأها الملك الناصر معهم في استعادة مصر من الدولة المملوكية "والتمسوا منه المساعدة على قصد الديار المصرية وإمدادهم بعسكر لتصير لهم اليد القوية"[5].

---

(1) المنصوري، زبدة الفكرة، ص13؛ المنصوري، التحفة، ص36.

(2) المنصوري، زبدة الفكرة، ص19؛ المنصوري، التحفة، ص38.

(3) المنصوري، زبدة الفكرة، ص25؛ المنصوري، التحفة، ص39.

(4) المنصوري، زبدة الفكرة، ص25؛ المنصوري، التحفة، ص39.

(5) المنصوري، زبدة الفكرة، ص25؛ المنصوري، التحفة، ص39.

وافق الملك المغيث على تبني السياسة التي ابتدأها الملك الناصر، لذلك قام بمحاولتين لاستعادة مصر كانتا بالتحالف مع البحرية، وقد أبرز بيبرس المنصوري موقف الدولة المملوكية من تلك المحاولتين، وفيما يلي بيان ذلك:

1. المحاولة الأولى:كانت في عام 655هـ/1257م، وقد قدم بيبرس المنصوري معلومات قيمة في البداية عن كيفية استعداد الطرفين للمواجهة، فالبنسبة للملك المغيث فأنه سير مع البحرية حملة عسكرية بلغ تعدادها ألف فارس في حين أن الأمير سيف الدين قطز والأمراء المصريين قاموا بتجريد حملة إلى الصالحية[1]، وقد بيّن بيبرس المنصوري كيفية التقاء الطرفين "فلما كان ليلة السبت الخامس والعشرين من ذي القعدة أقبلوا إليهم واتفقوا معهم"[2]، ذاكراً أهم ما ترتب على هذا اللقاء من نتائج سلبية ضد البحرية والقوات الكركية "فانكسر البحرية ومن معهم من العسكر الكركي، وأسر الأمير سيف الدين قلاوون الألفي والأمير سيف الدين بلبان الرشيدي، وقتل الأمير سيف الدين بلغان الأشرفي، وانهزم الباقون، وعادوا إلى الكرك وهم خايبون [خائبون]"[3].

يعقب بيبرس المنصوري بعد ذلك على أن الأمير سيف الدين قلاوون قد تمكن من الفرار من الأسر والتوجه إلى الكرك[4].

2. المحاولة الثانية: مع أن المحاولة السابقة قد باءت بالفشل، إلا أن بيبرس المنصوري يذكر أن البحرية عادوا مرة ثانية لتحريض الملك المغيث لقصد مصر "وأطمعوه فيها، وكاتبه بعض أمرايها [أمرائها] ووعدوه بانحيازهم إليه متى حضر بنفسه إليها"[5].

استجاب الملك المغيث لطلب البحرية، فخرج بحملة عسكرية صحبتهم تجاه مصر عام 656هـ/1258م، وقد ذكر بيبرس المنصوري أنه ما أن وصلت الحملة

---

(1) المنصوري، زبدة الفكرة، ص25؛ المنصوري، التحفة، ص39.

(2) المنصوري، زبدة الفكرة، ص25.

(3) المنصوري، زبدة الفكرة، ص25؛ المنصوري، التحفة، ص39.

(4) المنصوري، زبدة الفكرة، ص25؛ المنصوري، التحفة، ص39.

(5) المنصوري، زبدة الفكرة، ص25.

الصالحية حتى "تسلل إليه من كان قفاتبه من أمراء مصر وهم عزالدين الرومي والكافري والهواش وغيرهم"[1].

ومع كل التجهيزات السابقة، فإن بيبرس المنصوري يشير إلى أن هذه المحاولة قد باءت بالفشل بسبب تصدي القوات المصرية لهم "وخرج عسكر مصر فالتقوهم، فكانت الكسرة على المغيث وأصحابة، فانهزم طريداً وعاد شريداً وولى إلى نحو الكرك فريداً وليس معه إلا قليل من جماعته، وأما البحرية فإنهم لما انهزموا توجهوا نحو الغور فصادفهم الشهرزورية، وقد جاؤوا جافلين من الشرق، فاجتمعوا بهم واتفقوا معهم وتزوج الملك الظاهر منهم"[2].

ج. ما يخص علاقة المماليك البحرية بالملك الناصر بن العزيز صاحب الشام.

أدى التقاء البحرية أثر انهزامهم أمام المماليك في مصر بالشهرزورية إلى إثارة الملك الناصر صاحب الشام، ويرجع بيبرس المنصوري السبب في ذلك إلى أن الملك الناصر كان قد "خاف أن تقوى شوكتهم، فيقصدوا الشام، ويفسدوا عليه النظام"[3]؛ لذلك قام بتجريد قوة عسكرية لقتالهم، وقد بيّن بيبرس المنصوري كيفية التقاء الطرفين في الأغوار، مبرزاً أهم النتائج التي ترتبت على اللقاء "فكسروا -أي البحرية والشهرزورية- عسكره -أي عسكر الملك الناصر-، وفلوهم، فعادوا إليه وقد نالت منهم الكسرة، ورجعوا إلى القلة بعد الكثرة،فاستشاط لذلك غضباً"[4].

بعد الهزيمة التي منيت بها قوات الملك الناصر، يشير بيبرس المنصوري إلى أن الملك الناصر قام بحشد قواته مره ثانية، والتوجه بها بنفسه لقتال المماليك البحرية والشهرزورية، ولكن يبدو أن الملك الناصر لم يكتب له الالتقاء بهم مره ثانية، ويرجع بيبرس المنصوري ذلك لانهزام المماليك البحرية والشهرزورية "فعلموا العجز عن المقاتلة، وأنه لا قبل لهم بالمقابلة، فتفرقوا طالبين النجاة لنفوسهم

---

(1) المنصوري، زبدة الفكرة، ص33؛ المنصوري، التحفة، ص40.

(2) المنصوري، زبدة الفكرة، ص33-34؛ المنصوري، التحفة، ص40.

(3) المنصوري، زبدة الفكرة، ص34؛ المنصوري، التحفة، ص40.

(4) المنصوري، زبدة الفكرة، ص34؛ المنصوري، التحفة، ص40.

والسلامة لرؤوسهم، فتوجه البحرية إلى الكرك ليأووا إلى المغيث، وتوجهت الشهرزورية نحو الديار المصرية"[1].

علم الملك الناصر بوجهة المماليك البحرية، لذلك بعث إلى الملك المغيث صاحب الكرك يطلب منه تسليمهم ويتهدده إن مانع عنهم، لكن موقف الملك المغيث كان الرفض بتسليمهم كما يذكر بيبرس المنصوري "فدافعه المغيث في أمرهم على أنه يندفع"[2].

يورد بيبرس المنصوري أن موقف الملك الـ مغيث من المماليك البحرية لم يبق على حاله، فقد تغيّر أثر توجه الملك الناصر لحصار الكرك عام 656هـ/1258م "ونزل على بركة زيزاء، وراسل -الملك الناصر - المغيث بنوع من التهديد وأغلظ له في الوعيد، فعلم أنه لا يدفعه عنه ألا إرسالهم إليه، فتحيل عليهم، فأمسك من أمكنه وفاته من لم يقدر عليه، فأرسل الذين أمسكهم إلى الملك الناصر.. فأرسلهم إلى قلعة حلب، فحبسوا بها إلى أن فتحها هولاكو"[3].

وإذا كان بيبرس المنصوري قد ذكر أن أغلب البحرية قد تم القبض عليهم،فأنه لم ينس تتبع أخبار الهاربين منهم لا سيما الأمير ركن الدين بيبرس البندقداري والأمير سيف الدين قلاوون الألفي المخدوم وخشداشيتهم، فقد بيّن اعتماداً على ما سمعه من السلطان المنصور سيف الدين قلاوون الظروف التي كانت قد اجتمعت على الاثنين لا سيما تنقلهم من مكان لمكان وعدم الاستقرار بسبب طلب الملك الناصر والملك المغيث لهما وسوء علاقتهما بالملك المظفر قطز في مصر[4]، كذلك بيّن أن هذه الظروف دفعت الاثنين لزيارة الشيخ علي البكاء في زاويته بالخليل، حيث تنبأ هذا الشيخ لهما بتقلد السلطنة[5].

---

(1) المنصوري، زبدة الفكرة، ص34؛ المنصوري، التحفة، ص40.
(2) المنصوري، زبدة الفكرة، ص34؛ المنصوري، التحفة، ص40.
(3) المنصوري، زبدة الفكرة، ص34؛ المنصوري، التحفة، ص40.
(4) المنصوري، زبدة الفكرة، ص34؛ المنصوري، التحفة، ص41.
(5) المنصوري، زبدة الفكرة، ص34-35؛ المنصوري، التحفة، ص41.

د . ما يخص علاقة أمراء الدولة المملوكية بالأيوبيين .

لم يفصل بيبرس المنصوري في هذا الجانب، فقد ذك ر رواية واحدة أشار فيها إلى قيام الأمير فارس الدين اقطاي الصاحب عام 651هـ/1253م بمراسلة الملك المظفر الأيوبي صاحب حماة بهدف خطبة ابنته منه، وقد بيّن بيبرس المنصوري أن الأخير قد قام باستقبال رسول اقطاي وإكرامه وتجهيز ابنته له(1).

هـ . ما يخص علاقة المماليك في مصر بالأيوبيين بعد سقوط دولتهم .

مع اعتلاء الملك الظاهر للسلطنة في مصر سنة 658هـ/1259م دخلت هذه العلاقات المتوترة مرحلة جديدة من التطور القائم على أساس الود والصداقة، فيـ بيّن بيبرس المنصوري أنه في سنة 659هـ/1260م وفد إلى السلطان الظاهر من البيت الأيوبي الملك المنصور صاحب حماة والملك الأشرف صاحب حمص،حيث أكرمهما السلطان ومنحهما شعار السلطنة، وكتب لهما التقاليد بممالكهما وزاد كلاً منهما على ما بيده، فالمنصور صاحب حماة أعطاه بلاد الإسماعيلية، والأشرف أعطاه تل باشر، ثم أعادهما لبلادهما(2)كذلك وفد إليه في العا م ذاته من أعيان الذرية الأيوبية كما يشير بيبرس المنصوري الملك الزاهد أسد الدين شيركوه والملك الأمجد بن العادل صاحب بعلبك والمنصور والسعيد ولدا الملك الصالح عماد الدين إسماعيل بن العادل الكبير والملك الأمجد بن الملك الناصر والملك الأشرف بن الملك المسعود والقاهر بن المعظم، وقد بيّنبيبرس المنصوري أن السلطان الظاهر " عاملهم بالجميل والإنعام الجزيل "(3). كما أشار بيبرس المنصوري إلى أن السلطان الظاهر قام في العام المشار إليه بالإفراج عن العزيز بن المغيث الذي كان معتقلاً في دمشق منذ أيام الملك المظفر قطز، "فأحسن إليه، وجهزه إلى والده، وجهز إليه شعار السلطنة، فركب بها في الكرك"(4).

(1) المنصوري، زبدة الفكرة، ص10؛ المنصوري، التحفة، ص34.
(2) المنصوري، زبدة الفكرة، ص68 -69.
(3) المصدر نفسه، ص69.
(4) المصدر نفسه، ص69.

8.3 السياسة تجاه الخلافة العباسية قبيل سقوطها عام 656هـ/1258م .

بدراسة مادة بيبرس المنصوري التاريخية فيما يتعلق بسياسة الدولة المملوكية تجاه الخلافة العباسية في الفترة الممتدة بين سنتي (648-656هـ/1250-1258م) يتضح أن بيبرس المنصوري يورد معلومات قليلة عنها بدليل أنه يدونّ في هذا الجانب ثلاثة روايات وضح من خلالها أنها سياسة ودية،و يبدو أن قلة المعلومات في هذا الجانب يعود لكون الخلافة العباسية لم يطل عهدها، فقد تم إسقاطها عام 656هـ/1258م الأمر الذي حال دون تتبع بيبرس المنصوري أخبار العلاقة بين الطرفين بإسهاب.

ذكر بيبرس المنصوري في روايتين منها بإيجاز كيفية تدخل الخليفة العباسي المستعصم بالله في فض النزاع بين الملك المعز أيبك والملك الناصر بن العزيز وكيفية الإصلاح بينهما مرتين؛ المرة الأولى كانت في عام 650هـ/1252م ويظهر ذلك من قوله :"[و] وصل من بغداد إلى الديار المصرية الشيخ نجم الدين البادرائي رسولاً من عند الخليفة المستعصم، ليصلح ما بين الملك الناصر صاحب الشام وبين الملك المعز صاحب مصر، فتقرر الصلح وترتب، ورجع الملك الناصر وعسكره إلى دمشق، وعادالمعز من البارده إلى قلعة الجبل "[1]، أما المرة الثانية، فكانت في عام 654هـ/1256م، وقد بيّن ذلك بقوله :"رحل عسكر الشام الواصل من جهة الناصر من العوجا إلى غزة، ونزلوا على تل العجول، واتفق نزول رسول الخليفة وهو الشيخ نجم الدين البادرائي ليجدد الصلح الذي تقوضت مبانيه ويشفع الاتفاق الأول بثانيه، فسفر مع الملك الناصر وقرر الصلح، فأعاد العسكر"[2].

أعقب بيبرس المنصوري الصلح الثاني مباشرة، بالحديث عن سفارة السلطان المعز أيبك للخليفة العباسي المستعصم بالله، وقد ركز حديثه عليها، فبيّن كيفية إرساله الأمير شمس الدين سنقر الأقرع رسولاً إلى الخليفة المستعصم بمعية الشيخ نجم الدين البادرائي عام 654هـ/1256م يعرفه"... بجلوسه على كرسي مملكة

---

(1) المنصوري، زبدة الفكرة، ص6؛ المنصوري، التحفة، ص31.

(2) المنصوري، زبدة الفكرة، ص19؛ المنصوري، التحفة، ص38.

الديار المصرية، وإقامة الدولة العباسية وطاعته للمواقف الخليفية، ويلتمس تشريفه بالتقليد والخلعة والألوية أسوة أمثاله "[1]. ثم يبرز بيبرس المنصوري موقف الخليفة من تلك السفارة"... وجهز الخليفة ملتمسه وأعاده مكرماً، فلما وصل إلى الحسا والقطيف، وكان الملك المعز قد قتل، واتصل مقتله بالخليفة، فأرسل من بغداد من استعاد التقليد والخلع من شمس الدين سنقر الأقرع، و حضر إلى الديار المصرية بغير ذلك"[2].

9.3 السياسة تجاه المستأمنين من الدول الأخرى

اهتم بيبرس المنصوري في تدوين المعلومات المتعلقة بالسياسة المملوكية تجاه المستأمنين من دول أخرى، بحيث تقدر نسبة المادة ا لتي سجلها في هذا الجانب حوالي 5% من إجمالي المادة التي كتبها عن السياسة المملوكية الداخلية.

أعطى بيبرس المنصوري دلائل واضحة على سياسة الدولة تجاه المستأمنين من دول أخرى، فعندما استو لى المغول على ميافارقين عام 656هـ/1258م، أسروا صاحبها الملك الكامل وتسعة مماليك من مماليكه، وقد ذكر بيبرس المنصوري أن هؤلاء قتلوا جميعهم على يد هولاكو باستثناء واحد يدعى قراسنقر أبقاه هولاكو، ثم أطلقه وحضر إلى مصر أيام الملك الظاهر "فأعطاه السلطان إقطاعاً، وجعله مقدماً في الحلقة"[3]. كما حضر إلى مصر مستأمناً بعد موقعة عين جالوت السعيد بن العزيز صاحب الصبيبة أعمالها، وقد أوضح بيبرس المنصوري أن السلطان المظفر قطز قد قاتلهبقبسبب مشاركته مع المغول في الوقعة المذكورة ضد المماليك[4].

كذلك وصل إلى مصر مستأمناً من المغول عام 659هـ/1260م الملك الصالح ركن الدين إسماعيل بن الملك الرحيم صاحب الموصل، وأهله وأولاده، ونوابه، وقد أورد بيبرس المنصوري كيفية استقبال السلطان الظاهر له، ولأ هله وإخوته، فقال: "فأقبل

(1) المنصوري، زبدة الفكرة، ص20.
(2) المصدر نفسه، ص20.
(3) المصدر نفسه، ص41.
(4) المصدر نفسه، ص51.

السلطان عليه، وأحسن إليه،وأمر له ومن معه بالاقاما ت والإنزال من دمشق إلى مصر، وتلقاه، وأنزل في دار أخليت له تليق بمثله، ووصل بعد أخوه المجاهد سيف الدين اسحق صاحب الجزيرة، فتلقاه كما تلقى أخاه "، ثم أطلق سراح أخاهم المظفر صاحب سنجار المسجون في حلب من أيام المظفر قطز أكراماً لهما[1].

كما منح السلطان الظاهر أبناء صاحب الموصل المال والقماش والخيل والخلع والهدايا، أضف إلى ذلك قيامه بكتابة تقاليد لهم بالممالك التي يحكمونها، وقد أعطى بيبرس المنصوري صوره مفصله لحدود الممالك التي منحها لهم، ف الملك الصالح كتب له بالموصل وولاياتها ورساتيقها، ونصيبين وولاياتها، وبالوصا ومدينة بوازيج وما يتعلق بها وعقر شوش، و دارا وأعمالها والقلاع العمادية وبلادها وكواشى وبلدها، واهرور وبلدها، وجلصورا وبلدها، وكنكور وبلدها، وكتب للملك المجاهد اسحق بلاد الجزيرة، وأ ضاف له حمرين، أما الملك المظفر علاء الدين، فقد منحه سنجار وأعمالها[2].

لم يتوقف بيبرس المنصوري في تدوينه لهذا الجانب عند هذا الحد، فقد ذكر أنه في أعقاب وصول أبناء صاحب الموصل إلى مصر، وفد عليها جماعة من أعيان الذرية الأيوبية مستأمنين موردا ً لأسمائهم وكيفية تعامل السلطان الظاهر معهم، وهم الملك المنصور صاحب حماة، والملك الأشرف بن صاحب حمص "فأكرمهما السلطان، وأرسل إليهما شعار السلطنة، فركبا موكباً حفلاً، وأمر الأمراء، فترجلوا في خدمتهما، وكتب لهما التقاليد بممالكهما، وزاد كلاً منهما على ما بيده، فزاد المنصورصاحب حماة بلاد الإسماعيلية، والأشرف تل باشر، وأعادهما إلى مستقرهما"[3]. كما حضر إليه منهم الملك الزاهد أسدالدين شيركوه، والملك الأمجد بن العادل صاحب بعلبك، والمنصور والسعيد ولدا الملك الصالح عمادالدين إسماعيل

(1) المنصوري، زبدة الفكرة، ص65 -66؛ المنصوري، مختار، ص17 -18.
(2) المنصوري، زبدة الفكرة، ص66؛ المنصوري، مختار، ص18.
(3) المنصوري، زبدة الفكرة، ص68 -69.

بن العادل الكبير، والملك الأمجد بن الملك الناصر ، والملك الأشرف بن الملك المسعود، والقاهر بن المعظم "فعاملهم [السلطان] بالجميل والإنعام الجزيل"[1].

وفي سنة 660هـ/1261م وفد إلى مصر جماعة من مماليك الخليفة البغاددة الذين كانوا تأخروا في العراق بعد قتل الخليفة، وكان مقدمهم الأمير شمس الدين سلار الذي ذكر بيبرس المنصوري أن السلطان قام بإعطائه خمسين فارساً في الشام، ثم غيّر له ذلك بإقطاع في مصر[2].

تابع بيبرس المنصوري تسجيله للأحداث المتعلقة بالسياسة المملوكية تجاه المستأمنين من الدول الأخرى، فقد ذكر أنه في عام 661هـ/1262م حضر إلى السلطان الظاهر مستأمنيمن الـ مغول يقدر عددهم بألف فارس، وقد بيّن بيبرس المنصوري كيفية تعامل السلطان معهم، فقدأمّر كبرائهم بالطبلخانات وهم : كرمون أغا... وامتغا أغا، ونوكا أغا، وجبراك أغا، وقنان أغا، وطيشور وناصغيه، ونبتو، وصنجى، وجوجلان، واجقرقا، وأرقرق، وصلاغيه، ومنكدمر، وصراغان أغا، وأسلموا عندما أُمّروا وطهروا "[3]. كما ذكر بيبرس المنصوري أن السلطان الظاهر بلغه في عام 662هـ/1263م أن جماعة من المغول سيصلون إليه مستأمنين "فأخذ بالحزم، وعزم على الخروج بالعساكر، لأجل تواتر الأخبار بمجيء هؤلاء التتار"[4]. ومن الملاحظ في هذه الرواية أن بيبرس المنصوري لم يوضح فيها السياسة التي اتبعها السلطان الظاهر تجاه القادمين منهم.

كذلك حضر في السنة نفسها إلى السلطان الظاهر الأمير جلال الدين يشكر ولد مجاهد الدين دوادار الخليفة المستعصم بالله في بغداد مستأمناً ، "فأعطاه السلطان طبلخاناة"[5].

---

(1) المنصوري، زبدة الفكرة ، ص69.

(2) المنصوري، مختار، ص20.

(3) المنصوري، مختار، ص24؛ المنصوري، التحفة، ص51.

(4) المنصوري، زبدة الفكرة، ص89.

(5) المنصوري، زبدة الفكرة، ص92؛ المنصوري، مختار، ص29.

وفي عام 672هـ/1273م وصل الأمير شمس الدين بهادر بن الملك فرج صاحب سميساط إلى السلطان الظاهر في دمشق، وقد أبرز بيبرس المنصوري أن هذا الأمير "كاتب السلطان، فاطّلع التتار على أمره، فأمسكوه وحملوه إلى الأردو، فهرب، وحضر إلى البيرة، ووصل الأبواب السلطانية، فشمله الإنعام، وأعطي إقطاعاً بعشرين فارساً بالديار المصرية"[1].

أما السياسة التي اتبعها السلطان الظاهر تجاه الأمراء الروميين وأهاليهم الواصلين إليه في عام 675هـ/1276م، فقد ذكر بيبرس المنصوري أسمائهم، ثم وضح أن السلطان لما قدموا إليه أحسن إليهم، وأحضرهم إلى مصر، وأجرى عليهم الأرزاق، كما وصل في أثرهم كما يشير بيبرس المنصوري سيف الدين جندربك صاحب الأبلستين، ومبارز الدين أمير شكار، فأكرمهما السلطان[2].

وفي عهد السلطان المنصور قلاوون وتحديداً عام 681هـ/1282م وفد إلى مصر مستأمناً جماعة من المغول الأويراتية يرأسهم شخص يسمى الشيخ علي، وكان قد دخل الإسلام، ويبيّن بيبرس المنصوري أن سياسة السلطان كانت معهم ودية، ودليل ذلك قوله: "فعاملهم بالإكرام، وهم الاقوش وتمر وعمر أخوه، وجوبان، وجماعة معهم، ورتبهم في جملة مماليكه الخواص، وأعطاهم الإقطاعات، والخيول والهبات، وانتقلوا إلى إمرة العشرات والطبلخانات، وتقدموا على القدماء في الكرامات"[3].

لم يستمر السلطان المنصور في سياسته الودية نحوهم، فقد قام بعد فترة بسجن الشيخ علي في القلعة، وسجن معه الاقوش، وأما تمر وعمر فأنهما توفيا في الخدمة، وقد ذكر بيبرس المنصوري أن تغير السلطان عليهم قد جاء نتيجة لأمور فعلوها أغضبته عليهم[4].

---

(1) المنصوري، زبدة الفكرة، ص140.
(2) المصدر نفسه، ص152 -153.
(3) المصدر نفسه، ص217.
(4) المصدر نفسه، ص217.

وفي سنة 695هـ/1295م وفد من البلاد المشرقية إلى السلطان العادل زين الدين كتبغا جماعة من المغول الأويراتية على رأسهم طرغاي وككتاي، وكان السبب في قدومهم خشيتهم من غازان بن أرغون، أما السياسة التي اتبعها السلطان تجاههم، فقد وضح بيبرس المنصوري أن السلطان لما وردت إليه أنباء قدومهم إلى بلاد الشام من نوابه، أرسل لاستقبالهم الأمير علم الدين سنجر الدويداري من دمشق "لينـزلهم في بلاد الساحل، ويحضر مقدميهم وكبارهم إلى الباب العزيز، فانزل نسوانهم وأولادهم وعامتهم في بلد الساحل، واحضر من أعيانهم نحو مايتي [مائتي] فارس صحبة طرغاي وككتاي والوص مقدميهم، فلما وصلوا تلقاهم زين الدين كتبغا بالإكرام وعاملهم بالإنعام والمّ بهم غاية الإلمام، وعجل لهم الخلع والهبات، وأعطى أكابرهم الطبلخانات، وصاروا يجلسون بالقلة في مراتب الأمراء، ومقاعد الكبراء"[1].

ينتقد بيبرس المنصوري السياسة التي اتبعها السلطان مع المغول الأويراتية لا سيما إجلاسهم في مراتب الأمراء الكبار ، فيقول:"وكان الصواب أن يدرجوا قبل أن يقدموا، ويمهل عليهم حتى يسلموا، فإذا دخلوا الدين، وأقاموا شعائر المسلمين، وعُرف منهم ذلك باليقين يرفع منهم من يستحق الرفعة، وينقلون إلى الاخباز والإمرة"[2].

أما ردة فعل أمراء الدولة المملوكية الكبار على السياسة التي اتبعها السلطان مع المغول الأويراتية، فأن بيبرس المنصوري بيّن أنهم "كرهوا منه هذه الفعلة مع ما في النفوس من تغلبه على السلطنة، وخلعه وارث المملكة، فتغيرت له الخواطر، وتكدرت منه الضماير [الضمائر]، وتوثبت مماليكه على الاقطاعات والحمايات، وامتدت أيديهم إلى الرُشى والجبايات، وتكبّروا على الكبراء، وتقدموا على قدماء الأمرا [الأمراء]، وغلبوه على رأيه وحجبوه بحجاب، وجعلوه من ورايه [ورائه]، ولم يتنبه لردعهم، ولا تيقظ لمنعهم"[3].

---

(1) المنصوري، زبدة الفكرة، ص309- 310؛ المنصوري، التحفة، ص146.
(2) المنصوري، زبدة الفكرة، ص310؛ المنصوري، التحفة، ص146.
(3) المنصوري، زبدة الفكرة، ص310؛ المنصوري، التحفة، ص146.

يتابع بيبرس المنصوري تسجيله للسياسة المملوكية تجاه المستامنين من الــدول الأخرى، فقد ذكر أنه في عام 697هـــ/1297م حضر سلامش بن أفاك ابن بيجو التتري وأخيه قطقطوا إلى السلطان لاجين، وقد وضح بيبرس المنصوري السبب في قدوم سلامش إلى مصر، وكيفية مراسلته قبل وصوله إليها للسلطان ،و رد الأخيــر على رسالته، فقال :"وسبب مهاجرته [سلامش] إلى ديار الإسلام، وحضوره في هذه الأيام أنه كان مقيماً ببلاد الروم مقدماً على التمان المجرد فيها، فبلغه أن قازان عزم على أن يعدمه، ويسفك دمه، فأراد الانحياز إلى البلاد الإسلامية طلباً للنجاة، وكاتب المنصور حسام الدين لاجين مستأذناً ومعلماً بوصوله مستأمناً، وأرسل مــن جهتــه شخصاً يسمى مخلص الدين الرومي، فلما وصل إلى الباب العزيز، وأعــاد رســالة مرسله أُجيب بالقبول وقيل له أنّا لا نكره من يهاجر ألينا محبةً في الله والرسول"[1].

كما يوضح بيبرس المنصوري ردة فعل الايلخان غازان على مراسلات سلامش والسلطان، فيذكر انه عندما علم غازان بتلك المراسلات جرد عسكراً لقطع الطريق على سلامش، وبالفعل التحم الطرفان، ففر سلامش وأخيه قطقطوا إلى حلــب، ثــم أحضر إلى السلطان في مصر فعامله "بالإكرام، وقوبل بالانعام ، وخُير فــي المقــام بمصر أن شاء أو الشام، فذكر [سلامش] أنه ترك عياله، وخلّف أهله وأطفاله، وسأل تجريد عسكر ليحضر أهله، ثم يلقى بعد ذاك رحله"[2].

استجاب السلطان كما يذكر بيبرس المنصوري لطلب سلامش، فجرد معه حملة من حلب "فساروا إلى بلاد سيس، فلما وصلوا إليها شعر بهم صاحب سيس والتتــار الذين ببلادها، فاخذوا عليهم مضائق الدروب، وعاجلهم بالحروب عن الهروب، فقتل الجلمي [قائد الحملة] ومن معه، وفر سلامش منهزماً، ولجأ إلى قلعة ببلــد الــروم، واعتصم بها، فأرسل قازان في طلبه، فاحضر إليه، فقتله شر قتلة"[3].

(1) المنصوري، زبدة الفكرة، ص319.

(2) المصدر نفسه، ص319.

(3) المصدر نفسه، ص319.

أما مصير قطقطوا أخو سلامش ومخلص الدين الرومي، فقد ذكر بيبرس المنصوري أن سلامش تركهما في مصر "فاستقرا بها، وأعطيا إقطاعاً وراتباً"(1).

10.3 السياسةتجاه دول أخرى [المغرب، اليمن، الاسماعيلية، الصليبين في جزر البحر المتوسط، النوبة، الكرج، الحبشة].

إذا كان بيبرس المنصوري قد أسهب في معلوماته عن جوانب كثيرة عن السياسة المملوكية الخارجية، فأنه اقتضب في التأريخ لجوانب أخرى، ويمكن تقدير نسبتها بـ 10%، وفيما يلي بيانها:

1. السياسة المملوكية تجاه بلاد المغرب.

يورد بيبرس المنصوري معلومات قليلة عن السياسة المملوكية تجاه بلاد المغرب، بحيث لايمكن من خلالها رسم صورة كاملة عنها، ففي عام 659هـ/1260م يذكر أن السلطان الظاهر قام بإرسال رسله لمختلف الملوك من بينهم صاحب المغرب، لإعلامهم باعتلائه عرش السلطنة في مصر (2)، ولم يذكر بيبرس المنصوري أية معلومة أخرى عن استمرار العلاقات بين المماليك والمغرب في عهد الملك الظاهر.

أما حين اعتلى الملك المنصور قلاوون السلطنة، فقد ذكر بيبرس المنصوري أنه وصلت إليه سفارة من عند الأمير مرغم بن صابر أمير العربان بطرابلس الغرب تحمل هدية من الخيل، وكتاب يتضمن طلب الأمير المذكور من السلطان أن يجرد له حملة عسكرية لفتح بلاد المغرب(3).

أما رد السلطان المنصور عليه، فكان كما يذكر بيبرس المنصوري "فأجاب السلطان سؤاله، وأكرم رسوله، وجهز إليه خلعاً نفيسة وأقمشة جميلة، وأفهمه أنه

---

(1) المنصوري، زبدة الفكرة، ص319.
(2) المصدر نفسه، ص58.
(3) المصدر نفسه، ص233.

لولا الاشتغال بجهاد التتار لأمده بجيش يملأ الأقطار، وحرضه على ما عزم عليه -أي فتح المغرب - وحضه على توجيه وجه الاجتهاد إليه"[1].

عادت رسل الأمير مرغم بجواب السلطان المذكور، حيث يوضح بيبرس المنصوري كيفية استجابة الأمير مرغم لأمر السلطان بفتح بلاد المغرب، ورفع شعار السلطنة على البلاد المفتوحة منها"واتفق -مرغم- مع شخص من أولاد أبي زكرياء يحيى صاحب تونس ، كان يعرف بالفضل بن المخلوع، وجمع جمعاً كبيراً من الأعراب، وسار بهم نحو تونس، فلما وصلوها البس الفضل بن صاحبها المخلوع خلعة السلطان المسيّرة إليه، ونشر صنجقه (سنجقه) المنصور بين يديه، فانهزم صاحب تونس المسمى أبا اسحق ...، ودخل الفضل ومرغم تونس برغمه وشرفوها بنشر لواء السلطان، وذكر اسمه"[2].

بعد فتح تونس يبدأ بيبرس المنصوري يسلط الضوء على الصراع الذي قام بين الفضل ومرغم وكلٍ من صاحب تونس المهزوم أبي إسحاق وولده أبي فارس صاحب بجايه، وكيفية قتل الأخيرين[3].

لم يتابع بيبرس المنصوري تطور العلاقات بين السلطان المنصور وبلاد المغرب، فقد انتقل لتقديم معلومات عن السياسة المملوكية تجاهها في عهد الناصر محمد، فيبيّن أنه ما أن دخلت سنة 704هـ/1304م حتى وصلت للسلطان المذكور سفارة من عند أبي يعقوب المريني صاحب المغرب يترأسها علاء الدين ايدغدى الشهرزوري تحمل "هدايا جليلة، وتحف كثيرة، وخيل عربية، وبغال مغربية، وجمال وقماش، وجملة كبيرة من الذهب العين على سبيل الإمداد والهدية "[4].كما بين أن هذه السفارة كان قد وصل معها ركب كبير من المغاربة الهدف من قدومهم قصد

(1) المنصوري، زبدة الفكرة، ص233.

(2) المصدر نفسه، ص233-234.

(3) المصدر نفسه، ص233-234.

(4) المصدر نفسه، ص381.

الحجاز لأداء فريضة الحج، وقد حقق السلطان لهم رغبتهم "ولما كان أوان الحج حج الرسول المذكور -الشهرزوري- وحجّوا معه جميعاً"(1).

بعد أداء علاء الدين ايدغدى الشهرزوري رسول المريني فريضة الحج، يذكر بيبرس المنصوري أنه عاد إلى بلاد المغرب عام 705هـ/1305م، وبصحبته رسولين من عند السلطان هما الأمير علاء الدين ايدغدى التليلي وعلاء الدين ايدغدى الخوارزمي كرد على سفارة صاحب المغرب، وقد كانا يحملان "الهدايا النفيسة والتحف الثمينة، وسيّر معهما خمسة عشر تترياً من المأخوذين في وقعة مرج الصُّفَر، وخمسة مماليك أتراك"(2).

وفي سنة 708هـ/1308م وصل الخبر إلى السلطان بأن علاء الدين التليلي ورفيقه واصلا من المغرب، وأنهما بحاجة لمن يؤمن لهم الطريق "فجرد جماعة من الجند لإحضار المذكورين، واستدعى الأمير بدرالدين أمير شكار، وسير معهم مقدماً عليهم، فساروا في أواخر ذي الحجة"(3).

وصل رسولي السلطان المذكورين سابقاً إلى مصر، وبصحبتهما الشيخ أبي يحيى زكريا اللحياني نائب صاحب تونس بطرابلس والشيخ أبي إدريس عبدالحق بن عم أبي يعقوب المريني(4).

وقد أعطى بيبرس المنصوري اعتماداً على ما سمعه من الرسولين السابق ذكرهما صورة مفصلة للمناطق التي مر عليها الاثنين أثناء رحلاتهما إلى المغرب في سنة 706هـ/1306م، إضافة لمدة سيرهما، فقال: "واخبر الرسولان المذكوران بما اتفق لهما في هذه السفرة، وهو أنهما لما توجها من الباب العزيز في شهور سنة ست وسبع مائة سارا على المنازل التي تذكر، وهي الإسكندرية إلى طلميثا، ومنها إلى سرت، ومنها إلى طمجورة، ومنها إلى طرابلس الغرب، ومنها إلى قابس، ومنها إلى سفاقس، ومنها إلى المهدية، ومنها إلى سوسة، ومنها إلى تونس، ومنها إلى

(1) المنصوري، زبدة الفكرة، ص381؛ المنصوري، التحفة، ص176.
(2) المنصوري، زبدة الفكرة، ص382-383؛ المنصوري، التحفة، ص177.
(3) المنصوري، زبدة الفكرة، ص407.
(4) المنصوري، زبدة الفكرة، ص410.

باجة، ومنها إلى بجاية، ومنها إلى تلمسان، وأقاموا بها أياماً، وخرجوا منها إلى وجدة، ومنها إلى تازة ومنها إلى فاس، ومنها إلى مكناسة، ومنها إلى سلا، ومنها إلى آزمور، ومنها إلى آسفي ، ومنها إلى مراكش، ومنها إلى اغمات، ومنها إلى جبال درني، وهي آخر عمارة المغرب، فجملة المسافة التي ساروها إلى تلمسان مائة يوم وستة أيام"(1).

كما أعطى بيبرس المنصوري صورة مفصلة عن كيفية استقبال ملك المغرب أبي يعقوب المريني للرسولين و الأحداث التي تمت أثناء وجودهما في المغرب، فذكر أولاً أنهما ما أن وصلا تلمسان حتى قدما الهدايا التي بعثها السلطان لآبي يعقوب المريني الذي بدوره قام بإكرامهما، والتوسيع عليهما بالعطاء، ثم أرسلهما إلى فاس ومر اكش بهدف التنزه والتفرج عليها "وأقمنا بمدينة فاس أربعة عشر شهراً ننتظر أذنه لنا بـ العودة، فبينما نحن على ذلك إذ جاءنا خبر وفاته، وقيام أبي ثابت ابن ابنه مقامه، فخرجنا من فاس، وصحبنا منها ركب عظيم كانوا قد تجهزوا لقصد الحج من تجار وأعيان وطبقات الناس، واستصحبنا معنا ما جهزناه من الهدايا، وما معنا من الموجود الذي لنا، فلما سرنا صادفنا أبا ثابت، وهو ساير نحو فاس، فاجتمعنا به، وتجهزنا من عنده، وأرسل برسم الأبواب الشريفة خيلاً وبغالاً وجمالاً سبع ماية [سبعمائة]".

وما أن وصل الرسولان تلمسان حتى وجدا صاحبها محمد بن عثمان ابن يغمراسن قد توفي، وجلس بعده أخيه أبو حمُّو، و يوضح بيبرس المنصوري أن الرسولين لم يجدا من أبي حمُّو حسن معامله ولا حتى إكرام(2).

تابع الرسولان ومن معهما رحلاتهم، حيث يذكر بيبرس المنصوري أنه ما أن خرجوا من تلمسان حتى اصطدموا مع عرب حُصين "فأحاطوا بالركب من كل جانب، وأحدقوا به أحداق الأطواق بالتراتيب على موضع يقال له المدية، فتمكنت هنالكم الأذية، ووضعوا أيديهم في الرجال والنسوان والرحال والركبان، فقاتلناهم ما استطعنا ودفعناهم حتى اندفعنا، ونفد ما في الجعاب من السهام ... وتمزق ذلك

(1) المنصوري، زبدة الفكرة، ص410- 411.

(2) المنصوري، زبدة الفكرة، ص411- 412؛ المنصوري، التحفة، ص192- 193.

الركب بين مقتول ومنهوب ومطروح ومسلوب وحوت العربان كلما كان معنا، ومعهم من الأموال والخيل والبغال والدواب والجمال والكسي والنفقات، وتركونا في تلك الصحراء منبوذين بالعراء قد اشفينا من الظمأ".

بقي الركب على ذلك الحال حتى تم إنقاذهم من قبل شخص يسمى أبي بكر بن زعلي، حيث قاموا بعد تزودهم بالماء بالسير إلى بجاية ومنها إلى تونس التي قام فيها شخص يسمى أبو عبدالله المومني بتسيير أدلاء معهم ليوصلوهم إلى مصر[1].

وصل الرسولان إلى مصر عام 709هـ/1309م، وكان بصحبتهما الشيخ أبي يحيى زكريا اللحياني الذي قدم معهما من طرابلس للحج، فانزل في مناظر الشرف، إضافة لأمير شكار الذي جرده السلطان لحمايتهم أثناء عودتهم[2] كما ذكر مقدماً.

2. السياسة المملوكية تجاه اليمن.

لم يعط بيبرس المنصوري صورة متكاملة لسياسة الدولة المملوكية تجاه اليمن بل يلاحظ أنه يعطي خطوط عريضة لا يوضح من خلالها السياسة التي اتبعتها الدولة المملوكية تجاهها أحياناً، ودليل ذلك يتضح من خلال الرسائل التي بعثها لصاحب ليمن، ففي سنة 658هـ/1259م بعث السلطان الظاهر إلى العديد من الملوك من بينهم صاحب اليمن يخبرهم بجلوسه على عرش مصر[3]، كما أرسل لصاحب اليمن في عام 667هـ/1268م رسالة أخرى يقول فيها :"سطرها من مكة، وقد أخذت طريقها في سبع عشرة خطوة [منزلة]"[4] أي أن هذه الرسالة كتبها أثناء وجوده في مكة.

لم يسر بيبرس المنصوري في مادته على النهج السابق بل يلاحظ أنه في بعض الإشارات يوضح السياسة التي كانت تتبعها الدولة تجاه اليمن، ففي عهد السلطان المنصور قلاوون كانت هناك سفارات متبادلة بين الطرفين تنم عن السياسة اللينة

---

(1) المنصوري، زبدة الفكرة، ص411- 412؛ المنصوري، التحفة، ص193.
(2) المنصوري، زبدة الفكرة، ص412؛ المنصوري، التحفة، ص193.
(3) المنصوري، زبدة الفكرة، ص58.
(4) المنصوري، زبدة الفكرة، ص120- 121.

التي اتبعها ا لسلطان تجاهها، ذلك أنه وصلت إلى السلطان رسل الملك المظفر شمس الدين بن رسول صاحب اليمن وهما الأمير مجد لدين بن أبي القاسم والقاضي محيي الدين يحيى بن البيلق اني وبرفقتهما الهدايا اليمنية "من العود والعنبر واللانس والصيني والنطوع ورماح القنا، وغير ذلك"[1].

أما سياسة السلطان معهم، فقد ذكر بيبرس المنصوري أن السلطان قام بإنزالهما في دار الضيافة الموجودة في بلاد الشام، ورتب لهم الإقامة ريثما يلقاهما، ثم خرج رسولي صاحب اليمن للسلطان في مصر، فلما وصلا تلقاهما السلطان، وقدم الرسولان الهدايا التي أرسلها له صاحب اليمن "فأنعم منها [السلطان] بما شاء على الأمراء والمقدمين والكبراء، وشكر مهديها، وسمع مشافهة رسله برسالته، فكان من جملتها سؤال السلطان أن يرسل له قميص أمان، وأن يكتب عليه بسم الله الرحمن الرحيم هذا أمان الله سبحانه وتعالى،وأمان سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، وأما ننا لأخينا الملك المظفر شمس الدنيا والدين يوسف بن عمر صاحب اليمن المحروس أنّا راعون له ولأولاده مسالمون من سالمهم معادون من عاداهم، ناصرون من نصرهم،خاذلون من خذلهم لا نرضى له ولأولاده إلا ما رضيناه لأنفسنا، وأنّا لا نقبل في حقه سعاية ساعٍ ولا قول واشٍ ولا تناله منّا مضره مدى الدهر، وأعمارنا ما دام ملازماً شروط مودتنا التي شافهنا بها الأمير مجدالدين رسوله، فكتب له ذلك على قميص، وكتب في يوم السبت سادس شهر رمضان المعظم سنة ثمانين وستمائة، وهذا خطّنا شاهد علينا والله على ما نقول وكيل".

أجاب السلطان المنصور طلب صاحب اليمن، وأرسل أمانه له مع الأمير ناصرالدين محمد بن المحبي الجزري والقاضي شرف الدين بن فرح كاتب الإنشاء، كما أرسل معهما الهدايا لصاحبها من التحف والأقمشة والزمرد الأخضر، والخيل التترية، أضف إلى ذلك أن مسير المذكورين كان بصحبة رسولي صاحب اليمن المشار إليهما آنفاً[2].

---

(1) المنصوري، زبدة الفكرة، ص208.

(2) المصدر نفسه، ص208 -209.

وفي عهد خلفه الملك الأشرف تغيّرت السياسة المملوكية تجاه اليمن، بدليل ما ذكره بيبرس المنصوري من أن السلطان لما وصل اليه رسول الملك المؤيد صاحب اليمن بالهدايا اليمنية قومها، فوجدها أقل قيمة من الهدايا التي كان يرسلها لوالده المنصور قلاوون، لذا ك أرسل لصاحب اليمن كتاباً فيه الإنكار والتهديد والإغلاظ والوعيد(1).

أما في عهد السلطان الناصر، فقد عزم الأمير سلار عام 707هـ/1307م على مهاجمة اليمن، لأن صاحبها الملك المؤيد هزبر الدين داود بن الملك المظفر صلاح الدين يوسف بن رسول منع الهدية التي كان يرسلها أيام المنصور قلاوون والملك الأشرف خليل، وقد ذكر بيبرس المنصوري أن الأمير سلار اصدر الأمر إلى الأمراء بتعمير المراكب وتجهيزها بالقوت والآلات وإرسالها إلى السويس،وأنتهى العام وهم بذلك(2)، ثم أن الخليفة كتب في أثر ذلك كتاباً لصاحب اليمن يهدده فيه(3).

3. السياسة المملوكية تجاه الإسماعيلية.

أوجز بيبرس المنصوري في معلوماته عن هذا الجانب، وركز فيه على السياسة التي اتبعها السلطان الظاهر تجاههم، فقد أوضح بيبرس المنصوري أنها سياسة قائمة على العداء بدليل أن السلطان الظاهر في عام 664هـ/1265م فرض الضرائب على المراكب الـ محملة بالهدايا من الملوك إلى صاحب الإسماعيلية بهدف التضييق عليه(4)،كما عمل عام 668هـ/1269م على مهاجمته حصون الإسماعيلية وتسلم مقر مملكتهم مصياف(5)،واستعادته العليقة منهم عنوة (6)، ثم تسلمه حصون الدعوة الإسماعيلية (الكهف، المنيفة، القدموس) واستئصال شافتهم نهائياً(7).

---

(1) المنصوري، زبدة الفكرة، ص383.

(2) المصدر نفسه، ص395 -396.

(3) المصدر نفسه، ص 396 -399.

(4) المصدر نفسه، ص103.

(5) المصدر نفسه، ص124.

(6) المصدر نفسه، ص129.

(7) المصدر نفسه، ص138 -139.

4. السياسة المملوكية تجاه الصليبيين في جزر البحر المتوسط (قبرص،أرواد).

أبرز بيبرس المنصوري من خلال مادته التاريخية بشيء من الاختصار أن السياسة المملوكية تجاه قبرص كان يغلب عليها طابع العداء، فبعد معاهدة الصلح التي وقعها السلطان الظاهر سنة 666هـ/1267م مع صاحب قبرص لمدة عشر سنوات، دخلت العلاقات مرحلة العداء بدليل أن السلطان قام عام 669هـ/1270م بإرسال حملة بحرية لاقتحام قبرص، ولكن يذكر بيبرس المنصوري أن هذه الحملة تعرضت للفشل بسبب استيلاء صاحب قبرص على السفن التي أرسلها السلطان بعد كسر الرياح لها[1].

بعث صاحب قبرص أثر استيلائه على السفن الإسلامية رسالة إلى السلطان يخبره بذلك، فرد عليه السلطان بكتاب تضمن فيه عدم الاكتراث باستيلائه عليها،وذكر له أن استولى على الكثير من المدن التابعة للصليبيين في الشام[2].

وفي سنة 673هـ/1274م قام السلطان الظاهر كما يذكر بيبرس المنصوري بإطلاق سراح رؤساء السفن الذين اعتقلهم صاحب قبرص في عكا، وقد كان ذلك بالحيلة[3].

ويذكر بيبرس المنصوري أنه في العام الذي تم إطلاق سراح المعتقلين قام السلطان الظاهر بتوقيع معاهدة صلح مع صاحب قبرص، وتقرر بم وجب هذه المعاهدة على صاحب قبرص "القيام بعشرين ألف دينار سورية، وإطلاق عشرين أسيراً"[4].

أما في عهد السلطان المنصور قلاوون، فقد أوضح بيبرس المنصوري أن العلاقات ساءت بين الدولة المملوكية و صاحب قبرص عام 682هـ/1283م ذاكراً أن السبب في ذلك هو اعتداء الأخير على المنطقة الساحلية لبلاد الشام وتحديداً على بيروت والمناطق المحيطة بها، أما السياسة المملوكية تجاهه، فقد بيّن بيبرس

---

(1) المنصوري، زبدة الفكرة، ص129.

(2) المصدر نفسه، ص130.

(3) المصدر نفسه، ص143 -144.

(4) المصدر نفسه، ص145.

المنصوري أن السلطان "لما بلغه حضوره... [أمر نوابه] بتلك البلاد بحفظ جميع الأماكن عليه، فلما حصل في جهة بيروت كمن له أهل جبل الخروب، وخرجوا عليه، فقتلوا وأسروا من جماعته ثمانين بطلاً، وأخذوا له شيئاً كثيراً من مال وخيل وبغال، فركب البحر، وتوجه إلى صور.. ولم يلبث أن هلك"[1].

وبالنسبة للصليبيين في جزيرة أرواد، يلاحظ أن بيبرس المنصوري لم يذكر في هذا الخصوص سوى رواية واحدة يقول فيها أن السلطان الناصر قام عام 702هـ/1302م بتجريد حملة بحرية تجاه جزيرة أرواد استطاعت الإيقاع بأهلها من الفرنج "وأخذوا ما كان فيها، واحضروا منها عدة أسرى، وعبروا بهم عند وصولهم إلى القاهرة"[2].

5. السياسة المملوكية تجاه النوبة.

أما سياسة الدولة المملوكية تجاه النوبة، فلم تكن تغطيته لها أفضل مما سبق، فقد أوضح بيبرس المنصوري أن سياسة الدولة تجاهها كانت تتسم بطابع العداء غالباً، ففي عهد السلطان الظاهر تم تجريد حملة عسكرية تجاه النوبة عام 674هـ/1275م بسبب اعتداء ملكها على حدود البلاد الإسلامية (أسوان)، ناهيك عن استنجاد "مرشكين" بالسلطان ضد خاله ملك النوبة بسبب أخذه الملك منه، وقد تمكنت الحملة من تحقيق هدفها بقتل ملك النوبة وتعيين أخر مكانه، وتقرير قطيعة سنوية عليها، وجلب شنكوا أخو ملك النوبة المقتول إلى مصر ودخوله الإسلام،وترتيبه في جملة البحرية[3]، كذلك قام السلطان قلاوون عام 686هـ/1287م بتجريد حملة أخرى وصلت دنقلة أحد أعمال النوبة فتم نهبها وسلبها[4]، أما في عهد السلطان الناصر، فقد تحسنت العلاقات، حيث وصل متملك دنقلة أياي إلى السلطان الناصر بالهدايا، فمنحه الأخير التشريف وأكرمه، وجرد معه

(1) المنصوري، زبدة الفكرة، ص234.
(2) المصدر نفسه، ص366.
(3) المصدر نفسه، ص148- 149.
(4) المصدر نفسه، ص261.

حملة عسكرية لمساعدته ضد أعدائه الرافضين دفع القطيعة المفروضة عليهم للدولة المملوكية[1].

6. السياسة المملوكية تجاه الكرج.

لم يرسم بيبرس المنصوري في مادته التاريخية صورة متكاملة لهذا الجانب، فقد اقتضب بحيث أورد إشارات بسيطة تدل على السياسة التي اتبعتها الدولة المملوكية، فقد اتسمت بالود أحياناً كإرسال ملك الكرج هدية وكتاب عربي للسلطان الظاهر يعرب فيهعن مودته وصداقته سنة 663هـ/1264م[2]، ومراسلة ملك الكرج السلطان الناصر بفتح كنيسة لهم في القدس[3]، كما أن سياسة الدولة أحياناً تجاههم تتسم بالعداء كاعتقال السلطان الظاهر ملك الكرج أثناء زيارته للقدس[4]. وقد كرر بيبرس المنصوري هذا الخبر مرتين سنة 672هـ وسنة 681هـ.

7. السياسة المملوكية تجاه الحبشة.

لم يول بيبرس المنصوري اهتماماً بهذا الجانب، بدليل أنه ذكر فيه خبراً واحداً أشار فيه إلى أن ملك الحبشة محرا ملاك قام بإرسال كتاب إلى السلطان الظاهر عام 673هـ/1274م يطلب منه إرسال مطران من بطرك الإسكندرية، أما السلطان، فقد أجابه لطلبه[5].

8. السياسة المملوكية تجاه ملوك الغرب.

لم يذكر بيبرس معلومات هامة بهذا الخصوص سوى إشارته إلى أنه وصل عام 662هـ/1262م رسول من ملك شرل أخي الفرنسيس بهدية للسلطان الظاهر، كذلك وصلت رسل جارلا أخي الريدافرنس ورسل الغرب إلى السلطان الظاهر الذي رد عليهم بسفارة محملة بالهدايا[6].

---

(1) المنصوري، زبدة الفكرة، ص381- 382؛ المنصوري، التحفة، ص176.

(2) المنصوري، زبدة الفكرة، ص101.

(3) المصدر نفسه، ص385- 386.

(4) المصدر نفسه، ص230،140.

(5) المصدر نفسه، ص144.

(6) المصدر نفسه، ص89، 117.

الفصل الرابع

السياسة الداخلية لدولة المماليك البحرية كما أرخ لها بيبرس المنصوري

1.4 التغاير على السلاطين والمؤامرات ضدهم و انتهائها بالقتل أو الخلع أو تسلم السلطنة أو الفشل

بدراسة مادة بيبرس المنصوري التاريخية المتعلقة بسياسة الدولة الداخلية يتضح أن بيبرس قد ركز فيها على تدوين الأخبار الخاصة بالتغاير على منصب السلطنة نتيجة لوفاة سلطان سابق، وتقليد سلطان لاحق بعهد منه أو نتيجة لتغلب مدبر المملكة أو أتابك العسكر على المنصب أو بخروج بعضهم على سلطانه وحربه، مما يؤدي إلى عزله وسجنه أو قتله، وتولي غيره، وقد بلغت نسبة المادة التي دونها في هذا الجانب حوالي 30% من إجمالي مادته عن سياسة الدولة الداخلية.

استفتح بيبرس المنصوري كلامه عن هذا الجانب بالحديث عن كيفية انتقال الحكم من الأيوبيين إلى المماليك، ذاكراً أن المماليك في أصلهم هم طائفة من الأتراك القفجاقية، قدموا إلى الشام ومصر من بلادهم (القفجاق) أثر تعرضهم للغزو المغولي، حيث تم بيعهم لملوك بني أيوب لا سيما الناصر صلاح الدين يوسف الأيوبي وأخيه الملك العادل أبي بكر ثم أولاده الكامل والأشرف والمعظم، وقد تم الاستكثار منهم في عهد الملك الأيوبي الصالح نجم الدين أيوب الذي اعتمد عليهم في إدارة شؤون الدولة السياسية والإدارية(1).

وبعد أن توفي الملك نجم الدين أيوب عام 647هـ/1249م تولى حكم الدولة الأيوبية ولده المعظم تورانشاه الذي لم يلبث أن قتل، فتسلمت شجر الدر زوج الملك نجم الدين أيوب السلطنة، وجعل الأمير عزالدين أيبك التركماني أتابكاً لها(2).

تزوج الأمير المشار إليه شجر الدر، فتنازلت له عن الحكم، وبذلك انتقلت

---

(1) المنصوري، زبدة الفكرة، ص2-5.

(2) المنصوري، زبدة الفكرة، ص 3-4؛ المنصوري، التحفة، ص 26؛ المنصوري، مختار، ص8-9.

السلطة من الأيوبيين إلى المماليك عام 648هـ/1250م[1]، وقد وضح بيبرس المنصوري أنه بالرغم من تنازل شجر الدر عن الحكم إلا أنها كانت "مشاركه له في الأمر (الحكم)، وعلامتها تخرج على التواقيع وهي مبجلة عند الجميع، وكل من للبحرية لها مطيع"[2].

واجه السلطان المعز أيبك التركماني كما يذكر بيبرس المنصوري على المستوى الداخلي ثلاثة تحديات كبرى أورد عنها معلومات قيمة، وأفرد لها كغيره من المؤرخين حيزاً في يومياته، كما أبرز كيفية تعامل السلطان المذكور معها، وهي:

1. ازدياد نفوذ الأمير فارس الدين أقطاي الجمدار الصالحي في مصر عام 651هـ/1253م وانضمام المماليك البحرية إليه[3]، وقد ارتئ السلطان المعز كما يذكر بيبرس المنصوري أن يتخلص منه، لذلك قام بتدبير مؤامرة مع مماليكه تقضي باستدعائه بغرض استشارته في أمور الدولة، ثم الانقضاض عليه وقتله، وبالفعل تم تنفيذ تلك المؤامرة وقتل الأمير أقطاي[4].

2. خروج المماليك البحرية عن طاعة السلطان المعز أيبك أثر مقتل أميرهم فارس الدين أقطاي:

قام المماليك البحرية عقب مقتل الأمير أقطاي بالخروج على السلطان المعز والتوجه إلى بلاد الشام، وقد بيّن بيبرس المنصوري بشيء من الإطناب السياسة التي اتبعها السلطان أثر خروجهم، فقال: "ولما أصبح المعز بلغه تسحبهم من المدينة، فأمر بالحوطة على أملاكهم وأموالهم ودورهم وغلالهم ونسوانهم وغلمانهم وأتباعهم وأشياعهم"[5] كما استولى على ممتلكات أنصارهم الموجودين في مصر "وبدل من كان معتزاً بهم ومعتزياً لهم بعد العز ذلاً وهواناً، وبعد المهابة ذلاً، وامتهاناً، واستصفيت أموالهم وذخايرهم وشونهم وخزاينهم، واستتر من تأخر منهم، واختفى

(1) المنصوري، التحفة، ص26؛ المنصوري، مختار، ص9.
(2) المنصوري، التحفة، ص27.
(3) المنصوري، زبدة الفكرة، ص10؛ المنصوري، التحفة، ص34.
(4) المنصوري، زبدة الفكرة، ص12؛ المنصوري، التحفة، ص35.
(5) المنصوري، زبدة الفكرة، ص12 -13؛ المنصوري، التحفة، ص35.

من انقطعمن الأتباع عنهم"[1]. أضف إلى ذلك قيامه بالاستيلاء على ممتلكات أميرهم فارس الدين أقطاي وتهديده بالقتل لكل من يأوي أحداً من المماليك البحرية[2].

ينتقل بيبرس المنصوري بعد ذلك لبيان كيفية تحالف المماليك البحرية مع الأيوبيين في بلاد الشام لا سيما الملك الناصر صاحب حلب ودمشق والملك المغيث صاحب الكرك ضد الدولة المملوكية في مصر، وقد تم تفصيل الصراع بين الطرفين سابقاً.

3. انقلاب شجر الدر على زوجها السلطان المعز وقتله:

وفي عام 655هـ/1257م تغيرت شجر الدر على زوجها السلطان المعز، واتفقت مع خدامها على قتله، وقد أوضح بيبرس المنصوري أن السبب الذي حداها على ذلك هو بلوغ الخبر إليها بأن السلطان المعز "أرسل يخطب لنفسه بنتي صاحب حماة والموصل [فأخذتها] الحيرة، وملكتها الغيرة لما قصده من الاستبدال بها، والاعتزال عنها"[3].

قامت شجر الدر بتنفيذ ما خططت له، وقتلت السلطان المعز "فلما دخل إلى الحمام أحاط به جماعة من الخدام، وأذاقوه كأس الحمام"[4]. ثم أن بيبرس المنصوري يذكر أن شجر الدر أشاعت في مصر أن السلطان قد مات فجأة في الليل مبرزاً بعد ذلك أن تلك الإشاعة لم تنطل على مماليك السلطان المعز الذين عرفوا أن شجر الدر هي التي دبرت لقتله، لذلك اجمعوا أمرهم، وتوجهوا إليها وقتلوها[5].

---

(1) المنصوري، زبدة الفكرة، ص13؛ المنصوري، التحفة، ص35.

(2) المنصوري، زبدة الفكرة، ص13؛ المنصوري، التحفة، ص36.

(3) المنصوري، زبدة الفكرة، ص24؛ المنصوري، التحفة، ص39.

(4) المنصوري، زبدة الفكرة، ص24؛ المنصوري، التحفة، ص39؛ المنصوري، مختار، ص9.

(5) المنصوري، زبدة الفكرة، ص24؛ المنصوري، التحفة، ص39؛ المنصوري، مختار، ص9.

استقر المنصور نور الدين علي بعد وفاة والده السلطان المعز في السلطنة أثـــر اتفاق الأمراء على ذلك، وقد كان المذكور صغير السن (10 سنوات)، لذلك تم تعيين الأمير سيف الدين قطز أتابكاً له لتدبير شؤون الدولة[1].

لم يستمر المنصور نور الدين علي طويلاً في السلطنة، فقد تم في بدايــة عـــام 657هـــــ/1258م خلع المذكور باتفاق من أمراء الدولة، وتولية أتابكه الأمير سيف الدين قطز السلطنة، وقد أوضح بيبرس المنصوري أن السبب في ذلك هو عدم قدرة السلطان المنصور على مواجهة الخطر المغولي الذي أخ ذ باجتياح بلاد الشام " ورأوا أن ولد المعز يصغر عن مباشرة الحرب، وممارسة هذا الخطب،ومتى لم يتــولاهم من الفحول من يقول ويصول ويتلقى بصدره ما أمامهم من الأمر المهــول ذهـــب الإسلام ضياعاً ووهناً وانصداعاً، فاتفقوا على إقامة الأمير سيف الدين قطز المعزي، لأنه كبير البيت ونائب الملك وزعيم الجيش"[2]. أضف إلى ذلك تحكم والدة المنصور في أمور الدولة، وأيلان شؤونها للفساد[3].

أما مصير السلطان المنصور المخلوع من السلطنة، فقد بيّن بيبرس المنصوري أنه تم القبض عليه وعلى أخيه قاقان بأمر من المظفر قطز، وسجنهما في برج قلعة الجبل، ثم إرسالهما إلى دمياط وسجنا هناك[4]، ثم تم نفيهما مع أمهما فـــي عهـــد السلطان الظاهر إلى القسطنطينية[5]، وهذا ما سيشار إليه لاحقاً.

بعد هذا واجه السلطان المظفر المغول، وانتصر عليهم في موقعة عين جـــالوت عام 658هـــ/1259م، وقد بيّن بيبرس المنصوري أن السلطان المظفر لم يكتب لـــه الوصول إلى مصر بعد انتصاره ذلك، ذاكراً أن السبب في ذلك هو قيـــام المماليــك

---

(1) المنصوري، زبدة الفك رة، ص24-25؛ المنصوري، التحفة، ص39؛ المنصوري، مختــار، ص10.

(2) المنصوري، زبدة الفكرة، ص 46 المنصوري، التحفة، ص 41-42 المنصوري، مختــار ، ص10.

(3) المنصوري، مختار، ص10.

(4) المنصوري، زبدة الفكرة، ص46؛ المنصوري، مختار، ص10.

(5) المنصوري، زبدة الفكرة، ص46.

البحرية بزعامة الأمير بيبرس البندقداري بالانقلاب عليه وقتله في منطقة القصير أثناء مطاردته للصيد[1].

ويذكر بيبرس المنصوري معلومات هامة عن أسباب انقلاب المماليك البحرية على المظفر قطز، وقتله، بحيث لا نجدها عند غيره من المؤرخين، وهذه الأسباب هي:

1. حقد المماليك البحرية على الملك المعز والمظفر قطز لاستبدادهما في الملك بعد قتل زعيمهم الأمير فارس الدين أقطاي المشار إليه سابقاً.

2. كما أن الملك المعز والمظفر قطز كانا السبب في تشتتهم في بلاد الشام "واستبدادهما بالملك... الجائهم إلى الهرب والهجاج، والتنقل في الفجاج إلى غير ذلك من أنواع الأهوال التي قاسوها و المشقات التي لابسوها "[2]. أما السبب في انضمام المماليك البحرية إلى المظفر قطز في موقعة عين جالوت، فهو كما يبرز بيبرس المنصوري "وإنما انحازوا إليه لما تعذر عليهم المقام بالشام، وللتناصر على صيانة الإسلام لا لأنهم أخلصوا له الولاء أو رضوا له الاستيلاء"[3].

يبيّن بيبرس المنصوري المجريات التي تمت أثر مقتل المظفر قطز، ذلك أنه تم اجتماع الأمراء قبيل وصولهم إلى مصر، والاتفاق على تولية السلطنة للأ مير بيبرس البندقداري لأنه قاتل المظفر، ثم أنهم قاموا بإرسال أحد الأمراء إلى القاهرة بهدف إخبار الأمراء الموجودين فيها بمقتل المظفر وتولي الأمير بيبرس البندقداري السلطنة بعد أتفاق الأمراء والعساكر عليه، أضف إلى ذلك أن بيبرس المنصوري

(1) المنصوري، زبدة الفكرة، ص 53-54؛ المنصوري التحفة، ص 45؛ المنصوري، مختار، ص11.

(2) المنصوري، زبدة الفكرة، ص53.

(3) المنصوري، زبدة الفكرة، ص53.

يذكر أنه بعد ذلك دخل بيبرس البندقداري القاهرة، وتمت البيعة له في يوم السبت 17 ذي القعدة 658هـ/1259م، وتلقب بالظاهر[1].

واجه السلطان الظاهر أثر استلامه زمام الأمور على المستوى الداخلي كما يشير بيبرس المنصوري تحديين هما:

1. خروج الكوراني في القاهرة عن طاعة السلطان الظاهر عام 658هـ/1259م، وإعلانه مع طائفة من السودان والركبدارية الثورة، والمناداة بأن السلطنة لآل علي، أما رد دولة المماليك البحرية عليها، فقد ذكر بيبرس المنصوري بشيء من الاختصار أنه ما أن بدءوا بنهب الدكاكين والأسلحة والخيول حتى "ركبت جماعة من العساكر، وأحاطوا بهم وأخذوهم أخذاً وبيلاً، وأصبحوا مصلبين على باب زويلة، وسكنت الثورة، وانطفت النايرة،وكانت عليهم الدايرة(الدائرة)"[2].

2. خروج نائب السلطنة في دمشق الأمير علم الدين سنجر الحلبي عن طاعة السلطان الظاهر سنة 659هـ/1260م، وإعلان نفسه سلطاناً واتخاذه لقب المجاهد.وقد ذكر بيبرس المنصوري أن السبب الذي دفعه لذلك هو مقتل سيده الذي قلده نيابة دمشق المظفر قطز، وجلوس الملك الظاهر مكانه . أما كيفية تعامل الملك الظاهر معه، فقد بيّن بيبرس المنصوري أن الظاهر في البداية استطاع أن يستميله باللطف، حيث أرسل إليه "مائة ألف وعشرين ألف درهم أنعاماً وحوائص ذهبا، وخلعاً نفيسة". ولكن سرعان ما عاد بالانقلاب مرة أخرى على السلطان الظاهر الذي جرد إليه حملة عسكرية برئاسة علاء الدين أيدكين البندقدار استطاعت الاشتباك معه بالقرب من دمشق، والانتصار عليه، ودفعه للهرب إلى قلعة بعلبك، ثم اعتقاله والإفراج عنه والإنعام عليه من قبل السلطان الظاهر[3].

---

(1) المنصوري، زبدة الفكرة، ص 54- 55؛ المنصوري، التحفة، ص 45؛ المنصوري، مختار، ص 11- 12.

(2) المنصوري، زبدة الفكرة، ص57.

(3) المنصوري، زبدة الفكرة، ص 59- 60؛ المنصوري، التحفة، ص 45- 46.

بعد ذلك يولي بيبرس المنصوري اهتماماً بكيفية وفاة السلطان الظاهر،حيث يصف أولاً الظروف التي سبقت وفاة السلطان الظاهر "وكان القمر قد كسف كسوفاً كاملاً، وأظلم له الجو، وتأول ذلك المتأولون بموت رجل جليل القدر نبيه الذكر، فقيل أن السلطان لما بلغه هذا الإرجاف حذر على نفسه، وخاف وقصد أن يصرف التأويل إلى غيره لعله يسلم من شره"(1).

أحضر السلطان الظاهر ليصرف عنه تأويل المتأولون شخص من أولاد الملوك الأيوبية يسمى الملك الظاهر، فدبر لاغتياله مع ساقيه، فقد أمره السلطان بوضع السم له في الكأس، ففعل ذلك، كما غلط الساقي ووضع جزء منه في كأس السلطان على حد قول بيبرس المنصوري فشرب منه "ومكث أياماً يشكو في الليل والنهار من توقد وهج النار، ثم اضطر إلى اطلاع الطبيب بعد استحكام دائه طمعاً في دوائه، فلم ينجع (ينجح) العلاج، ولا نهضت قدرة الأساة بـ إصلاح المزاج، فتوفي في يوم الخميس السابع والعشرين من المحرم [676هـ/1277م في دمشق]"(2).

أخفى نائب السلطان الأمير بدرالدين بيليك الخزندار خبر وفاة السلطان الظاهر عن العساكر في دمشق، وأظهر أنه ما زال مريضاً، ثم قام بنقله لقلعة دمشق ودفنه في التربة التي بنيت له، وعرفت باسمه، ثم أن بيبرس المنصوري يذكر أن خبر وفاته بقي مخفياً حتى وصول العساكر مصر برئاسة الأمير المذكور "فأشيع مماته، وأظهرت للناس وفاته، وجلس ولده السعيد"(3).

تولى الملك السعيد ناصرالدين بركة خان السلطنة بعد وفاة والده" ذلك أن الأمير بدرالدين الخزندار لما وصل بالعساكر إلى الديار المصرية ألقى المقاليد إليه، ووقف بين يديه، واستمر على مناصحته وطاعته كما كان مع أبيه"(4).

---

(1) المنصوري، زبدة الفكرة، ص160.

(2) المنصوري، زبدة الفكرة، ص 160-161؛ المنصوري، التحفة، ص 86؛ المنصوري، مختار، ص62-63.

(3) المنصوري، زبدة الفكرة، ص 161؛ المنصوري، التحفة، ص 86؛ المنصوري، مختار، ص62-63.

(4) المنصوري، زبدة الفكرة، ص162؛ المنصوري، التحفة، ص86.

يعطي بيبرس المنصوري أثر تقلد الملك السعيد انطباعاً عن الكيفية التي صارت عليها العلاقة بين الملك السعيد وأمراء دولته الكبار، فبعد وفاة الأمير بدر الدين الخزندار وتولي الأمير شمس الدين اقسنقر الفارقاني نيابة السلطنة أخذت الأوضاع في مصر بالتدهور، ذلك على حد تعبير بيبرس المنصوري -"أن الملك السعيد مالت به الأهواء، وتقلبت به الآراء، وقدم الأصاغر، وأقصى الأكابر، وكان سنه قد ناهز العشرين، فكان يميل إلى أقرانه ومعاصري أسنانه،ويسمع أقوالهم، ويبسط آمالهم، فلما وجدوا المقال، قالوا ولما أصابوا فسحة في المجال جالوا وحسنوا له إبعاد الأمراء الكبار، ونفروه عنهم غاية النفار"(1).

ولقد بيّن بيبرس المنصوري أن الملك السعيد بعد تحريض مماليكه له ضد الأمراء الكبار قام بالقبض عليهم "فأمسك الأمير شمس الدين سنقر الأشقر والأمير بدرالدين بيسرى، وهما من أكبر الأمراء قدراً وأجلهم ذكراً، وكانا جناحي والده إذا طار وساعديه ومساعديه في السر والاجهار"(2).

كما بيّن بيبرس المنصوري ردة فعل خاله محمد بن بركة خان على السياسة تعسفية التي اتبعها تجاه الأمراء الكبار ، فقد قام بإخبار أخته والدة الملك السعيد بسوء سياسة ولدها، وقال لها : "والمصلحة أن ترديه إلى الصواب لئلا يفسد نظامه وتقصر أيامه". ثم أن بيبرس المنصوري يوضح أن الملك السعيد لما بلغه كلام خاله قام باعتقاله، الأمر الذي دفع والدته إلى تعنيفه، وبيان "سوء فعله واستحكام جهله حتى أفرج عن الأمراء المذكورين، وقد تمكنت العداوة من قلوبهم، وسكنت البغضاء في صدورهم"(3).

أما عن كيفية ردة فعل الأمراء الكبار بعد إخراجهم من السجن على الملك السعيد، فقد وضح بيبرس المنصوري أنهم قاموا بالاجتماع فيما بينهم، وتذاكروا ما فعل بهم، واتفقوا على التحدث معه ونهيه عن سياسته التعسفية ضدهم، وأرسلوا إليه يقولون حسب ما أورده بيبرس المنصوري "انك قد أفسدت الخواطر، وغيّرت عليك

(1) المنصوري، زبدة الفكرة، ص162؛ المنصوري، مختار، ص67.
(2) المنصوري، زبدة الفكرة، ص163.
(3) المنصوري، زبدة الفكرة، ص163.

الضمائر، وتعرضت إلى الأمراء الأكابر، فأما أن تر جع عن ذلك، وإلا كان لنا ولك شأن"[1].

لاطف الملك السعيد الأمراء بعد وصول رسالتهم إليه، وعقد معهم صلحاً، وحلف لهم أنه لا يريد بهم سوءً أو شراً فرضي الأمراء بذلك، وانصرفوا، واستقر الحال هنيهة"[2].

وفي سنة 677هـ/1278م توجه الملك السعيد إلى دمشق، ومن هناك قام بتوزيع الفرق العسكرية كل إلى ناحية، فالفرقة الأولى أرسلها إلى قلعة الروم،وجعل قيادتها للأمير بدرالدين بيسرى الشمسي، بينما أرسل فرقة أخرى إلى سيس برئاسة الأمير سيف الدين قلاوون، ويوضح بيبرس المنصوري باعتباره شاهد عيان أن السلطان وخاصكيته الصغار كانوا يهدفون من إرسال الأمراء الكبار إلى تلك الجهات هو تفريقهم والتمكن من التدبير عليهم، فقد "قرروا [الخاصكية] مع الملك السعيد القبض عليهم عند عودهم، وأخذ أقطاعاتهم وموجودهم وعينوا خبز [إقطاع] كل واحد لواحد منهم"[3].

اطلع الأمير سيف الدين كوندك على خطة السلطان وخاصكيته، فقام بمراسلة الأميرين المشار إليهما آنفاً سراً "يعرفهما بما اتفقت الخاصكية عليه،وما انتهى الحال إليه، فأسرا ذلك في أنفسهما، ثم خرج الأمير سيف الدين كوندك لتلقيهما، واعلمهما الأمر مشافهةً، فتحقق الخبر، ولم يشكا فيه لعلمهما بانفعال السلطان وميله إلى آراء الصبيان، فأقاموا بالمرج، ولم يدخلا دمشق، وأرسلوا إلى الملك السعيد يقولون له : إننا مقيمون بالمرج، وإن الأمير سيف الدين كوندك شكا إلينا من لاجين الزيني

(1) المنصوري، زبدة الفكرة، ص163.

(2) المنصوري، زبدة الفكرة ، ص163.

(3) الضوري، زبدة الفكرة، ص 166؛ المنصوري،التحفة، ص 88؛ المنصوري، مختار، ص66.

شكاوى كثيرة، ولا بد لنا من الكشف عنها، فيسيره السلطان إلينا لنسمع كلام كل منهما، وننصف بينهما"[1].

لم يعبأ الملك السعيد بمراسلتهم تلك، فقد قام بمراسلة الأمراء الظاهرية الذين معهم بأن يفارقوهم، ويعبروا دمشق "وأرسل الكتب إليهم مع قاصد، فوقع به أصحاب سيف الدين كوندك، فأحضروه إليه، فأحضره إلى الأمراء، فوقفوا على ما معه من الكتب، فتحققوا سوء رأيه فيهم، فرحلوا من وقتهم، ونزلوا على الجسورة من جهة داريا، وأظهروا الأمور الدالة على الخلاف"[2].

عرف الملك السعيد الخطأ الذي اقترفه في حق الأمراء الكبار كما يذكر بيبرس المنصوري، لذلك حاول تدارك الأمور معهم، فقد أرسل إليهم الأمير شمس الدين سنقر الأشقر والأمير شمس الدين سنقر التكريتي "ملتمساً منهم الرجوع، ومتلطفاً لهم بأنواع الخضوع، وباذلاً دخوله تحت مراضيهم، ووقوعه عند أوامرهم ونواهيهم"[3].

لم تجد سياسة الملك السعيد تلك نفعاً، فقد قالوا (أي الأمراء الكبار) لسفيري السلطان: "لا سبيل إلى مراجعته، وقد انصدعت القلوب، وجرت هذه الخطوب". ثم أن بيبرس المنصوري يذكر أن الملك السعيد قام أثر فشل محاولته الأولى معهم بإرسال والدته إليهم فـ "دخلت عليهم وهم على منزلة الكسوة ظاهر دمشق، فسألتهم إخماد الثوائر، واستعطفتهم بكلما يستمال به الخواطر فما مالوا إليها، ولا عاجوا عليها" فرجعت خائبة[4].

تابع بيبرس المنصوري تطور الصراع بين الملك السعيد والأمراء الكبار لا سيما الأمير بدرالدين بيسرى والأمير سيف الدين قلاوون بشكل مفصل، فقد ذكر

---

(1) المنصوري، زبدة الفكرة، ص 167؛ المنصوري التحفة، ص 88؛ المنصوري، مختار، ص 67-68.

(2) المنصوري، زبدة الفكرة، ص 167؛ المنصوري، التحفة، ص 88.

(3) المنصوري، زبدة الفكرة، ص 167؛ المنصوري التحفة، ص 88؛ المنصوري، مختار، ص 67.

(4) المنصوري، زبدة الفكرة، ص 167؛ المنصوري، التحفة، ص 88؛ المنصوري، مختار، ص 67.

كيف أنه سار مع الأمراء عقب فشل الملك السعيد في استرضائهم من الكسوة في دمشق إلى مصر التي وصلوها أوائل سنة 678هـ/1279م[1].

قام الأمراء أثر وصولهم بمحاصرة قلعة الجبل بالقاهرة، وذلك بعد أن رفض متوليها فتحها أمامهم بتحريض من الأمراء المقيمين فيها لا سيما الأمير عز الدين أيبك الأفرم والأمير علاء الدين اقطوان الساقي والأمير سيف الدين بلبان الزريقي فأغلقت وبُنى خلف أكثرها حيطان، فراسلهم الأمراء في فتح أبواب المدينة ليدخل العسكر إلى بيوتهم، ويبصروا أولادهم، فأن عهدهم بعد بهم، فنزل الأمير عز الدين الأفرم والأمير علاء الدين اقطوان الساقي إلى الأمراء ليجتمعا بهم، ويبصرا أحوالهم، فبادر سيف الدين كوندك بالقبض عليهما وعلى الحسام لاجين البركتخاني، فأنه حضر صحبتهما، وأرسل الأمراء ففتحوا أبواب المدينة، ودخل الناس إلى بيوتهم بأثقالهم"[2].

بعد هذا يلاحظ أن بيبرس المنصوري يورد تفصيلاً لأسماء الأمراء الذين توافقوا على الملك السعيد، وقاموا بمحاصرة القلعة وفتح أبوابها[3]. أما ردة فعل الملك السعيد على تلك الأوضاع، فقد وضح بيبرس المنصوري أنه قام بجمع بقايا القوات المصرية والشامية، وخرج بهم نحو مصر، ولكن أثناء الطريق وتحديداً في غزة فارقه أكثرهم، وبخاصة العربان، بحيث لم يبق معه إلا نفرٌ قليل لا يمكن أن يواجه بهم الأمراء في مصر حسب قول بيبرس المنصوري، ولذلك خطط الملك السعيد لدخول قلعة الجبل خفيه، و بخاصة عندما سمع الأمراء بقدومه وخرجوا للقائه، وبالفعل استطاع ذلك، وقد ساعده على ذلك الظروف الجوية كما يذكر بيبرس المنصوري "وكان يوماً قد تراكم ضبابه وترادف سحابه وحجب وجه الشمس نقابه،

---

(1) المنصوري، زبدة الفكرة، ص 169؛ المنصوري، التحفة، ص88- 89؛ المنصوري، مختار، ص67.

(2) المنصوري، زبدة الفكرة، ص 169؛ المنصوري، التحفة، ص 89 المنصوري، مختار، ص67.

(3) المنصوري، زبدة الفكرة، ص170؛ المنصوري، التحفة، ص89- 90.

وكان الانسان لا يبصر رفيقه وهو يسايره ولا ينظر زميله وهو يسامره، وكان ذلك لطفاً من الله للمسلمين، وحقناً لدمائهم"[1].

ولما استقر الملك السعيد في القلعة حدث صراع بين خاصكيته والزريقي، الأمر الذي دفع الملك السعيد لمراسلة الأمير سيف الدين قلاوون والأمير بدر الدين بيسرى يعاتبهم على محاصرتهم له، ولكن ذلك لم يجد، فقد بقي الأمراء محاصرين له، لأنهم يريدون خلعه من السلطنة، وبقيت الرسائل مترددة بين الطرفين إلى أن التمس الملك السعيد أن يتوجه إلى الكرك "فأجابوه إلى سؤاله وأنزلوه من القلعة على حاله، وحلفوا له أنهم لا يؤذونه في نفسه ولا يغيرون عليه مغيراً، وأحلفوا أنه لا يتطرق إلى غير الكرك، ولا يكاتب أحداً من النواب ولا يستميل إلى جهته أحداً من الجند ولا من الأعراب، وسفروه لوقته صحبة الأمير سيف الدين بيدغان الركني وجماعة يوصلونه إلى الكرك، فوصلوه وتسلمها من النائب الذي بها ... وتسلم ما بها من الأموال والذخائر والغلال ... وطلع المخدوم [قلاوون] ومن معه من الأمراء إلى القلعة على الأثر، وتصرف في التدبير ونهى وأمر"[2].

قام الأمراء عقب خلع الملك السعيد بعرض السلطنة على الأمير سيف الدين قلاوون، ولكنه رفض تسلمها، وأرتئ أن لا تخرج عن ذرية الملك الظاهر كما يذكر بيبرس المنصوري[3]؛ لذلك احضروا بدر الدين سلامش بن الملك الظاهر، وعينوه سلطاناً عليهم، ولقبوه بالعادل سنة 678هـ/1279م، واستقر الأمير قلاوون أتابكاً له[4].

---

(1) المنصوري، زبدة الفكرة، ص170-171؛ المنصوري، التحفة، ص89-90.

(2)المنصوري، زبدة الفكرة، ص 172؛ المنصوري، التحفة، ص 90؛ المنصوري، مختار، ص68.

(3) المنصوري، زبدة الفكرة، ص173؛ المنصوري، التحفة، ص90.

(4)المنصوري، زبدة الفكرة، ص 173؛ المنصوري،التحفة، ص 90؛ المنصوري، مختار، ص69.

اهتم الأمير قلاوون بشؤون الدولة وسيطر على زمام أمورها، فقام بتقريب المماليك البحرية الصالحية، ومنحهم الاقطاعات وأمرّهم بالطبلخانات ، وعين أكثرهم نواباً في القلاع الشامية، وأحسن إليهم ولذراريهم[1].

بقي الأمير قلاوون على سياسته هذه شهوراً قليله، إلى أن ألزمه أكابر الأمراء بأن يجلس في السلطنة، ويخلع بدرالدين سلامش لصغر سنه، وبالفعل استجاب قلاوون لهم كما يروي بيبرس المنصوري، وجلس في السلطنة عام 678هـ/1279م، وخطب له على المنابر، ولقب بالسلطان المنصور، وكتب إلى مختلف الولايات بسلطنته وضربت السكة باسمه[2].

واجه السلطان المنصور قلاوون في عهده على المستوى الداخلي ثلاثة انقلابات على سلطنته، وقد أسهب بيبرس المنصوري في الحديث عنها، وأطنب، بحيث تتبع تطوراتها طيلة عهد المنصور قلاوون، وكيفية تصديه لها، وهي:

1. ثورة السلطان المخلوع الملك السعيد بن الملك الظاهر في مدينة الكرك سنة 678هـ/1279م، ثم توليها بعد وفاته من قبل أخيه الملك المسعود خضر، بهدف استعادة السلطنة التي اعتبروا المنصور قلاوون مغتصباً لها.

أبرز بيبرس المنصوري بإسهاب ملابسات هذه الثورة، وكيفية تصدي الدولة المملوكية لها، فقد ذكر أن السلطان المنصور قلاوون قام عام 678هـ/1279م بتجريد حملة عسكرية برئاسة الأمير بدرالدين بيليك الأيدمري نحو الشوبك، مبيناً أن السبب في ذلك هو نقض الملك السعيد العهود و المواثيق التي أخذها عليه السلطان المنصور عندما خلعه من السلطنة، والتي كان من أبرزها "أنه لا يكاتب أحداً من النواب، ولا يستفسد أحداً من العساكر، ومستحفظي القلاع"[3].

---

(1) المنصوري، زبدة الفكرة، ص173؛ المنصوري، التحفة، ص90.

(2)المنصوري، زبدة الفكرة، ص 174؛ المنصوري، التحفة، ص91-92؛ المنصوري، مختار، ص70.

(3)المنصوري، زبدة الفكرة ، ص179 المنصوري، التحفة ، ص92؛ المنصوري، مختار، ص70-71.

لم يأبه الملك السعيد بهذه العهود والمواثيق التي قطعها، ذلك أن مماليكه قاموا بتحريضه على الا ستيلاء على الشوبك كبداية للسيطرة على بلاد الشام، ثم مصر، وبالفعل استجاب الملك السعيد لهم، فاستولى على الشوبك الأمر الذي دفع السلطان لتجريد حملة كانت برئاسة المشار إليه آنفاً انتهت بإعادة الشوبك إلى حوزة الدولة المملوكية(1).

بعد ذلك توفي الملك السعيد، وتسلم الكرك بدلاً منه أخيه نجم الدين خضر الملقب بالمسعود(2).

سار أمير الكرك الجديد على نهج أخيه في عدائه للسلطان المنصور، فقد بيّن بيبرس المنصوري أنه قام عقب توليه الكرك بتحريض من مماليكه بإعلان انقلابه على السلطان المنصور قلاوون ، والاستيلاء على السلط التابعة للسلطان الذي جرد كرد على ذلك حملة عسكرية هدفها ترهيب الملك المسعود خضر(3).

انتهت هذه الحملة كما يذكر بيبرس المنصوري بتقرير الصلح بين السلطان المنصور والملك المسعود خضر عام 680هـ/1281م على أن يستقر الأخير في الكرك، ويكون له من الحساء إلى الموجب "وأمر -أي السلطان- بإرسال من كان في القاهرة من حريمهم وذريتهم إليهم، وأن ترد جميع الأملاك الظاهرية عليهم"(4).

وفي سنة 682هـ/1283م ساءت العلاقة بين السلطان المنصور وأولاد الملك الظاهر القاطنين الكرك لا سيما الملك المسعود خضر وأخيه الأمير بدرالدين سلامش وعائلتهم، وقد بيّن بيبرس المنصوري أن السبب في تغيّر السلطان عليهم هو إفسادهم في الكرك.

أما رد السلطان عليهم، فقد ذكر بيبرس المنصوري أنه قام في البداية باستمالتهم بالطرق السلمية من خلال مراسلتهم وحثهم على عدم الافساد، ولكن هذه الطريقة

---

(1)المنصوري، زبدة الفكرة ، ص179؛المنصوري، التحفة، ص 92 المنصوري، مختار ، ص70-71.

(2) المنصوري، التحفة، ص92.

(3) المنصوري، زبدة الفكرة، ص180.

(4) المنصوري، التحفة، ص98.

فشلت، مما دفع بالسلطان لتجريد حملة تجاههم لمضايقتهم، وقد بقيت الحملة محاصرة للكرك إلى أن توجه السلطان بنفسه إلى الشام، وعمل على استقرار بلاد الشام ثم عاد لمصر(1).

تابع بيبرس المنصوري تطور العلاقة بين السلطان المنصور وأولاد الملك الظاهر، فقد وضح أنه في عام 685هـ/1286م قام بتجريد حملة عسكرية برئاسة الأمير حسام الدين طرنطاي نحو الكرك لاستعادتها، فحاصرها الأخير وضايقها بالمنجنيقات، ناهيك عن قطعه الميره عنها، الأمر الذي دفع أخيراً أولاد الملك الظاهر إلى طلب الأمان، فأجابهما إلى ذلك، وراسل السلطان يطلب منه بإرسال أحد خاصته بخاتم الأمان، وبالفعل أرسل السلطان المنصور قلاوون بيبرس المنصوري بأمانه إلى الكرك، وبذلك عادت الكرك لحوزة السلطان(2).

أما مصير أولاد الملك الظاهر، فقد ذكر بيبرس المنصوري باعتباره شاهد عيان أنه تم إحضارهم إلى مصر فـ "ركب السلطان والأمراء والعسكر في موكب حفل، وتلقاهما، وأقبل عليهما، وأطلعهما القلعة، ولم يعرض اليهما بسوء بل وفى لهما بأمانه وغمرهما بإحسانه، وأعطى كلاً منهما إمرة بمائة فارس، واستمرا يلعبان مع ولديه في الميدان، ويركبان معه في المواكب، ونزلهما منزلة أولاده ... وشرط عليهما أن يسلكا ما يجب من الأدب، ويتجنبا مناهج الريب، فلبثا على ذلك برهة... ثم بلغه عنهما أمور أنكرها، فقبض عليهما، وبقيا في الاعتقال إلى أيام ولده الأشرف، فسيرهما إلى القسطنطينية"(3).

---

(1) المنصوري، زبدة الفكرة، ص231-232؛ المنصوري، التحفة، ص108.

(2)المنصوري، زبدة الفكرة ، ص254 -255؛المنصوري، التحفة ، ص115؛ المنصوري، مختار، ص85.

(3)المنصوري، زبدة الفكرة ، ص255؛ المنصوري، التحفة ، ص115 -116؛ المنصوري، مختار، ص85.

2. انقلاب نائب السلطنة في دمشق الأمير شمس الدين سنقر الأشقر على السلطان المنصور قلاوون سنة 678هـ/1279م، وإعلان نفسه سلطاناً بعد ادعائه أن السلطان المنصور قد قتل، واتخاذه لقب الملك الكامل[1].

أطنب بيبرس المنصوري في معلوماته في هذا الجانب، بحيث تتبع السياسة التي اتبعها السلطان المنصور قلاوون مع الأمير شمس الدين سنقر الأشقر، فقد ذكر بيبرس المنصوري أن الأمير المشار إليه لما علم بوصول الأمير عزالدين الأفرم للشام بحملة عسكرية من قبل السلطان ظن أنه قادم للقضاء عليه، وفي حقيقة الأمر كان يهدف من تلك الحملة إخماد ثورة أولاد الملك الظاهر في الكرك، لذلك كتب الأمير سنقر الأشقر إلى الأفرم كتاباً تضمن حسب ما دونه بيبرس المنصوري "أنني مهدت الشام، وفتحت القلاع، وبذلت في خدمة السلطان ما لم يبذله أحد، وكان شرطي معه أن أكون حاكماً من الفرات إلى العريش، فاستناب أقوش الشمسي بحلب، وعلاء الدين الكبكي بصفد، وسيف الدين الطباخي بحصن الأكراد، وآخر الحال يسيّر إليّ من يمسكني فلا تقطع العقبة، ولا تدن من البلاد، وإن غررت فقد عبّينا لك الضيافة"[2].

قام الأمير الأفرم بعد وصول الكتاب إليه، بإخبار السلطان المنصور بمضمون الكتاب الذي أرسله الأمير سنقر الأشقر، مما دفع السلطان إلى إنكار فعله، ومراسلته يهدده ويتوعده، ويأمره بالطاعة، ولكن ذلك لم يجد معه[3].

أما الأمير الأفرم، فقد بيّن بيبرس المنصوري أنه تراجع إلى غزة، ذاكراً أن السبب في ذلك هو عدم قدرة القوات المصرية على مواجهة القوات الشامية التي يترأسها الأمير سنقر الأشقر، وتفوق عدد جيشه.

(1) المنصوري، زبدة الفكرة، ص178-179؛ المنصوري، التحفة، ص92؛ المنصوري، مختار، ص71

(2) المنصوري، زبدة الفكرة، ص181؛ المنصوري، مختار، ص71.

(3) المنصوري، زبدة الفكرة، ص181-182.

التقى الأمير الأفرم حين وصوله غزة بالأمير بدر الدين الأيدمري الذي جرده السلطان لانتزاع الشوبك من الملك السعيد، فانضم الاثنان لبعضهما(1).

أما موقف الأمير سنقر الأشقر من ذلك، فقد وضح بيبرس المنصوري أن الأشقر قام بحشد قواته الشامية والقبائل العر بية، ووجههم نحو غزة سنة 679هـ/1280م، حيث هناك تم الالتقاء بين قواتهم و قوات الأفرم والأيدمري، وقد انتهى هذا اللقاء بهزيمة القوات الشامية التابعة لسنقر الأشقر، وأسر عدد منهم(2).

أما ردة فعل الأمير سنقر الأشقر على هزيمة قواته، فقد ذكر بيبرس المنصوري أنه أعاد ترتيب قواته لمواجهة القوات المصرية، وراسل الأمراء في غزة، واستمالهم لصفه مقابل منحهم القلاع الموجودة في تلك المنطقة(3).

أما السلطان المنصور قلاوون، فقد قام كرد عليه بتجريد حملة عسكرية برئاسة الأمير علم الدين سنجر الحلبي والأمير بدرالدين بكتاش الفخري أمير سلاح إلى الشام، حيث اجتمعا هناك مع القوات المصرية التي يقودها الأفرم والأيدمري، وتوجهوا نحو دمشق للقضاء على القوات الشامية.

وعندما وصلت القوات المصرية الجسورة سنة 679هـ/1280م اشتبكت مع القوات الشامية التي يترأسها الأمير سنقر الأشقر، وقد أسفر اللقاء كما يدون بيبرس المنصوري عن هزيمة الأمير سنقر الأشقر وقواته، وهروبه نحو الرحبة ، في حين نزلت القوات الشامية على دمشق و تسلموها(4).

وفي أعقاب موقعة الجسورة قام الأمير علم الدين سنجر الحلبي بمراسلة السلطان لإخباره بالنصر على سنقر الأشقر، وبعث إليه الأسرى الذين عـ املهم السلطان

---

(1) المنصوري، زبدة الفكرة، ص182؛ المنصوري، التحفة، ص93.

(2)المنصوري، زبدة الفكرة، ص 182؛ المنصوري، التحفة، ص 39 المنصوري، مختار، ص71.

(3) المنصوري، زبدة الفكرة، ص182.

(4) المنصوري، زبدة الفكرة، ص182؛ المنصوري، التحفة، ص93-94.

باللطف والإحسان"وأعطاهم الحوائص الذهبية و الخيول العربية، وتعابي القماش الملوكية"[1].

يعقب بيبرس المنصوري اعتماداً على ما رواه من حضر موقعة الجسورة أن الأمير سنقر الأشقر لما التقى مع القوات المصرية التي يترأسها الحلبي دبر حيلة مع القبائل العربية الشامية للقضاء على الحلبي وقواته، ولكن تلك الحيلة لم تنجح، فكان النصر حليف القوات المصرية[2].

تابع بيبرس المنصوري مصير الأمير سنقر الأشقر وعلاقته بعد موقعة الجسورة مع السلطان المنصور، فذكر أن الأمير سنقر الأشقر بعد هزيمته توجه نحو الرحبة، فطالب صاحبها الموفق خضر الرحبي بتسليمها له، إلا أن الأخير رفض تسليمها، الأمر الذي دفع الأمير سنقر الأشقر إلى مكاتبة ايلخان المغول أبغا ابن هولاكو يعرفه بأوضاع المسلمين وما هم عليه من تفرقه، ويحثه على القدوم إلى بلاد الشام لامتلاكها، ويعده بالوقوف إلى جانبه حين قدومه[3].

أما ردة فعل السلطان على فعل الأمير سنقر الأشقر ، فقد وضح بيبرس المنصوري أن السلطان قام بتجريد حملة عسكرية برئاسة الأمير حسام الدين بن أطلس خان للقضاء عليه ، و لكن هذه الحملة لم يكتب لها تحقيق هدفها بسبب هروب الأمير سنقر الأشقر إلى صهيون[4].

لما علم السلطان بتقدم المغول نتيجة لمراسلة الأمير سنقر الأشقر لهم ، قام بمراسلة الأخير، وحثه فيها على الطاعة،وعدم مناصرة المغول على المسلمين ، ناهيك عن ترغيبه وترهيبه له.

---

(1) المنصوري، زبدة الفكرة، ص183؛ المنصوري، التحفة، ص94.

(2) المنصوري، زبدة الفكرة، ص183.

(3) المنصوري، زبدة الفكرة، ص183- 184؛ المنصوري، مختار، ص71.

(4) المنصوري، زبدة الفكرة، ص184؛ المنصوري، مختار، ص71.

استجاب الأمير سنقر الأشقر إلى مراسلات السلطان " فجنح إلى سلم الإسلام، وأصاخ إلى التوبيخ والملام ، ونزل من صهيون إلى الجراص على عزم إنجاد المسلمين، والرجوع إلى مظافرة الدين"[1].

وبعد استقرار العلاقات بين السلطان المنصور قلاوون والأمير سنقر الأشقر، قام الأول بتفويض ولاية العهد لولده الملك الصالح علاء الدين أبي الفتح علي ، وقد دوّن بيبرس المنصوري نص ذلك التفويض بحرفيته[2].

وفي أعقاب ذلك تسلل أغلب الأمراء المناصرين للأمير سنقر الأشقر إلى السلطان المنصور، كما تسلل معهم أيضاً بعض الأمراء الظاهرية الذين كانوا قائمين في القلاع التي انحازت لسنقر الأشقر[3].

وفي سنة 680هـ/1281م راسل السلطان المنصور الأمير سنقر الأشقر ، وطالبه بتسليم شيزر ، وقد ذكر بيبرس المنصوري أن الأمير المذكور أجاب طلب السلطان وسلمه شيزر والشغر وبكاس، وتم تصفية الخلاف بينهما[4].

وبعد قرابة أربع سنوات -أي عام 684هـ/1285م عادت العلاقات بين السلطان المنصور و الأمير سنقر الأشقر إلى التوتر ، وقد وضح بيبرس المنصوري أن السبب في ذلك هو تأخر الأمير سنقر الأشقر عن مساندة السلطان في فتح حصن المرقب، فتغيّر له باطن الملك المنصور ، ثم إنه أرسل -سنقر الأشقر- واحداً من أولاده يسمى سيف الدين صمغار إلى المخيم، متلافياً لما قدّم، فحنق السلطان عليه، و منعه العود إلى والده ، وأمر بتوجهه إلى الديار المصرية، وعاد السلطان إلى الديار المصرية، وقد وجد في نفسه على سنقر الأشقر لما ظهر له منه من قلة الوفاء، وكثرة الجفاء، وتكدير ما كان قد ترتب من الصفاء"[5].

---

(1) المنصوري، زبدة الفكرة، ص185؛ المنصوري، التحفة، ص95.

(2) المنصوري، زبدة الفكرة، ص185- 188؛ المنصوري، التحفة، ص95.

(3) المنصوري، زبدة الفكرة، ص189؛ المنصوري، التحفة، ص95.

(4) المنصوري، زبدة الفكرة، ص193- 194؛ المنصوري، التحفة، ص97- 98.

(5) المنصوري، زبدة الفكرة، ص253؛ المنصوري، التحفة، ص114.

أدى هذا السبب إلى أن يقوم كما يذكر بيبرس المنصوري - السلطان بتجريد حملة عسكرية برئاسة الأمير حسام الدين طرنطاي تجاه الأمير سنقر الأشقر في صهيون وقد وضح بيبرس المنصوي كيفية تقدم الأمير الأول إلى صهيون ، ومحاصرتها بشده، وضربها بالمجانيق الأمر الذي دفع صاحبها الأمير سنقر الأشقر إلى أن يطلب الأمان فلستجاب له الأمير حسام الدين طرنطاي ، وأمنه على نفسه وأهله وحاشيته وأعيانه ثم قام سنقر بالنزول من صهيون وتسليمها للأمير حسام الدين طرنطاي عام 686هـ/1287م[1].

أما مصير الأمير سنقر الأشقر وكيفية تعامل السلطان معه ، فقد بيّن بيبرس المنصوري أن الأمير حسام الدين طرنطاي قام باصطحاب سنقر الأشقر معه إلى مصر ،حيث استقبله السلطان مع ولديه الصالح علي و الأشرف وأولاد الملك الظاهر في موكب كبير "وتلقى السلطان المير شمس الدين –سنقر- بالبشر والإقبال ، والرحب والاحتفال،وتعانقا وتكارشا وتقارضا تحية المحبيّن إذا التقيا بعد البين ، ثم أطلعه إلى القلعة معه ، واسكنه فيها، وأورده من مناهل الإكرام صافيها، وحمل إليه من الخلع الفاخرة ،والأقمشة الزاهرة ، وحوائص الذهب الثمينة ، وأنواع التحف النفيسة وأعطاه إمرة مائة فارس وساق إليه من الخيل المسومة ..."، وبقي الأمير سنقر بقية عهد السلطان في مكانة مرموقة[2].

3. انقلاب الأمير سيف الدين كوندك الساقي وجماعة من الظاهرية على السلطان المنصور قلاوون سنة 680هـ/1281م، ومحاولتهم قتله:

أما السياسة التي اتبعها السلطان قلاوون ضدهم ، فقد بيّن بيبرس المنصوري بإيجاز أن السلطان ما أن علم بمخططهم لقتله عن طريق رسالة واصله إليه من عكا حتى دبر حيلة للقبض عليهم وأغلق الطرقات عليهم، ولكن أحساس الأمراء المناوئين للسلطان بتلك الحيلة دفعهم إلى الهروب إلى مناطق مختلفة ، ثم أن السلطان خرج

(1) المنصوري، زبدة الفكرة، ص258-259؛ المنصوري، التحفة، ص117-118.

(2) المنصوري، زبدة الفكرة، ص258-259؛ المنصوري، التحفة، ص117-118.

إلى حمراء بيسان، أرسل لأولئك الأمراء بضرورة الحضور إليه في المنزلة ، فحضروا وعاتبهم، ثم اعتقلهم وقتلهم بعد اعترافهم بتدبيرهم لقتل السلطان[1].

تابع بيبرس المنصوري تطور حركات التمرد على السلاطين بعد وفاة السلطان المنصور قلاوون سنة 689هـ/1290م الذي ولي مكانه في السلطنه ولده الأشرف خليل[2]، فكان من أبرزها في عهد الأخير انقلاب الأمير بدر الدين بيدرا و جماعة من الأمراء عليه سنة 693هـ/1293م وقتله على يديهم.

وقد بيّن بيبرس المنصوري بشكل مفصل مجريات هذا الانقلاب وانتهائه بمقتل السلطان الأشرف خليل ، فذكر بدايةً أن السبب الذي أدى إلى توتر العلاقة بين الأمير بدر الدين بيدرا والسلطان هو سعاية الوزير شمس الدين بن السلعوس ضده عند السلطان أثناء زيارته للصعيد سنة 692هـ/1292م "وخرج السلطان متوجهاً إلى الوجه القبلي، فلما تحدث الوزير في الأعمال لتحصيل الأموال ، وتقرير التقادم من الخيل والجمال وجد لبيدرا عدة من البلاد محميّة باسمه جارية في ديوانه ، وله بها كثير من الحواصل والغلال مع شغور الشؤن [الشؤون] السلطانية ووقوف المعاملات الديوانية، وتعذر ما يستدعيه من الاقامات و الأموال،وما يقوره من الخيل والجمال ، فلم يتمكن منها ووجد نوابه الذين بكل جهة يدافعون عنها، فأوحى إلى السلطان من أمره ما غيّر ذات صدره"[3].

حاول الأمير بدر الدين بيدرا تلافي وشاية ابن السلعوس ، فاستقبل السلطان أثناء عودته من الصعيد "وضرب له بالعدوية خيمة من الأطلس الأحمر بإطناب من الابريسم الملون، وعمد صندليّة محلاة بفضة مطلاة منقوشة بأنواع النقوش مرقشة بأبدع الرقوش مفروعة ببسط من الحرير مصورة غرائب التصوير ، وعمل له ضيافة بالغ فيها".

---

(1) المنصوري، زبدة الفكرة، ص191 -192؛ المنصوري، التحفة، ص97.
(2) المنصوري، زبدة الفكرة، ص272؛ المنصوري، التحفة، ص125.
(3) المنصوري، زبدة الفكرة، ص 292؛ المنصوري، التحفة، ص 136؛ المنصوري، مختار، ص91.

ومع ذلك يذكر بيبرس المنصوري أن العلاقة بقيت متوترة بينهما " فنزل السلطان في الخيمة قدر ساعة ثم ركب إلى القلعة ولم يظهر بشاشة لقبولها ، ولا استحساناً لها"[1].

وفي سنة 693هـ/1293 م توجه السلطان الأشرف خليل إلى الإسكندرية بهدف الصيد، ويذكر بيبرس المنصوري أن وزيره ابن السلعوس سبقه لتلك الجهة ، فلما وصل السلطان حرضه على الأمير بدر الدين بيدرا ، ملدفع السلطان لاستدعائه ، وإهانته، ثم تركه.

اجتمع الأمير بدر الدين بيدرا بعد خروجه من عند السلطان بخوشداشيته ، المناوئين للسلطان، واتفق معهم لا سيما الأمير حسام الدين لاجين المنصوري ، والأمير شمس الدين قراسنقر على قتل السلطان قبل أن يثب عليهم "، وقد استغل الأمراء السابق ذكرهم كما يذكر بيبرس المنصوري توزيع السلطان للأمراء على إقطاعاتهم وبقائه مع مماليكه الخواص لوحده ، فقاموا بتتبع حركته إلى أن وصل تروجه، فعملوا على الإحاطة به وقتله[2].

وفي أعقاب ذلك اتفق الأمراء على تولية الأمير بدر الدين بيدرا السلطنة ، ولقبوه بالقاهر، واتفقوا على الاستيلاء على القلعة لتتم لهم المنعة ، ولكن لم يكتب لاتفاقهم هذا التنفيذ لأن بيبرس المنصوري يذكر أن حاشية السلطان الأشرف لاسيما الأمير ركن الدين الجاشنكير و الأمير سيف الدين برلغي والأمير حسام الدين استاذ الدار والأمير بدر الدين بكتوت العلائي والمماليك السلطانية استطاعوا أن يلحقوا بهم ويشتبكوا معهم في معركة انتهت بمقتل الأمير بدر الدين بيدرا ، وهروب بقية الأمراء المناصرين له[3].

---

(1) المنصوري، زبدة الفكرة، ص292.

(2) المنصوري، زبدة الفكرة، ص 295-296؛ المنصوري، التحفة، ص 136؛ المنصوري، مختار، ص95-96.

(3) المنصوري، زبدة الفكرة، ص296-297؛ المنصوري، التحفة، ص136-137؛ المنصوري، مختار، ص96-97.

وصل الأمراء السابق ذكرهم عقب انتصارهم على الأمير بدر الدين بيدرا إلى القلعة، اتفقوا مع نائب القلعة الأمير علم الدين سنجر الشجاعي على تقليد الملك الناصر محمد بن قلاوون السلطنة، فتم له ذلك سنة 693هـ/1293م[(1)].

عمل السلطان الناصر منذ تسلمه السلطنة على تصفية الأمراء الذين تعاونوا مع الأمير بدر الدين بيدرا على قتل أخيه الملك الأشرف، وقد ذكر بيبرس المنصوري أسمائهم وكيفية تصرف السلطان معهم:" وقع منهم أولاً بهادر رأس النوبة، وأقوش الموصلي الحاجب،فضربت رقابهما ،وأحرقت جثتهما ،ثم وقع بعدهما طرنطاي الساقي والناق [أناق]السلاحدار ونوغيه السلحدار ... وكان ركن الدين الجاشنكير يتوجه إليهم، ويتولى عقابهم... وأمسك [علم الدين] الشجاعي شمس الدين محمد بن السلعوس وزير الملك الأشرف ، فصادره،واستصفى أمواله ...إلى أن مات "[(2)]. أما الأمير شمس الدين قراسنقر و حسام الدين لاجين المنصوري ، فقد شفع مملوك من مماليك الأمير زين الدين كتبغا فيهما عند السلطان الذي قبل شفاعته، وعفا عنهما، وأمر لكل منهما بإمرة[(3)].

ويشير بيبرس المنصوري إلى أن الأوضاع الداخلية في مصر قد أخذت بالتأزم بعد ذلك نتيجة لسوء العلاقة بين الأمير علم الدين الشجاعي نائب القلعة والأمير زين الدين كتبغا، وقد وضح بيبرس المنصوري أن السبب في توتر العلاقة بين الأثنين هو وشاية اثنان من بطانة الشجاعي لا سيما قنغر وجاورشي ولده عند الأمير زين الدين كتبغا بأن الشجاعي دبر خطة ينوي بها القبض عليه وعلى أتباعه عند طلوعهم القلعة، الأمر الذي أثار الأمير زين الدين كتبغا ودفعه إلى الاجتماع بأتباعه ، ثم راسلوا السلطان وطلبوا منه تسليم الشجاعي للتحقيق معه في أمور وصلتهم عنه ، فاخبرهم السلطان أنه لا يعلم شيئاً من الأمور التي يتحدثون عنها ، ثم أنهم بينوا للسلطان أنهم على طاعته وحفظ بيعته ، وأنهم يريدون الشجاعي الذي تحصن في القلعة، محاصرته فيها لعدة أيام من قبل الأمير زين الدين كتبغا وأتباعه ، وقد

---

(1) المنصوري، زبدة الفكرة، ص297 -298؛ المنصوري، التحفة، ص137 -138.

(2) المنصوري، زبدة الفكرة، ص299 -300؛ المنصوري، التحفة، ص138 -139.

(3) المنصوري، زبدة الفكرة، ص303.

بقي الشجاعي تلك الحال حتى تسلل بعض أتباعه من القلعة ،والتحقوا بكتبغا ، وهذا الأمر اضطره أخيراً إلى تسليم نفسه إلى الأمير زين الدين كتبغا الذي أمر بسجنه، وبينما هو في طريقه إلى السجن وثب عليه مماليك الأمير سيف الدين الأقوش السلحدار والأمير سيف الدين صمغار فقتلوه، وبذلك انتهت الفتنة[1].

ويذكر بيبرس المنصوري أنه في أعقاب سكون الفتنة قام الأمير زين الدين كتبغا والأمراء المناصرين له بتجديد ولاءهم وعهودهم للسلطان الناصر محمد ، واستقرت الأوضاع لفترة[2].

وفي سنة 694 هـ/1294م قامت المماليك السلطانية بثورة عظيمة في مصر ضد السلطان وأمرائه، وقد بيّن بيبرس المنصوري اعتماداً على ما نقله له من حضر الفتنة أن السبب في ثورتهم تلك هو إبعادهم عن مناصب الدولة ، وعدم دفع رواتبهم[3]ذاكراً أن هؤلاء المماليك تقدموا للمدينة ونهبوا الأموال منها ، وراسلوا أصحابهم الموجودين عند السلطان للانضمام إليهم، ولكنهم رفضوا ذلك، وهذه الثورة دفعت أخيراً الأمراء الموجودين في القلعة إلى الخروج إليهم ، والاشتباك معهم في معركة انتهت بهزيمة المماليك السلطانية ، واعتقال اغلبهم خاصة اللذان سببا الفتنة وهما كتبغا وساطلمش، وبذلك انتهت الفتنة[4].

ويبرز بيبرس المنصوري أن فتنة المماليك السلطانية قد كانت دافع رئيسي إلى أن يقوم بعد ذلك الأمير زين الدين كتبغا بتحريض من مماليكه وصبيانه إلى الانقلاب على السلطان الناصر وخلعه من السلطنة وإنزاله في أحد المنازل وحجبه عن الناس، والجلوس مكانة وتلقبه بالعادل سنة 694هـ/1294م[5].

---

(1) المنصوري، زبدة الفكرة، ص300 -302؛ المنصوري، التحفة، ص139 -141.

(2) المنصوري، زبدة الفكرة، ص302 -303.

(3)المنصوري، زبدة الفكرة، ص 304؛ المنصوري، التحفة، ص 142؛ المنصوري، مختار ، ص99 -100.

(4)المنصوري، زبدة الفكرة، ص 304 المنصوري، التحفة ، ص142 -143؛ المنصوري، مختار ، ص99 -100.

(5) المنصوري، زبدة الفكرة، ص305؛ المنصوري، التحفة، ص143 -144.

يلمستمر السلطان العادل كتبغا طويلاً في السلطنة ، فقد ذكر بيبرس المنصوري أن السلطان اتبع سياسة تمثلت بتقريب التتار الأويراتيه القادمين من البلاد المشرقية وتقديمهم على الأمراء الكبار في الدولة ، وتنصيبهم في مراكز الدولة العليا قبل دخولهم الإسلام[1].

لم تلق هذه ا لسياسة قبولاً لدى أمراء الدولة وخاصة الأمير حسام الدين لاجين المنصوريلذلك اتفقوا على خلع السلطان العادل كتبغا ،والإيقاع بمماليكه ، وبالفعل لما عاد السلطان من بلاد الشام وثب الأمراء على مملوك السلطان بكتوت الأزرق فقتلوهثم قتلوا مملوكه الأخر بتخاص الزيني ،أما السلطان فقد أحس بخطتهم تلك ، فهرب إلى دمشق ومنها إلى صرخد التي استقر فيها[2].

وبعد هروب السلطان العادل كتبغا اتفق الأمراء على تقليد الأمير حسام الدين لاجين السلطنة سنة 696هـ/1296م، وقد اشترطوا عليه مقابل ذلك أن لا يقدم أحداً من مماليكه عليهم وخاصة مملوكه منكوتمر[3].

ابتدأ السلطان المنصور حسام الدين لاجين عهده بإرسال الملك الناصر محمد إلى الكركثتوجّه معه الأمير سيف الدين سلار لتوصيله إليها فوصلها وأقام فيها ، وعامله النائب المقيم بها .بما يجب له من الإجلال ... وبقي هناك إلى أن أعاده الله سالماً... وعاد الأمير سيف الدين سلار إلى الديار المصرية "[4]. كما كتب إلى السلطان المخلوع العادل كتبغا منشوراً بصرخد"ولم يعرض إليه أحد، فسلمت له نفسه وأهله وأولاده ومماليكه وألزامه"[5].

---

1) المنصوري، زبدة الفكرة، ص310؛ المنصوري، التحفة، ص146.

(2) المنصوري، زبدة الفكرة، ص311-312؛ المنصوري، التحفة، ص147-148؛ المنصوري، مختار، ص102-103.

(3)المنصوري، زبدة الفكرة ، ص313؛ المنصوري، التحفة، ص 148؛ المنصوري، مختار ، ص104.

(4) المنصوري، زبدة الفكرة، ص314؛ المنصوري، مختار، ص104.

(5) المنصوري، زبدة الفكرة، ص314؛ المنصوري، التحفة، ص148.

بعد ذلك يذكر بيبرس المنصوري أن سياسة السلطان المنصور لاجين أخذت تتغيّر فقد نقض العهود والمواثيق التي أخذها عليه الأمراء بعدم تقريب أحد مماليكه عليهم، فقام بتأمير مماليكه لا سيما سيف الدين منكوتمر وعلاء الدين ايدغدى شقير وسيف الدين بيدو وسيف الدين بالوج وسيف الدين جاغان وسيف الدين بهادر المعزي وسيف الدين بهادر الجوكندار[(1)].

أدى تقريب السلطان لمماليكه إلى الانقلاب في سياسته تجاه أمراء الدولة الكبار، فقد تغيّر على الأمير شمس الدين قراسنقر المنصوري نائب السلطنة بمصر كما يذكر بيبرس المنصوري "بسبب ما كان منكوتمر يسعى به إليه ويتقوله عليه من السعايات والوشايات التي توغر الصدور وتهيج الشرور حسداً له ورغبة في منصبه فما زال به حتى تمكنت الموجدة من نفسه، واستوحش منه بعد فرط انسه... فلما غيّر خاطره بأقواله أمر باعتقاله، فقبض عليه، وعلى الأمير بدر الدين بيسرى والأمير عز الدين الحموي والأمير سيف الدين بهادر الحاجّ الحاجب... وقبض على الأمير شمس الدين سنقرجاه الظاهري،واستقل منكوتمر بالنيابة"[(2)].

بعد هذا يلاحظ أن بيبرس المنصوري يتتبع السياسة التعسفية التي اتبعها سيف الدين منكوتمر نائب السلطنة بمصر مع أمراء الدولة الكبار ومصيره، ويركز عليها، فقد ذكر أن منكوتمر ابتدأ بالسيطرة على زمام الأمور في الدولة"وسلّم إليه أستاذه -أي السلطان - القياد ووكل إليه تدبير البلاد والعباد فبسط يده ولسانه وقلمه، واحتجن الأموال والتحف والهدايا واللطف، وأسرف غاية السرف، وأظهر من التكبر والتجبر والصلف والعجب، واستصغار الأكابر، واحتقار الاصاغر ما نفر عنه الخواطر، وبغّضه إلى البوادي والحواضر "[(3)]. أضف إلى ذلك أنه عمل على تفريق وتشتيت الأمراء وتجريدهم إلى خارج مصر بهدف إبعادهم عن أمور الدولة، ودليل يتضح مما ذكره بيبرس المنصوري من أن منكوتمر قام بتجريد ثلاث فرق نحو سيس " تجريده من مصر فيه الأمير بدر الدين أمير سلاح والأمير شمس الدين

(1) المنصوري، زبدة الفكرة، ص315؛ المنصوري، التحفة، ص149.
(2) المنصوري، زبدة الفكرة، ص315-316؛ المنصوري، التحفة، ص149-150.
(3) المنصوري، زبدة الفكرة، ص316؛ المنصوري، التحفة، ص150.

اقسنقر كرتيه السلحدار والأمير سيف الدين بكتمر السلحدار والأمير سيف الدين بوزلار وسيف الدين عزازوتجريده من دمشق صحبة الأمير سيف الدين قفجاق ، وتجريده من صفد صحبة الأمير فارس الدين البكي الظاهري النائب بها ، فاجتمع هؤلاء مع الأمير سيف الدين بلبان الطباخي وتوجهوا إلى بلد سيس ، فشنوا الإغارة على أهلها... وعادوا من هذه الغزاة إلى مدينة حلب، فأقاموا بها".

ويذكر بيبرس المنصوري أن السلطان بعد وصول الأمراء إلى حلب ، قام بتحريض من منكوتمر بإرسال كتاب مع سيف الدين جمدان بن صلغيه إلى نائب حلب يتضمن الطلب منه بالقبض على الأمراء الذين جردوا إلى سيس.

استجاب نائب حلب لكتاب السلطان فأخذ يعد العدة للقبض عليهم ، إلا أنه لم يتم له ذلك بسبب وصول الخبر للأمراء الذين قاموا بالهروب[1]، ويشير بيبرس المنصوري أن أغلبهم لا سيما الأمير سيف الدين قفجاق والأمير سيف الدين بكتمر السلحدار والأمير سيف الدين البكي الساقي والأمير سيف الدين بوزلار والأمير سيف الدين عزاز الصالحي قاموا بالهرب إلى المغول حيث استقروا هناك ، وتزوجوا من النساء التتريات ، إلى أن قدموا مع الإيلخان محمود غازان لغزو بلاد الشام[2].

لم تلق السياسة التي اتبعها منكوتمر مع الأمراء السابق ذكرهم قبولاً لدى بعض مماليك السلطان لاجين لا سيما سيف الدين طغجي وسيف الدين كرجي اللذان كانا على عداوة مع منكوتمر ، لذلك اتفقا على قتل السلطان ونائبه منكوتمر سنة 698هـ/1298م "فلمّا كان ليلة الجمعة هجموا عليه ، وهو جالس يلعب بالشطرنج مع أحد جلسائه، فارووا السيوف من دمائه، وقطعوه قطعاً... وخرجوا إلى دار النيابة في طلب منكوتمر" الذي تم اعتقاله ثم قتله[3].

---

(1) المنصوري، زبدة الفكرة، ص 316-317؛ المنصوري، التحفة، ص 150؛ المنصوري، مختار، ص107.

(2) المنصوري، زبدة الفكرة، ص317-318؛ المنصوري، التحفة، ص150-151.

(3) المنصوري، زبدة الفكرة، ص323-324؛ المنصوري، التحفة، ص153-154؛ المنصوري؛ مختار، ص107-108.

أما بالنسبة لمصير سيف الدين كرجي وسيف الدين طغجي ، فيذكر بيبرس المنصوري أنهما اعتقدا في البداية أن الحكم صار لهما "وجلس طغجي في شباك النيابة،وقعد الأمراء حوله ،وديوان الجيش قدامه ، وأمر ونهى معتقداً أن الرقاع قد خلت،وأن البيادق قد تفرزنت ،وسمت نفسه إلى المنصب الأعلى "، ولم يعلما أن الأمراء الكبار في القلعة لا سيما الأمير سيف الدين سلار والأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكير والأمير حسام الدين الرومي وغيرهم قد اتفقوا على إحضار الملك الناصر محمد من الكرك، وإعادته للسلطنة[1].

وفي شهر ربيع الآخر رجع الأمراء المجردين إلى حلب ، فخرج الأمراء لتلقيهم، وأجبروا طغجي على الخروج معهم فلمّا التقوا بهم ، وسلموا عليهم تحادثوا فيما كان،وتذاكروا ما جرى من الصبيان ، فاجتمعت الآراء على قصاص من جنى بجنايته،ومقابلة من غوى بغوايته فأخذت السيوف سيف الدين طغجي ، وبلغ مقتله كرجي...فهرب إلى ظاهر مصر، فأدركوه عند قبور الذمة، وقتلوه هناك"[2].

وفي أعقاب التخلص من السابق ذكرهما قام الأمراء بإحضار الملك الناصر محمد من الكرك ،وجلّسوه مره أخرى في دست السلطنة [3]. وقد ذكر بيبرس المنصوري أنه كان شاهد عيان على جلوسه"وكنت فيمن أبعده منكوتمر وجرده ، فحضرت من بلاد الأشمونين، وصادفت يوم جلوسه"[4].

واجه السلطان الناصر محمد بعد توليه السلطنة العديد من المشاكل الداخلية ، وقد بيّنها بيبرس المنصوري، وفصل في معلوماته عنها باعتباره كان شاهد عيان على

(1)المنصوري، زبدة الفكرة، ص 324؛ المنصوري، التحفة، ص 154؛ المنصوري، مختار ، ص108 -109.

(2)المنصوري، زبدة الفكرة، ص 325؛ المنصوري، التحفة، ص 154؛ المنصوري، مختار ، ص109.

(3) المنصوري، زبدة الفكرة، ص 325؛ المنصوري، التحفة ، ص154 -155؛ المنصوري، مختار، ص110.

(4) المنصوري، التحفة، ص155.

أكثرها بل وله بها مشاركة ، والمتصفح لمؤلفاته يلاحظ ذلك خاصة مؤلفه التحفة الملوكية التي يخصص فيها فصلاً كاملاً للحديث عن ذلك. وهذه المشاكل هي:

1. ثورة التتار الأويراتية في مصر بالتعاون مع أحد المماليك السلطانية وهو برلطاي على السلطان الناصر سنة 698هـ/1298م، ومحاولتهم خلعه وإعادة زين الدين كتبغا الذي رفع مكانتهم في أيام سلطنته - للسلطنة، وقد بيّن بيبرس المنصوري أن هذه الثورة لم تنجح لأن السلطان الناصر تمكن من القبض على مدبرها برلطاي وقتله بعد اختراقه صفوف الجند في محاولة منه لقتله، كما اعتقل أعوان برلطاي في قلعة الكرك ، في حين أنه عمل على قتل التتار الأويراتية وحرقهم في غزة[1].

2. سوء العلاقة بين السلطان الناصر محمد وكلٍ من الأمير سيف الدين سلار والأمير بيبرس الجاشنكير سنة 707هـ/1307م:

أولى بيبرس المنصوري هذا الموضوع عناية كبيرة باعتباره شاهد عيان عليه ، فقد بيّن أن السبب في سوء العلاقة بين السلطان الناصر وكلٍ من الأمير سلار والأمير بيبرس الجاشنكير هو تغيّر السلطان عليهما بسبب أمور بلغته عنهما تمثلت في استبدادهما بالأمور وسيطرتهما على الأموال والإقطاعات في بلاد الشام، مبرزاً أن الذي زاد من حدة التوتر بين الطرفين هو قيام الأميرين باعتقال مماليك السلطان الناصر لا سيما بيبغا التركماني وخاص ترك وبيتمر ونفيهم إلى القدس ظناً منهما أنهم السبب في تغيّر السلطان عليهما ، وقد ذكر بيبرس المنصوري أنه حاول أن يقنع الأميرين بضرورة رد المماليك إلى السلطان الناصر لتنطفئ الفتنة إلا أنهما رفضا ذلك في البداية، ثم أدركا بعد ذلك صحة رأي بيبرس المنصوري، لذلك أسرعا لإعادة بينبغا التركماني لمصر[2].

أما موقف الأمير جمال الدين أقوش الأفرم نائب السلطنة في دمشق من التوتر الذي حصل بين السلطان والأميرين المذكورين، فقد بيّن بيبرس المنصوري أن

---

(1) المنصوري، زبدة الفكرة، ص 330؛ المنصوري، التحفة، ص 156؛ المنصوري، مختار، ص110.

(2) المنصوري، زبدة الفكرة، ص392؛ المنصوري، التحفة، ص 181- 182.

الأمير المذكور أرسل لمصر كتاباً يحثهم فيه على الاتفاق وعدم الشقاق ، ويشير بيبرس المنصوري أنه رد عليه الجواب " بانه لم يتجدد بحمد الله شي [شيء] يشوش الخواطرولا حدث أمر يغلث الضمائر ، ولم يكن الا شي [شيء] من نوع العتاب الذي يكون بين الاحباب بالطف الخطاب ، وأن القواعد موطدة والاسباب موكدة والسلطان مسرور الخاطر نافذ الاوامر والمواكب مستمرة في اوقاتها والعساكر في الخدمة على عاداتها"، وبعد ذلك يذكر بيبرس المنصوري أن التوتر زال بين الطرفين[1].

3سوء العلاقة للمرة ا لثانية بين السلطان الناصر وكلٍ من الأمير سيف الدين سلار والأمير بيبرس الجاشنكير ، وخلع السلطان نفسه بعد توجهه إلى الكرك سنة 708هـ/1308م:

وفي سنة 708هـ/1308م عزم السلطان الناصر على ترك مصر، وأظهر أنه يريد الحج، وفي الحقيقة كان ينوي الذهاب إلى الكرك، وقد ذكر بيبرس المنصوري أنه أراد ترك السلطنة بسبب أفعال الأمير سلار والأمير بيبرس الجاشنكير به ، وبالفعل "شرع [السلطان]في أعداد الاهبة وتعيين من يسافر في الصحبة ، واعلم الأمير سيف الدين سلار والركن أستاذ الدار بما أضمره"[2].

ويروي بيبرس المنصوري كشاهد عيان أن الأميرين المذكورين اجتمعا به وحدثاه بأن السلطان سيذهب الى الحج، وأنه لا بد يمر بالكرك ويقيم فيها، واستشاراه فيما يفعلان،فأجابهما بيبرس المنصوري بقوله : "فلو فرضنا إقامة السلطان بالكرك في مملكته، وأنتما وساير [سائر]نوابه مستمرون على طاعته ، وامتثال اشارته، واسلوخطبته لجاز ذلك، والنظام مستمر والحال مستقر ". وبذلك انتهى الحديث بين بيبرس المنصوري والأميرين المشار إليهما[3].

---

(1) المنصوري، زبدة الفكرة، ص393.

(2) المنصوري، زبدة الفكرة، ص403؛ المنصوري، التحفة، ص187.

(3) المنصوري، زبدة الفكرة، ص403؛ المنصوري، التحفة، ص187- 188.

وفي 15 رمضان 708هـ/1308م اجتمع السلطان الناصر بأمراء المشورة، وأوصاهم بالاتفاق وعدم الشقاق، وحفظ النظام والجماعة(1).

ولما كان يوم السبت 25 رمضان من السنة المشار إليها ركب السلطان كما يذكر بيبرس المنصوري من القلعة وبمعيته العديد من الأمراء والخاصكية، وتوجه بهم إلى الكرك التي وصلها في 10 شوال من السنة المذكورة، وهناك يبيّن بيبرس المنصوري أن السلطان حصل له حدث كاد يودي بحياته وهو سقوط جسر القلعة بالسلطان لولا قدرة الله، ثم أنه يبين أن السلطان دخل للكرك وتسلمها من صاحبها الأمير جمال الدين أقوش الأشرفي، واظهر "ما كان كامناً في ضميره، وانثناء عزمه عن مسيره، وإن قصده أنما هو الانقطاع والتخلي عن المُلك والانخلاع"(2).

بعد ذلك يشير بيبرس المنصوري إلى أن السلطان الناصر قام بإعادة الأمراء الذين قدموا برفقته مع خمسمائة من الهجن إلى مصر، وقد حملهم كتاباً تضمن رغبته في البقاء في الكرك وخلع نفسه من السلطنة، وحث الأمراء في مصر على إقامة بديل له، ويوضح بيبرس المنصوري أنه ما أن وصل الكتاب حتى تداوله الأمير سلار والأمير بيبرس الجاشنكير وتشاورا فيما يفعلون، فذكر بيبرس المنصوري أنه أشار عليهما بأنه "ينبغي مراجعته واستعطافه وترضيه ومراسلته إلى أن يذعن لعودته، ويستمر في سلطنته، ويتوجه إليه من له صورة من كبار الأمراء في هذه الرسالة، فقالا متى حصل التردد والمراجعة والا تفنيد نخشى من اضطراب الأمور، وعبث الجمهور، ونفاق العربان وثورة أهل العصيان، ولا بد من اجتماعنا بالإيوان فظهر لي النفس، واتضح، ورأيت أن الانآ [الإناء] بما فيه نضح، فأمسكت عن الجواب، وقلت الله الموفق إلى الصواب"(3).

ويذكر بيبرس المنصوري أن الأميرين المذكورين اجتمعا بعد ذلك بالأمراء بمختلف طبقاتهم، وقرئ عليهم كتاب الملك الناصر، ويبيّن بيبرس المنصوري أنهم قالوا لهما: "أنتما كنتما المشيرين في حضرته والمدبّرين لسلطنته، والأمر إليكما في

---

(1) المنصوري، زبدة الفكرة، ص404؛ المنصوري، التحفة، ص188.

(2) المنصوري، زبدة الفكرة، ص404-405؛ المنصوري، التحفة، ص188-190.

(3) المنصوري، زبدة الفكرة، ص405-406؛ المنصوري، التحفة، ص190-191.

غيبته بالفعل تفاوض الأميرين فيمن يلي منهما السلطنة، فاستقر الحال على تولية بيبرس الجاشنكير السلطنة، ويكون الأمير سلار نائباً له[1].

ويوضح بعد ذلك بيبرس المنصوري مراسم تولي الجاشنكير السلطنة بأسلوب ناقد، فيقول: "وكان هذا الأمر [السلطنة] كامناً في نفسه، وهو ما يرومه من أمسه وبطانته قد ابرموه بينهم، وعقدوه، فكان كما قصدوه وقادت الضرورة إلى الحلف له، فحلف الأمراء في تلك الساعة، وأعطوا أيديهم بالطاعة، وركب المذكور فرس السلطنة بشعارها من دار النيابة، وكان ذلك خطأ لا إصابة ووبالاً عليه وعلى تلك العصابة، ودخل إلى الإيوان الاشرفي، وجلس على كرسيّه، واستحلف الأمرا [الأمراء] الحاضرين جميعاً ولقب نفسه المظفر ، فكان زوراً وميناً، وانقلبت الظاء منه عما قليل عيناً، وحضر الخليفة المستكفي بالله أبو الربيع سليمان بن الحاكم بأمر الله، فقلده السلطنة"[2].

بعد ذلك قام المظفر الجاشنكير بإرسال البعوث إلى الممالك الإسلامية بتقلده السلطنة، كما صدر أمره إلى الملك الناصر بتقلده الكرك، وكتب له منشور بذلك[3].

وفي يوم السبت 7 ذي القعدة ركب السلطان المظفر الجاشنكير بشعار السلطنة لابساً حُلة الخلافة وسار في الميدان الأسود "وقبلت العساكر الأرض له طوعاً وكرهاً" ثم خلع بعد ذلك على الأمير سيف الدين سلار بنيابة السلطنة، وعلى بقية الأمراء في الدولة ، كما وصلت من نواب الممالك الشامية كتب تتضمن الإذعان والطاعة له[4].

بعد ذلك يلاحظ أن بيبرس المنصوري يعطي صورة مفصلة لتطور العلاقة بين السلطان المظفر الجاشنكير و الملك الناصر ، فقد ذكر أنه ما استقر المظفر الجاشنكير في السلطنة حتى قام أمراء دولته بمراسلة الملك الناصر يطلبون منه إعادة الخيول التي أخذها معه عند ذهابه للكرك ، وبالفعل أعادها ، ثم لم يلبثوا أن

(1) المنصوري، زبدة الفكرة، ص406؛ المنصوري، التحفة، ص191.
(2) المنصوري، زبدة الفكرة، ص406؛ المنصوري، التحفة، ص191.
(3) المنصوري، زبدة الفكرة، ص406؛ المنصوري، التحفة، ص191.
(4) المنصوري، زبدة الفكرة، ص407.

راسلوه مره أخرى وطالبوه بإرسال الأموال التي وجدها في خزينة الكرك ، الأمر الذي اغضب الملك الناصر ودفعه إلى إرسال ما لاح من الأموال بقصد الإصلاح(1).

وقد انتقد بيبرس المنصوري سياستهم تلك، فقال : "ولعمري إنهم بالغوا في العقوق،وإضاعة الحقوق،وتعدوا الحقوق الواجبة،وتنكبوا الآراء الصائبة ، وأثاروا أسباب الفتنة، واقتدحوا زند الإحنة"(2).

لم يتوقف أمراء السلطان المظفر عند هذا الحد ، بل عادوا لمراسلة الملك الناصر، وطالبوه في المماليك الذين عنده "فحصل في خاطره من هذه النكايات ما حصل،ورأى أن الحال آل إلى ما آل ووصل إلى ما وصل ، فبلغ به الغيظ الغاية القصوى، وهو مع ذلك لا يظهر ما أسره منه بالنجوى "(3) على حد تعبير بيبرس المنصوري.

لم تلق السياسة التي انتهجها أمراء المظفر الجاشنكير تجاه الملك الناصر قبولاً لدى المماليك التابعين للملك الناصر في مصر ، لذلك قاموا سنة 709هـ/1309م كما يروي بيبرس المنصوري كشاهد عيان -بالهرب إلى الكرك للالتحاق بالملك الناصر"وخرجوا طُلباً واحداً بخيلهم وهجنهم وغلمانهم وتركوا بيوتهم وأولادهم".

ولما علم السلطان المظفر بذلك جرد ورائهم حملة عسكرية برئاسة الأمير علاء الدين مغلطاي المسعودي والأمير سيف الدين قُلي ، ولكن هذه الحملة لم تستطع اللحاق بهم،فعادت إلى القاهرة، ثم أن السلطان المظفر "قلق لذلك، واتهم بعض المماليك السلطانية بالمواطأة على هذا الأمر، فقبض على جماعة منهم فوق ثلثمائة نفر، وقطع أخباز [أقطاعات] المتسحبين والمعتقلين، وأعطاهم لغيرهم"(4).

ويعقب بيبرس المنصوري على سياسة المظفر وأمرائه تجاه المماليك الفارين للملك الناصر والباقين في مصر، فيقول : "ولما تسحب من ذكرناه، وعزم ولاة الأمر

(1) المنصوري، التحفة، ص193.

(2) المصدر نفسه، ص193.

(3) المنصوري، زبدة الفكرة، ص193 -194.

(4) المنصوري، زبدة الفكرة، ص414؛ المنصوري، التحفة، ص194.

على إمساك من امسكوا من المماليك السلطانية أشرتُ بأن لا يفعلوا لأن في ذلك إجحافاً، وإصابةً للأبرياء، وإفساداً للخواطر، فلم تقبل هذه الإشارة، ولما تحقق وصولهم إلى السلطان أشرتُ بأن المصلحة تقتضي التلطف، وأن تُعين لهم أقطاعات تقوم بهم في خدمته، فلم يعرّجوا على ذلك"[1].

بعد هذا وردت الأخبار من بلاد الشام بأن الأمراء في الشام حلفوا للملك الناصر، الأمر الذي دفع السلطان المظفر إلى الاجتماع بأمراء الدولة لاستشارتهم فيما يفعلوقد ذكر بيبرس المنصوري أنه أشار على السلطان الم ظفر بضرورة مكاتبة الملك الن اصربأن المُلك ملكه ،ومُلك والده ، وأنه يعود لمستقره آمناً من معاندة"، ولكن السلطان المظفر لم يستجب لهذا الرأي، بل قام بتجريد حملة عسكرية لردع الملك الناصر، وقد بيّن بيبرس المنصوري أن هذه الحملة لم تحقق غايتها، لأن الملك الناصر تراجع إلى الكرك ،الأمر الذي دفع السلطان المظ ر لمراسلة رؤوساء الحملة بالعودة[2].

وبعد رجوع الحملة ، قام السلطان المظفر بإرسال علاء الدين مغلطاي وقطلوبغا برسالة إلى الملك الناصر تضمنت التهديد والوعيد له بقتله أن لم يرجع عن سياسته ، وعند قراءة الملك الناصر لها اشتد غضبه الأمر الذي دفعه إ لى مكاتبة الأمراء في حلب ودمشق وصفد وحماة يعلمهم بالرسالة التي بعثها إليه السلطان المظفر وسوء سياسته معه، ويحثهمعلى مساندته له و "أنتم تعلمون ما لوالدي عليكم من حق التربية والعتق والإحسان من قديم الزمان وما أظنكم ترضون لي بهذا الهوان ، فإما أن تكفّوا عني ه اولاء [هؤلاء] المتغلبين الأشرار، وإلا فأنا التجي إلى بلاد التتار، فهو خير لي من النفي إلى بلاد الكفار"[3].

---

(1) المنصوري، زبدة الفكرة، ص414.

(2) المنصوري، زبدة الفكرة، ص414-415؛ المنصوري، التحفة، ص194-195.

(3) المنصوري، زبدة الفكرة، ص415-416؛ المنصوري، التحفة، ص195.

ويشير بيبرس المنصوري أنه ما أن وصلت الكتب للأمراء حتى استجابوا للملك الناصر، وأرسلوا إليه بأنهم طوع أمره و"متى أراد الحركة بادروا نحوه، وحدوا في كلما يؤثر حذوه"[1].

تحرك الملك الناصر بعد ثبوت مناصرة الأمراء له في الشام - من الكرك إلى البرج الأبيض من أعمال البلقاء[2]، وهناك أخذت الأمراء بالتوافد عليه والاجتماع حوله، ثم سار إلى دمشق بعد هروب صاحبها ووصلها يوم الثلاثاء 17 شعبان 709هـ/1309م و"اقبل الناس من كل مكان، وجاءه الأمير سيف الدين اسندمر الكرجي نائب السلطنة بطرابلس، بأعيان وأعوان ...وتكاثرت الوفود، وتبادرت الجنود، فشرع في إنفاق الأموال وبذل النوال"[3].

أما موقف السلطان المظفر من حركة الملك الناصر، فقد ذكر بيبرس المنصوري أنه ما أن علم بتحركه حتى جرد عدة حملات نحو العباسة والمحرس والخصوص لحفظ الطرقات، ومنع المتسللين من أنصار الملك الناصر في مصر من الالتحاق به في الشام[4]، وفي هذا الوقت يبيّن بيبرس المنصوري أنه كان كلما اجتمع بالسلطان المظفر كان ينصحه بتهدئة الأمور، وحقن دماء المسلمين[5].

وبالرغم من الاحتياطات العسكرية التي اتخذها السلطان المظفر، إلا أن بيبرس المنصوري يذكر أن المماليك المناصرين للملك الناصر في مصر تمكنوا من الهروب للالتحاق بالأخير بعد أن اشتبكوا مع قوات السلطان المظفر، وكان النصر حليفهم في هذا الاشتباك[6].

أما بالنسبة لموقف العامة في مصر من السلطان المظفر، وكيفية رد الأخير عليهم فقد قدم بيبرس المنصوري وصفاً موجزاً لذلك، فذكر أن العامة قاموا

(1) المنصوري، زبدة الفكرة، ص416؛ المنصوري، التحفة، ص196- 197.

(2) المنصوري، زبدة الفكرة، ص416؛ المنصوري، التحفة، ص197.

(3) المنصوري، التحفة، ص198.

(4) المصدر نفسه، ص198.

(5) المصدر نفسه، ص198.

(6) المصدر نفسه، ص198- 199.

بمحاصرة القلعة "ورفعوا أصواتهم بالدعاء عليه، فأخذت طائفة منهم وأدبوا وطوفوا على أن يكفوا ويقصروا ويرهبوا ويزدجروا، فما ازدادوا إلا تحاملاً وتعصباً وتآلبـاً وتحرباً".

ولما شاهد المظفر ما فعله العامة اجتمع بالأمراء والأكابر والمقدمين والأعيان، وجلس مجلساً عاماً في الإيوان، وأحضر الخ ليفة المستكفي، فجدد له البيعة "ورتبـوا نسخة تقرأ في الجوامع ... تتضمن..تجديد بيعته وصـحة ولايتـه "، وعنمـا أراد الخطباء قراءتها ثار الناس ضد السلطان المظفر، وأعلنوا أن سلطانهم هـو الملـك الناصر محمد وليس المظفر[1].

ولما رأى السلطان المظفر أن الأمور قد خرجت من يده في مصر قام بإصـدار أمر بالتوجه إلى الشام "وأن يخرج كل يوم أربعة من مقدمي الألـوف بمضـافيهم، وشرعوا في ذلك من الخامس عشر من شهر رمضان"[2].

ومع أن السلطان المظفر اتبع هذه السياسة ، إلا أن سيف الدين برلغي الذي كان أحد المناصرين له انقلب أثناء توجهه إلى الشام عليه، وانضم مع مماليكه إلى الملك الناصر[3].

وفي يوم الثلاثاء 9رمضان سنة 709هـ/1309م سار الملك الناصر من دمشق إلى غزة، لحفظ الطرقات واستقبال الفارين من السلطان المظفر إليه، ويذكر بيبرس المنصوري أنه في الوقت الذي تحرك فيه الملك الناصر قـام السـلطان المظفـر باستدعاء الأمير سيف الدين سلار و بكتوت الجوكندار وقمجاز السلاح دار، للتشاور معهم "فيما آل إليه الأمر إليه، وانقلاب الدست عليه".

أشار الأمراء الثلاثة على السلطان المظفر بأنه يجب مراسلة الملـك الناصـر، واستعطافه، وبالفعل وافق هذا الرأي هوى المظفر، لـ ذلك قـام بإرسـال بيبـرس المنصوري وبهادر آص إليبعد اتفاقه معهما على انتظاره لهما فـي إطفـيح -،

(1) المنصوري، زبدة الفكرة، ص199 -200.
(2) المصدر نفسه، ص200.
(3) المصدر نفسه، ص200.

وحملهما كتاباً تضمن تنازله عن السلطنة، وطلب الأ مان ومكاناً يـأوي إليـه" إمـا الكرك أو حماة أو صهيون"[1].

سار بيبرس المنصوري كما يذكر مع الأمير بهادر آص برسالة الجاشنكير إلى الملك الناصر، حيث وصلا غزة واجتمعا به، واخبراه بمضمون الرسالة،فاستبشر بحقن الدماء و سكون الفتنة، وأغدق على السفيرين الأموال، ثم أعاد هما بـالجواب إلى الجاشنكير ورحل الملك الناصر تجاه مصر[2].

عاد بيبرس المنصوري والأمير بهادر آص إلى قلعة الجبل بالقـاهرة فـي 25 رمضان 709هـ/1309م ومعهما أمان الملك الناصر للسلطان الجاشنكير الذي يذكر بيبرس المنصوري أنه حين وصولهما لم يجده مقيماً في الموضع الذي ا تفقا معه عليه للالتقاء وهو إطفيح، بل وجداه قد غادره مع مماليكه وخاصته والأموال التي كانت في خزينة الدولة والخيول التي كانت بالإسطبلات السلطانية خوفاً من الملك الناصر إلى إخميم، لذلك قاما بإرسال أمان الملك الناصر محمد إليه مع أحد الأشخاص ليلحقه به، وعادا لي لتحقا بالملك الناصر الذي كان قد وصل إلى بركة الحاج فعيد بها عيد الفطر، ثم توجه إلى قلعة الجبل في القاهرة، حيث استقبله العامة من المسلمين وأهل الذمة [3]، ثم جلس في يوم الخميس 2 شوال709هـ/1309م في دست السلطنة[4].

وبعد استقرار الملك الناصر في السلطنة يذكر بيبر س المنصوري أن الأخير انتدبه مع الأمير بهادر آص للتوجه إلى السلطان المظفر المخلوع لاستعادة الأموال والخيول التي أخذها عند خروجه من القلعة، وي بيّن بيبرس المنصوري أنه استطاع مع بهادر آص الالتقاء به، وأخذ الأموال منه باللطف، كما أشارا عليه بضرورة طلب العفو من الملك الناصر، إلا أنه رفض ذلك[5].

---

(1) المنصوري، زبدة الفكرة، ص201 -202.
(2) المصدر نفسه، ص202 -203.
(3) المصدر نفسه، ص202 -204.
(4) المصدر نفسه، ص206.
(5) المصدر نفسه، ص206 -207.

لم يقف الملك الناصر في سياسته تجاه المظفر عند هذا، بل أصدر أمره بالقبض عليه أثناء سيره نحو الشام، وقتله خشية من الملك الناصر أن يقوم المظفر بالانقلاب عليه مره أخرى(1).

أما بالنسبة للأمير سيف الدين سلار، فقد ذكر بيبرس المنصوري أن الملك الناصر قام بالقبض عليه وسجنه سنة710هـ/1310م بسبب سوء أفعاله، كما احتجز أمواله، إضافة لذلك قام باعتقال إخوته، وقد بيّن بيبرس المنصوري أنه هو الذي أحضر الأمير سلار بأمر من الملك الناصر(2).

وفي آخر ذي الحجة من السنة المشار إليها قام بتخاص المنصوري بالاتفاق مع أمير موسى ابن الملك الصالح بن السلطان قلاوون وجماعة من مماليك بيبرس الجاشنكير بإعلان ثورتهم على السلطان الناصر الذي يذكر بيبرس المنصوري أنه تمكن من القبض على بتخاص ومماليك الجاشنكير وإيداعهم سجن القلعة، أما أمير موسى، فقد أُدع "مكاناً ممنوعاً من التصرف"(3).

ولما دخلت سنة 711هـ/1311م قام الملك الناصر بإرسال الأمير شمس الدين قراسنقر على رأس وفد للحج، وقد بيّن بيبرس المنصوري أن الأمير المذكور لما وصل زيزا حضر إليه بعض مماليكه فأوهموه وأوحوا إليه أن ... السلطان أبطن له مكراً، وأضمر به غدراً، وأوصى الأمراء المتوجهين إلى الحجاز بإمساكه سراً".

ولما سمع قراسنقر ذلك، ثنى عزمه عن المسير، وأخذ يتنقل في بلاد الشام خشية من السلطان، إلى أن نزل زور السورية بشط الفرات، حيث راسل السلطان وطلب منه أحد القلاع ليأوي إليها، وقد تكررت الرسائل بينهما إلى أن قرر قراسنقر أخيراً إرسال ولده فرج ومملوكه بلبان جركس إلى الملك الناصر لإزالة الاوهام والشكوك ، وبالفعل وصل الاثنان، فاستقبلهما السلطان وأكرمهما، ثم أن مهنا بن عيسى قام

---

(1) المنصوري، زبدة الفكرة، ص211-212.

(2) المصدر نفسه، ص214.

(3) المصدر نفسه، ص224-225.

بمراسلة السلطان يطلب منه العفو عن قراسنقر، ويلتمس له الإقامة في الشوبك، فوافق السلطان، وزال التوتر بينهما[1].

2.4 السياسة تجاه القبائل العربية في بلاد الشام ومصر

حظيت السياسة المملوكية تجاه القبائل العربية في بلاد الشام ومصر باهتمام بيبرس المنصوري، وساعدت المعلومات الدقيقة التي أمدنا بها على التأكد من ذلك، فقد بلغ مجموع الروايات التي دونّها بهذا الجانب تسعة وعشرون رواية،كان نصيب السياسة المملوكية تجاه القبائل العربية في بلاد الشام هو الأكبر، إذ بلغ عددها سبعة عشر رواية، بينما كان نصيب السياسة المملوكية تجاه القبائل العربية في مصر أقل، إذ بلغ عددها اثنا عشر رواية، وقد أبرز بيبرس المنصوري من خلال تلك الروايات موقف الدولة المملوكية من تلك القبائل العربية.

أما بالنسبة للسياسة المملوكية تجاه القبائل العربية الشامية، فيمكن أن يستشف من مادة بيبرس المنصوري التاريخية أنها في عهد السلطان الظاهر بيبرس (659-676هـ/1260-1277م) سياسة ترتكز على موقفين متناقضين أولهما ايجابي، ويتمثل في كيفية تفعيل دور إمرة عرب الشام واحتوائها بمنحها الأرزاق والأموال والإقطاعات، والتعويل عليها في حفظ بلاد الشام من الاعتداءات الخارجية، ويبرز ذلك مما ذكره بيبرس المنصوري بإيجاز عام 659هـ/1260م "كتب السلطان الظاهر منشور الإمرة على جميع العربان للأمير شرف الدين عيسى بن مهنا، وأحضر أمراء العرب، وأجرى إقطاعاتهم ووصل أرزاقهم وسلم إليهم خفر البلاد وألزمهم حفظها إلى حدود العراق"[2] كما يبرز بيبرس المنصوري دور معظم القبائل العربية الشامية -كنتيجة لاحتوائها- في الوقوف جنباً إلى جنب مع الدولة المملوكية في صد الاعتداءات الأجنبية المغولية الإيلخانية عليها، ويلاحظ هذا من الروايتين اللتين يوردهما في ثنايا مادته الأولى يوضح فيها كيفية قيام السلطان الظاهر بيبرس عام 670هـ/1271م بتوجيه حملة عسكرية بقيادة الحاج طيبرس

---

(1) المنصوري، زبدة الفكرة، ص235-237.

(2) المنصوري، زبدة الفكرة، ص70؛ المنصوري، مختار، ص19.

الوزيري وأميرعرب الشام عيسى بن مهنا بعر به إلى منطقة مرعش وحران، وقتل ما فيها من المغول وثانيها[1] يبين من خلالها كيفية تشكيل السلطان الظاهر عام 673هـ/1274م تجريده منهم على صورة جاليش للعسكر المملوكي يقودها كلاً من حسام الدين لاجين العنتابي، والأمير عيسى بن مهنا، وأبرازه وجهتها، وهي منطقة البيرة ورأس العين وما ترتب عليها "...ونهبوا و غنموا ما وجدوا"[2].

أما ثانيها، فهو موقف سلبي يتمثل في استخدام السلطان الظاهر الشدة في التعامل مع بعض القبائل العربية الشامية الخارجة عن طاعة الدولة المملوكية، وهذا يتضح من العديد من الحالات التي سجلها بيبرس المنصور ي في مادته التاريخية والتي بلغت ثلاث حالات أبرز من خلالها الإجراءات التي اتخذها السلطان الظاهر ودولته تجاههم وهي:

أ. **الحالة الأولى**: أبرز فيها بيبرس المنصوري الدور السلبي لعرب زبيد عام 659هـ/1260م في دل الفرنج على عورات المسلمين[3]، وموقف الدولة وإجراتها تجاه ذلك "... فجرد إليهم الأمير جمال الدين المحمدي وصحبته جماعة، فأغاروا عليهم واستاقوا، وعادوا سالمين"[4].

ب. **الحالة الثانية**: قدم فيها معلومات مهمة عن موقف السلطان الظاهر ودولته من حالة الفوضى التي تسبب بها سنة 663هـ/1264م أحد زعماء القبائل العربية الشامية الأمير نورالدين زامل ابن علي، والتي نجمت عن خلافات حدثت بينه وبين كلٍ من الأمير عيسى بن مهنا وأحمد بن حجي ، فقد أمر بإلقاء القبض عليه،ثم إطلاق سراحه و الإصلاح بينه وبين الأطراف المتصارعة معه، ثم "لم يلبث زامل أن توجه إلى هولاكو، فأعطاه إقطاعاً بالعراق، وعاد إلى مشتاه

---

(1)المنصوري، زبدة الفكرة، ص 133؛ المنصوري، التحفة، ص 73؛ المنصوري، مختار، ص48.

(2)المنصوري، زبدة الفكرة، ص 145- 146؛ المنصوري، التحفة، ص 81؛ المنصوري، مختار، ص53.

(3) المنصوري، مختار، ص20.

(4) المصدر نفسه، ص20.

بالحجاز، فنهب من وجد، وحضر أوايل [أوائل] الشام، وراسل السلطان في طلب العفو فلم يجبه، وأرسل من أمسكه وأحضره واعتقله"[1].

ج. **الحالة الثالثة** : زودنا فيها بمعلومات مهمة عن موقف السلطان الظاهر ودولتـه من فرار الأمير عمرو بن فحلول أحد أمراء العربان من مكـان اعتقالـه فـي عجلون إلى المغول "...ثم طلب الأمان أي عمرو بن فحلول ، فقال السلطان : ما نؤمنه إلى أن يحضر إلى عجلون، ويقعد في المكان الذي كان فيه مسجونـاً، فحضر وتطوق بالطوق الحديد، كما كان فعفا السلطان عنه"[2].

كما سلط بيبرس المنصوري في مادته التاريخية الضوء على السياسة المملوكية تجاه القبائل العربية في عهد السلطان السعيد بن الملك الظاهر، ولكن دون أن يسهب في ذلك نظراً لقصر مدة سلطنته، فقد أشار إلى رواية وحيدة ركز فـي مضـمونها على كيفية تعويل السلطان السعيد عام 678هـ/1279م على القبائل العربية الشامية في القضاء على الأمراء الخارجين عليه في مصر أثر المؤامرة التي دبرهـا مـع خاصكيته ضدهم في محاولة للتخلص منهم [3]، فضلاً عن إشارتـه لكيفية تخلي تلك القبائل عنه أثناء طريقهم لمصر "لما رأى الملك السعيد نفار الأمراء والعساكر عنه ومسيرهم نحو الديار المصرية دونه جمع من كان بدمشـق مـن بقايـا العسـاكر المصرية، ومن حوته من العساكر الشامية، واستدعى العربان ومن ينضم إليهم مـن الفرسان، وانفق فيهم بدمشق، وخرج منها، فلما وصل إلى غزة تسلل أكثر العربـان وتفرقوا"[4].

أما علاقة المنصور قلاوون بالقبائل العربية الشامية، فقد ذكر بيبرس المنصوري أربع روايات في هذا الجانب بيّن في الرواية الأولى بشيء من الاقتضـاب كيفيـة

---

(1) المنصوري، زبدة الفكرة، ص100.

(2) المنصوري، زبدة الفكرة، ص140؛ المنصوري، التحفة، ص78.

(3) المنصوري، زبدة الفكـرة، ص 170 -171؛ المنصـوري، التحفـة، ص 90؛ المنصـوري، مختار، ص67.

(4) المنصوري، زبدة الفكـرة، ص 170 -171؛ المنصـوري، التحفـة، ص 90؛ المنصـوري، مختار، ص67.

تعويل سنقر الأشقر نائب الشام عليهم في محاربة الدولة المملوكية، وموقف المنصور قلاوون منهم عام 679هـ/1280م"... فجمع سنقر الأشقر العساكر من حلب وحماة وحمص، واستدعى الكبكي من صفد والعربان من البلاد، وجهز من عسكر الشام جماعة، وقدم عليهم الأمير شمس الدين قراسنقر المعزي، فساروا إلى غزة، والتقوا مع الأميرين الذين أرسلهما المنصور قلاوون - عز الدين الأفرم وبدرالدين الأيدمري على غزة، فكانت الكسرة على العسكر الشامي -أي عسكر سنقر الأشقر -"[1]. كما زودنا بيبرس المنصوري بمعلومات مهمة عن كيفية أعادة سنقر الأشقربعد هزيمة قواته في غزة - ترتيب قواته مرة أخرى ومواجهة المنصور قلاوون له في السنة ذاتها في موقعة الجسورة، وكان من أبرز ما ركز عليه في هذه الموقعة هو ذكره لهزيمة الأمير سنقر الأشقر وفراره وبمعيته أمير عرب الشام شرف الدين عيسى بن مهنا "... فالتقى الجمعان والتحم القتال فساق الأمير علم الدين الحلبي على سنقر الأشقر، فلما صدمه هزمه فتوجه طالباً الرحبة، ومعه شرف الدين عيسى بن مهنا..."[2].

ويعقب بيبرس المنصوري بعد ذكره لموقعة الجسورة اعتماداً على ما استقاه من شهود عيان حضروا تلك الموقعة كيف أن سنقر الأشقر لما التقى مع الحلبي دبر حيلة هدفها التمكن من قوات الحلبي، ولعل أبرز ما ركز عليه في حديثه عنها هو دور القبائل العربية الشامية في تنفيذها وكيفية تعامل ممثل الدولة المملوكية في هذه الموقعة "الحلبي" معهم، فقد "قرر -سنقر الأشقر- مع العربان الذين جمعهم أن يقاطعوا ساعة الملتقى على العساكر المصرية ويجيئوهم من ورائهم ويحطوا أيديهم في نهب الأثقال والغلمان والجمال ليثنوا إليهم عنانهم، فيركب أكتافهم، ففعل العرب ما أوصاهم وجاؤوا من ورائهم وشرعوا في النهب، فقال له العسكر: أن العرب قد نهبت الأثقال والقماش والأحوال، فقال: لا تلتفتوا إليهم ولا تعوجوا عليهم وشأنكم ومن قدامكم، فأنّا إذا هزمناهم استرجعنا الذي لنا وغنمنا الذي لهم، فأطاعوه وتقدموا

(1) المنصوري، زبدة الفكرة، ص181 -182.

(2) المنصوري، زبدة الفكرة، ص 182؛ المنصوري، التحفة، ص93.

فاستظهروا وغنموا، وهذا تدبير ينبغي لمن يتقدم على الجيوش أن يحكمه ولمن يمارس الحروب أن يفهمه"[1].

أما الرواية الثانية، فقد أبرز فيها بيبرس المنصوري تحسن علاقة المنصور قلاوون بالقبائل العربية الشامية من خلال توضيحه لكيفية وقوفهم إلى جنب الدولة المملوكية في موقعة حمص عام 680هـ/1281م ضد المغول، وهذا يظهر من قوله حين قسم المنصور قلاوون جيشه : "وفي رأس الميمنة شرف الدين عيسى بن مهنا وآل فضل وآل مرى وعربان البلاد الشامية ومن انضم إليهم "[2]. كما تتبع بيبرس المنصوري باعتباره أحد المشاركين فيها دورهم في هزيمة ميسرة المغول[3].

أما الرواية الثالثة والرابعة، فقد ركز فيها بيبرس المنصوري الحديث على سياسة المنصور قلاوون تجاه القبائل العربية في الكرك، حيث وضح كيف قام المنصور قلاوون عام 685هـ/1286م بتوجيه حملة عسكرية بقيادة الأمير حسام الدين طرنطاي إلى الكرك التي حاصرها، وكان من أبرز ما ركز عليه إيصال صوته إلى العرب فيها، فخاطبهم بلسان الإحسان خطاباً "خلط الترهيب بنوع من الترغيب"[4]. كما قام الأمير المشار إليه -بعد استرجاع الكرك من أولاد الملك الظاهر - بتقديم الخلع إلى رجال القلعة ومقدمي المدينة، وأمراء العربان، ورتب أحوالهما وعاد إلى مصر[5].

كما وضح بيبرس المنصوري الذي قلده المنصور قلاوون نيابة السلطنة في الكرك أثناء زيارته لها في العام المشار إليه آنفاً السياسة التي اتبعها السلطان مع القبائل العربية القاطنة فيها "ونزل السلطان على ظاهرها، وطلع قلعتها ... ورتب

---

(1) المنصوري، زبدة الفكرة، ص183.

(2) المنصوري، زبدة الفكرة، ص 197؛ المنصوري، التحفة، ص 99؛ المنصوري، مختار، ص73.

(3) المنصوري، زبدة الفكرة، ص197- 198.

(4) المنصوري، زبدة الفكرة، ص254؛ المنصوري، التحفة، ص115.

(5) المنصوري، زبدة الفكرة، ص255.

أحوال العربان ومن بها من الرجال وجددّ لأمراء العرب مناشير أقط اعاتهم وأجرى لهم عادات صلاتهم"[1].

أما عن علاقة أبناء السلطان قلاوون لا سيما الملك الأشرف خليل والملك الناصر محمد بالقبائل العربية الشامية، فيتضح من دراسة مادة بيبرس المنصوري أنه يورد معلومات هامة عن ذلك ،حيث ذكر سبع روايات في ذلك وضح من خلالها أنها كانت سياسة متوترة ثم تحولت إلى سياسة لينة، ففي عام 692هـ/1292م ذكر بيبرس المنصوري أن السلطان الأشرف عمل أثناء زيارته لبلاد الشام وتحديداً لحمص على اعتقال الأمير مهنا بن عيسى بن مهنا وأخوته [2]، ويظهر من هذا الخبر أن بيبرس المنصوري قد أغفل تدوين السبب في اعتقالهم.

كما وضح بيبرس المنص وري دور القبائل العربية الشامية السلبي وتحديداً عربان غزة في مهاجمة فلول الجيش المملوكي أثناء عودته إلى مصر أثر هزيمته بقيادة الملك الناصر محمد أمام المغول في موقعة مجمع المروج عام699هـ/1299م "... ثم تواصلت العساكر كل بمفردة، وكانت طائفة منهم وقت الرجعة من الوقعة سلكوا على ساحل طرابلس خوفاً من اتباع التتار آثارهم، فنزلت اليهم الجبلية من الجبال ونهبوا طائفة بعد طائفة، وحفظوا عليهم مضايق الطرقات وسلبوهم وقتلوا منهم جماعة،ومن أفلت من أيديهم تلقته العربان الذين بالقرب من غزة وما حولها،و كملوا نهبهم، وجددوا سلبهم م، فكان ذلك على العساكر أشد نكاية من التتار..."[3].

وإذا كانت بعض القبائل العربية قد استخدمت الشدة في التعامل مع الدولة المملوكية، فإنه كان هناك قبائل شامية أخرى تساند الدولة المملوكية، وهذا يظهر من إشارة بيبرس المنصوري بأن القبائل العربية كانت قد شاركت م ع الدولة المملوكية

(1) المنصوري، زبدة الفكرة، ص255.

(2) المنصوري، زبدة الفكرة، ص293؛ المنصوري، التحفة، ص133.

(3) المنصوري، مختار، ص112.

في موقعة مرج الصفَّر عام 702هـ/1302م ضد المغول،فكانوا في جناح الميمنة "وفي جناحها سيف الدين قفجاق وعسكر حماة وعرب الشام"[(1)].

تابع بيبرس المنصوري تطور العلاقة بين السلطان الناصر والقبائل العربية الشامية، حيث أوضح بإيجاز أنها أصبحت علاقة ودية بدليل تسجيله في مادته ثلاثة زيارات لرؤساء تلك القبائل إلى السلطان الناصر، وإيضاحه كيفية تعامل السلطان الناصر معهم، ففي الزيارة الأولى ذكر بيبرس المنصوري باختصار أنه في عام710هـ/1310م "وفد... الأمير شرف الدين مهنا بن عيسى أمير آل فضل إلى الباب العزيز، فأقبل السلطان - الناصر محمد -عليه وأحسن إليه"[(2)]. في حين أن بيبرس المصوري في الزيارة الثانية عام 711هـ/1311م أبرز السبب في قدوم الأمير علم الدين سليمان بن مهنا بن عيسى إلى السلطان الناصر مع ذكره لكيفية تعامل الأخير معه" وفد الأمير علم الدين سليمان بن مهنا بن عيسى إلى الأبواب السلطانية مخبراً بأنه أغار هو وجماعة آل فضل غارة ما بين هيت وتكريت على بيوت التتار الذين بتلك الأقطار، ونالوا من العدو نيلا ، واستاقوا إبلا وخيلا، وأحضر من أساراهم قوما، فشمله الأنعام الشريف وحبي بالعطاء والتشريف "[(3)]. أما الزيارة الثالثة التي كانت في العام المشار إليه آنفاً، فقد بيّن بيبرس المنصوري فيها كيفية إرسال الأمير مهنا بن عيسى أخيه فضل بكتاب إلى السلطان الناصر يستعطفه فيه بالعفو عن الأمير شمس الدين قراسنقر، ويطلب منه تعيينه نائباً في الشوبك [(4)]، كما بيّن جواب السلطان على كتاب الأمير ر مهنا بن عيسى "فوافق مولانا السلطان على هذا وأمضاه، وكتب الجواب إلى مهنا وإلى الأمراء -الذين كانوا بحلب وأوصلوا الكتاب له - بمقتضاه"[(5)].

---

(1) المنصوري، زبدة الفكرة، ص373-375؛ المنصوري، التحفة، ص 166-167؛ المنصوري، مختار، ص124-126.
(2) المنصوري، التحفة، ص216.
(3) المصدر نفسه، ص232.
(4) المصدر نفسه، ص237.
(5) المصدر نفسه، ص237.

أما السياسة المملوكية تجاه القبائل العربية المصرية، فقد كانت قائمة على أساس العداء المستحكم، بخلاف سياستها تجاه القبائل العربية الشامية، ويظهر ذلك من خلال ما سجله بيبرس المنصوري عن ثوراتهم ضد الدولة المملوكية، والبالغ عددها اثنا عشر ثورة، ناهيك عن إيراده معلومات مفصلة عن كيفية تعامل الدولة المملوكية معها، وفيما يلي بيان ذلك:

واجه دولة المماليك البحرية في عهد السلطان المعز أيبك التركماني ثلاثة ثورات للقبائل العربية في مصر "الصعيد". كما يذكر بيبرس المنصوري الذي أوجز واختصر في معلوماته عنها وهي:

1. ثورة عام 650هـ/1252م، يلحظ منها أن بيبرس المنصوري اقتضب في كلامه عنها، حيث ذكر أن السلطان المذكور " نافقه العربان بالسعيد (الصعيد)،توجه إليهم المخدوم الشهيد (قلاوون)والأمير ركن الدين بيبرس البندقداري، وكسر شوكتهم"(1).

2. ثورة عام 652هـ/1254م، أورد بيبرس المنصوري معلومات قليلة عنها،حيث ذكر أنه" قدم الفارس أقطاي من الصعيد، وقد أسر الشريف حصن الدين بن ثعلب، وجماعة من العربان"(2).

3. ثورة عام 653هـ/1255م، التي زودنا عنها بيبرس المنصوري بمعلومات مهمة، تمثلت في ذكره أسماء الأمراء الذين قادوا الثورة والسياسة التي اتبعوها "عصى بصعيد مصر الأمير عزالدين أيبك الأفرم الصالحي، وتظاهر بالعصيان وجمع عليه جماعة من العربان، ووافقه الشريف حصن الدين بن ثعلب، والأمير ركن الدين الصيرفي، واعتمدوا نهب البلاد، وأكثرت العربان الفساد ووضع هؤلآ (هؤلاء)أيديهم على الأموال ، فأنفسد النظام، وانتكث الأبرام"(3)كما زودنا بمعلومات مهمة عن كيفية رد دولة المماليك البحرية عليهم". فاقتضى الحال إرسال الصاحب شرف الدين الفايزي الوزير

---

(1) المنصوري، زبدة الفكرة، ص33.

(2) المنصوري، زبدة الفكرة، ص12.

(3) المنصوري، زبدة الفكرة، ص16؛ المنصوري، التحفة، ص37.

لتدارك الخلل بالتدبير، وجرد معه إلى الصعيد من العسكر جماعة، وأمروا له بالطاعة..."[1]، ومع أن بيبرس المنصوري يتجاهل في هذه الثـورة كيفية تعامل دولة المماليك البحرية مع القبائل العربية في صـعيد مصـر حـين وصول الحملة التي تم تجريدها ضدهم، إلا أنه ركز فيها على كيفية تعاملها مع الشريف حصن الدين بن ثعلب ومصيره "... فتحيل (الوزير شرف الدين الفايزي) على الشريف حصن الدين، فأمسـكوه وأحضـروه إلـى القلعـة المحروسة، فاعتقل بها، ثم نقل إلى ثغر الإسكندرية، فا عتقل في جب تحـت الأرض بجب الشريف"[2].

كما واجه دولة المماليك البحرية في عهد السلطان الظاهر بيبـرس البندقـداري ثورتان للقبائل العربية كما يذكر بيبرس المنصوري هما:

4. ثورة عام 660هـ/1261م أورد عنها معلومات مقتضبة، اقتصر فيها علـى ذكر كيفية تعامل الدولة المملوكية مع القبائل العربية الثـائرة فـي الصـعيد والسبب في تحركها ضدهم "جرد الأمير عزالدين أمير جاندار الى الصـعيد لردع العربـان، فأنهم كانوا قد طمعوا بتغير الممالك، ونافقوا وقتلوا عز الدين الحواش والي قوص، فحسم مادتهم و بدد شملهم"[3].

ثم يورد بيبرس المنصوري معلومات قيمة عن كيفية تفعيل السلطان الظاهر عام 662هـ/1263م دور إمرة عرب مصر مبرزاً لكيفية التعويل عليها في جمع الـزكاة من القبائل العربية في برقة " [وعين السلطان الظاهر] سيف الـدين عطـاء الله بـن عزاز مقدماً على عرب برقة، وتقريره الزكاة عليهم، وإلزام عطاء الله باستخراجها منهم، وحملها إليه"[4]. كما أبرز بيبرس المنصوري رد فعل أمير القبائل العربية في برقة "بلبوش" عام 671هـ/1272م على الزكاة المفروضة عليهم "كان بلبوش لما قام

(1) المنصوري، زبدة الفكرة، ص16؛ المنصوري، التحفة، ص37.
(2) المنصوري، زبدة الفكرة، ص16؛ المنصوري، التحفة، ص37.
(3) المنصوري، زبدة الفكرة، ص75-76؛ المنصوري، مختار، ص22.
(4) المنصوري، زبدة الفكرة، ص92.

عربان برقة بالزكاة ، أبلوا جماحاً فؤاده، ونفوراً قيــاده "[1]، ثــم يبــرز بيبــرس المنصوري كيفية تعامل مقدم عربان برقة سيف الدين عطاالله بن عزاز - المشار إليه آنفاً -مع ثورة بلبوش على السياسة المملوكية".فتوجه إليه بنو عزاز عطا الله و مقدم، فقاتلوه وكسروه وأسروه، وأحضروه إلى القاهرة"[2].

أما دولة المماليك البحرية في عهد السلطان الأشرف خليل، فقد واجهت ثــورة وحيدة عام 692هــ/1292م أوجز بيبرس المنصوري في كلامه عنها، حيث أشــار للسياســة العدائية التي مارستها القبائل العربية في الوجه القبلــي وكيفيــة اتخــاذ السلطان الأشرف الاستعدادات لردعهم دون أن يوضــح مــا ترتــب علــى تلــك الاستعدادات من نتائــج تجاه تلك القبائل العربية " وبلغ السلطان أن العربان بالوجــه القبلي قد امتدت أيديهم إلى الفساد، وقطعــوا الطرقــات، وقتلــوا بعــض الــوكلاء، وخرجوا عن الواجبات، فقصد [السلطان]الطلوع إلى الوجــه المــذكور ... وأمــر بتجهيز الجوارح، وتجريد من اختاره لصحبته من أمرائه الخواص وغيرهم"[3].

كما قدم بيبرس المنصوري معلومات مهمة عن ثورة القبائل العربية في برقــة ضد الدولة المملوكيةإبان عهد السلطان زين الدين كتبغا عام 695هــ/1295م،حيث وضح السبب المباشر لتلك الثورة، فقال : "... أن العربان ببرقا قد عبثوا بالمسلمين، وباعوا منهم جماعة للفرنج ،وأن منصور بن روق كان الباعث على بــيعهم بســبب الغلاء الذي عم تلك البلاد، وأحوج الآبا (الآباء) إلى بيع الأولاد..."[4]. كما وضــح بيبرس المنصوري باعتباره شاهد عيان كيفيــة اتخــاذ دولــة المماليــك البحريــة الاستعدادات للقضاء على ثورتهم "... فوردت إلــيّ أي لبيبــرس المـ نصــوري - مكاتبات السلطان العادل زين الدين كتبغا - بالتوجه إلى برقا، ومقابلــة هــؤلاء إن كان ما نقل عنهم حقا، وجرد الأمير سيف الدين بلبان الحبيشي وأصحابه وجماعــة

(1) المنصوري، مختار، ص49-50؛ المنصوري، زبدة الفكرة، ص139.
(2) المنصوري، مختار، ص49-50؛ المنصوري، زبدة الفكرة، ص139.
(3) المنصوري، مختار، ص93.
(4) المنصوري، زبدة الفكرة، ص312.

من الحلقة، فعزمنا على التوجه إلى الجهة الغربية ،وللرحلة مزمعون ..."[1]. كما ذكر بيبرس المنصوري السبب المباشر في عدم إتمام الحملة الموجهة ضد القبائل العربية في برقه، فقال : ".ورد البريد مخبراً بخلع زين الدين كتبغا من الدست واستقرار الأمير حسام الدين لاجين المنصوري في الأمر، ورسم لنا بالعود إلى القلعة، فعدنا في أوايل [أوائل] سنة 696 هـ"[2].

أما دولة المماليك البحرية في عهد السلطان الناصر بن المنصور قلاوون، فقد واجهت ثورتين للقبائل العربية المصرية كما يذكر بيبرس المنصوري هما:

1. ثورة عربان بلاد البحيرة عام 700هـ/1300م، وقد بيّن بيبرس المنصوري باعتباره أنه كان قائداً للحملة التي جردها السلطان تجاههم، أن عدد أمراء الطبلخانات الذين خرجوا معه كان عشرين أمير، وقد ذكر بيبرس المنصوري أسمائهم، وكيف أنهم تمكنوا من إخضاع تلك القبائل، واخذ "مواشيهم من الجمال والأغنام"، وتقرير الصلح معهم، ثم العودة للقاهرة[3].
2. ثورة العربان في الصعيد عام 701هـ/1301م، أما بالنسبة لسياسة الدولة معهم، فقد ذكر بيبرس المنصوري أنه نحوهم حملة عسكرية برئاسة الأمير سلار والأمير بيبرس الجاشنكير، وقد قام الاثنان في طريقهم إليهم بتقسيم تلك الحملة إلى ثلاثة فرق تمكنت من الإحاطة بجميع جهات الصعيد "فبقي العربان جميعاً في حلقتهم، وحصلوا في قبضتهم، فما افلت منهم أحد من ربقتهم، وأخذوهم بنواصيهم وأقدامهم.واخذوا ما كان لهم من خيل وابل وبقر وغنم ... وكان الذي أخذ من موجودهم وسيق من خيولهم خمسة ألف فرس وعشرين ألف جمل، ومايه [مائة] ألف رأس غنم سوى الأبقار..."[4].

(1) المنصوري، زبدة الفكرة، ص312.
(2) المنصوري، زبدة الفكرة، ص312.
(3) المنصوري، زبدة الفكرة، ص 348-349؛ المنصوري، التحفة، ص 160؛ المنصوري، مختار، ص116.
(4) المنصوري، زبدة الفكرة، ص 363-364؛ المنصوري، التحفة، ص 162؛ المنصوري، مختار، ص119.

3.4 حياة السلاطين

لم يكن بيبرس المنصوري أقل شأناً من المصادر الأخرى في تعقب الجانب الخاص من حياة السلاطين، فقد سلك في هذا الجانب اتجاهين:

أ. ما يخص حياة السلطان الظاهر :

جاء هذا الجانب في مقدمة اهتمامات بيبرس المنصوري، فقد ابتدأ بتتبع حياة الملك الظاهر قبل اعتلائه السلطنة عام 658هـ/1259م، فبيّن أولاً أصله فقال: "وهو تركي الجنس"[1]، ثم بيّن كيفية نشأته "وقد كان [الملك الظاهر] في بدايته مملوكاً للأمير علاء الدين أيدكين البندقدار الصالحي أحد المماليك الصالحية "[2]. كما بيّن أنه عُرف بالبندقداري نسبةً للأمير المشار إليه[3].

ينتقل بيبرس المنصوري بعد ذلك لبيان كيفية انتقال الملك الظاهر إلى مماليك السلطان الأيوبي الملك الصالح نجم الدين أيوب وكيفية اكتسابه ثقة السلطان المذكور وتدرجه في المناصب الإدارية والسياسية في دولته "واتفق أن الملك نجم الدين أيوب أستاذأي-أستاذ الأمير علاء الدين أيدكين البندقدار - نقم عليه، فامسكه واعتقله، وارتجع مماليكه، فأضافهم إلى المماليك السلطانية، وصير [الملك الظاهر] مع الجمدارية ثم انتقل إلى البحرية، فنقلته سعادته وسياسته ورأيه وشجاعته إلى أن صار بين خوشداشيته معظماً، وعند العساكر محترماً، وفي الحروب ومواقفها مقدماً حتى ارتقى ذروة الملك الشريف"[4].

تابع بيبرس المنصوري تعقب حياة الملك الظاهر بعد سقوط الدولة الأيوبية وقيام الدولة المملوكية، حيث بيّن كيفية انشقاقه مع بعض الأمراء البحرية عن الدولة المملوكية في عهد السلطان المعز أيبك والتجائه إلى الملك الناصر صاحب الشام ، ثم إلى الملك المغيث صاحب الكرك، ثم الهرب منهما بمعية الأمير سيف الدين قلاوون المخدوم وتنقلهما في بلاد الشام من مكان لآخر فترة ثم نزولهما على الشيخ علي

---

(1) المنصوري، مختار، ص12.

(2) المنصوري، زبدة الفكرة، ص59؛ المنصوري، مختار، ص12.

(3) المنصوري، مختار، ص12.

(4) المنصوري، زبدة الفكرة، ص59؛ المنصوري، مختار، ص12.

البكاء بزاويته في الخليل والتنبؤ لهما باعتلاء السلطنة في مصر[1]. كما تتبع كيفية تحسن علاقته مع السلطان المظفر قطز ومواجهتهم المغول في عين جالوت عام658هـ/1259م[2].

بعد ذلك يلاحظ أن بيبرس المنصوري يبدأ يؤرخ لحياة الملك الظاهر بعد اعتلائه السلطنة في مصر عام 659هـ/1260م، وقد سلك في ذلك عدة اتجاهات:

1. التأريخ لرحلات الصيد التي كان يقوم بها:

دونّ بيبرس المنصوري في هذا الجانب ست رحلات قام بها السلطان للصيد، الأولى كانت تجاه ثغر الإسكندرية عام 662هـ/1263م[3]، والثانية كانت تجاه أعراس والعباسة عام 663هـ/1264م[4]، أما الثالثة، فكانت بصحبة ليفون ابن صاحب سيس تجاه بركة الجب عام 664هـ/1265م[5]، والرابعة كانت بصحبة المنصور محمد صاحب حماة تجاه العباسة عام 665هـ/1266م[6]، والخامسة كانت تجاه الإسكندرية عام 668هـ/1269م، وقد فصل بيبرس المنصوري في الحديث عنها: "وتوجه [السلطان] إلى الإسكندرية، وفي طريقة دخل البرية يتصيد، وفي صيده ضرب حلقاً على الكحيلات، فصار في كل حلقة منها ما يقارب خمسمائة غزال وأقل وأكثر، ومن النعام وبقر الوحش كثير، وكان كل من أحضر غزالاً أعطي بغلطاقاً، ومن ضرب نعاماً وبقراً أعطي فرساً، ففرق من الخيل والخلع كثيراً"[7]. أما الرحلة السادسة، فكانت بصحبة ولده الملك السعيد تجاه العباسة عام

---

(1) انظر السياسة المملوكية تجاه بقايا البيت الأيوبي.
(2) انظر السياسة المملوكية تجاه المغول الإيلخانيين.
(3) المنصوري، زبدة الفكرة، ص92.
(4) المصدر نفسه، ص95.
(5) المصدر نفسه، ص106.
(6) المصدر نفسه، ص107.
(7) المصدر نفسه، ص123.

673هـ/1274م "وتوجه إلى العباسة وولده الملك السعيد صحبته ورمى البندق وصرع ولده من طيور الواجب"[1].

2. التأريخ لزيارات السلطان للاماكن المقدسة والصالحين وغيرهم:

أرّخ بيبرس المنصوري لزيارات السلطان للاماكن المقدسة وللصالحين، وقد دون في هذا الجانب خمسة روايات، فقبل أن يلي الملك الظاهر السلطنة يذكر بيبرس المنصوري اعتماداً على ما رواه له السلطان قلاوون أن الملك الظاهر أيام تنقله في بلاد الشام زمن أمرته زار الشيخ ع لي البكا المقيم في زاويته في مدينة الخليل وكان بمعيته الأمير سيف الدين قلاوون، وقد أبرز بيبرس المنصوري أن هذا الشيخ تنبأ للملك الظاهر بتولي السلطنة[2].

وفي سنة661هـ/1262م زار الملك الظاهر مدينة القدس، ورسم بعمارة المسجد الأقصى[3] كما زار الملك الظاهر الحـجاز في سنة 667هـ/1268م، وقد ذكر بيبرس المنصوري بشيء من التفصيل أن السلطان ابتدأ زيارته بالنزول على المدينة المنورة، وأحرم فيها، ثم توجه إلى مكة المكرمة، حيث قام عندما وصلها في 5 ذي الحجة بغسل الكعبة بيده "وحمل الماء في القرب على كتفه، وغسل البيت، وجلس على الكعبة الشريفة، فأخذ بأيدي الناس، وسبل البيت الشريف للناس ... وعاد [إلى بلاد الشام]"[4]. كذلك زار الملك الظاهر في السنة نفسها الجامع الظاهري الذي شيده في الحسينية، ورتب أوقافه، ونظر في أحواله، ثم عاد[5].

وفي سنة668هـ/1269م زار الملك الظاهر بلاد الشام، ونزل على بعض المدن المقدسة لا سيما مدينتي القدس والخليل[6].

---

(1) المنصوري، زبدة الفكرة، ص143.

(2) المنصوري، زبدة الفكرة، ص34- 35.

(3) المنصوري، زبدة الفكرة، ص81؛ المنصوري، مختار، ص25.

(4) المنصوري، زبدة الفكرة، ص120- 121؛ المنصوري، مختار، ص41.

(5) المنصوري، زبدة الفكرة، ص117.

(6) المنصوري، زبدة الفكرة، ص123.

3. التأريخ لحالات زواج السلطان وأبنائه:

لم يول بيبرس المنصوري اهتماماً كبيراً في تدوين حالات زواج الملك الظاهر وأبنائه، فقد ذكر في هذا الجانب روايتين هما:

أ. الرواية الأولى: ذكر فيها أن السلطان تزوجأمراه من الشهرزورية[1]، دون أن يفصل في معلوماته عن هذا الزواج.

ب. الرواية الثانية: تحدث فيها بيبرس المنصوري بشكل مفصل عن زواج الملك السعيد بن الملك الظاهر من ابنة الأمير سيف الدين قلاوون وهي غازية خاتون عام 674هـ/1275م، وقد وثق بيبرس المنصوري نص عقد هذا الزوج وصداقه، وذكر أن كاتبه هو القاضي محيي الدين ابن عبدالظاهر[2]. كما أبرز كيفية إقامة الملك الظاهر الاحتفالات بمناسبة دخول ولده الملك السعيد بغازية خاتون عام 675هـ/1276م، فقال:"ولما عاد السلطان إلى الديار المصرية أهتم بعرض الجيوش الإسلامية، ورتب لعب القبق، فلعب بالميدان الأسود تحت القلعة، و لعب العساكر، وقد لبسوا أجمل العدد، وتدرعوا أفخر الجواشن والخوذ ، فكان له عليهم التمييز والإصابة والتبريز على تلك العصابة، واقتضت سعادته أنه لبس جوشناً وخوذة ، وتقلد ترساً وألبس فرسه العدة الكاملة من البركسطون والوجه والرقبة ، وساق تحت القبق، ورماه باليد اليسرى، فأصابه وأخطاه غيره باليمنى بغير لبس، ثم استمرت إصابته، وانعم على كل من أصاب من الأمراء بفرس بسرجه ولجامه وزينته من المراوات الفضة، ومن أصاب المماليك والجند خلع عليه، وبقي هذا المهم ثلاثة أيام متوالية، والناس في أفراح متتالية، وخلع مثبوتة من خزاينه العالية ... ثم افيضت التشاريف في اليوم الرابع على جميع أكابر الدولة من الأمرا [الأمراء]المقدمين والوزراء والمتعممين والقضاة و الكتّاب، ودخل الملك السعيد بيته"[3].

---

(1) المنصوري، زبدة الفكرة، ص34.

(2) المصدر نفسه، ص149- 151.

(3) المصدر نفسه، ص153.

4. التأريخ لختان السلطان الظاهر لأبنائه:

لم يغفل بيبرس المنصوري في تسجيله للأحداث المتعلقة بحياة السلطان الظاهر، المعلومات الخاصة بختان أولاد السلطان، فقد بيّن أن السلطان الظاهر قام عام 662هـ/1263م بختان (بطهور) ابنه الملك السعيد ناصر الدين بركة مع أطفال العديد من الأمراء الكبار، وقد قام السلطان بمناسبة ذلك بعرض الجيوش وهم لابسي عُدد الحرب "وعبروا عشرة عشرةً، وهو جالس على الصفة التي بجانب دار العدل تحت القلعة"[1].

وفي سنة 672هـ/1273م قام السلطان الظاهر بتطهير (ختان) ولده الملك نجم الدين خضر، وقد لعب الجيش بمناسبة ذلك القبق[2].

5. التأريخ لحالات مرض السلطان الظاهر ووفاته:

ولم يتوان بيبرس المنصوري عن تدوين حالات مرض السلطان، فقد ذكر في هذا الجانب روايتين؛ الأولى وضح فيها أن السلطان الظاهر في أثناء عودته إلى مصر عام 664هـ/1265م وتحديداً عندما وصل زيزا تقنطر عن فرسه "فأقام هناك أياماً، وركب محفة في الطريق بسبب ألم ألمّ بوركه، ولما وصل إلى مسجد التبن لم يرد أن يدخل القاهرة على تلك الحال، فأقام أياماً إلى أن صح وركه، وزال وعكه، وطلع القلعة"[3]. أما الثانية، فقد بيّن فيها كيفية إصابة السلطان الظاهر في عام 676هـ/1277م بوعكة صحية أثر السم الذي دس له في الكأس الذي يشرب فيه، وبقي السلطان يخفي مرضه عن الأطباء حتى توفي على أثر ذلك[4]، وهذا الجانب فصل سابقاً.

ب. ما يخص حياة السلطان المنصور قلاوون:

ولم يتوان بيبرس المنصوري عن تدوين الأحداث الخاصة بحياة السلطان المنصور قلاوون وأبنائه، فقد تحدث بدايةً عن أصله ونسبه، فقال: "وأما جنسه فكان

(1) المنصوري، زبدة الفكرة، ص92.
(2) المصدر نفسه، ص141.
(3) المصدر نفسه، ص105-106.
(4) المصدر نفسه، ص160-161.

من خالصة القفجاق من القبيلة المعروفة ببرج أغلى "[1]. ثم أن بيبرس المنصوري يبين أن السلطان المنصور قلاوون كان مملوكاً جلبه التجار من بلاده المذكورة التي تعرضت للغزو المغولي إلى مصر، فاشتراه شخص يسمى الأمير علاء الدين آقسنقر الكاملي بألف دينار، ونسبه لذلك عُرف قلاوون بالألفي[2].

وبعد وفاة سيده المذكور في الدولة الصالحية ارتجع قلاوون وجماعة من خشداشيته الى المماليك السلطانية (العلائية) سنة 647هـ/1249م[3].

ويبيّن بيبرس المنصوري أن قلاوون بعد ذلك كان من جملة البحرية الذين هربوا لبلاد الشام أيام الملك المز أي بك، ثم عاد زمن المظفر قطز للوقوف معه أمام الغزو المغولي، وقد زار مع الأمير بيبرس البندقداري الشيخ علي البكا أثناء قبيل عودته لمصر، وتنبأ له الشيخ بتسلم السلطنة[4].

وقد أشاد بيبرس المنصوري في سيده السلطان المنصور قلا وون، وذكر صفاته بإيجاز، فقال: "وأما صفاته، فإنه كان وسيماً حليماً حسناً قسيماً تاماً نبيلاً بهياً جميلاً من أحسن الأتراك صورة، وأكثرهم هيبة، تعلوه جلالة وحشمة، وتقارنه مهابة وحرمة... وكان حليماً عفيفاً عن سفك الدماء مقتصداً في العقاب، كارهاً للأذى"[5].

ويعقب بيبرس المنصوري بعد ذكره صفات قلاوون، ف يقول: " لا جرم أن الله جازاه في ذريته وحاشيته بالحسنى، ورفع قدر عتقائه وألزامه، وبسط ذكر مماليكه وخدّامه وصيرهم ولاة للأمور، وساسة للجمهور، وقادة للعساكر، ونواب في الممالك"[6].

---

(1) المنصوري، زبدة الفكرة، ص175.

(2) المصدر نفسه، ص175.

(3) المصدر نفسه، ص175.

(4) المصدر نفسه، ص175.

(5) المصدر نفسه، ص175.

(6) المصدر نفسه، ص175- 176.

تابع بيبرس المنصوري تدوينه للأخبار المتعلقة بحياة قلاوون، حيث ذكر بشيء من التفصيل أسماء المماليك الذين كانوا في خدمة قلاوون زمن إمرته، وكان لهم قدم الهجرة، وقد ذكر بيبرس المنصوري أنه كان منهم[(1)].

لم يقف بيبرس المنصوري عند هذا ، فقد ذكر السياسة التي اتبعها قلاوون مع مماليكه، مبرزاً أنه عنى بهم وقلدهم إمرة الطبلخاناه مع ذكر أسمائهم . [(2)] أضف إلى ذلك أن بيبرس المنصوري يذكر أن قلاوون قام أيام سلطنته بشراء ا لعديد من المماليك، واهتم بهم، "وأفاض عليهم ملابس الإحسان، فأنهم انتهوا في آخر دولته إلى ما ينيف عن ستة الآف مملوك أرباب أقطاعات، وأصحاب جامكيات، وأمراء طبلخانات، وذوو مراتب وطبقات "[(3)]. كما رفع قلاوون مكانة مماليكه، ورقاهم في المناصب لاسيما كبيرهم وصغيرهم، وشملهم بإنعامه[(4)].

ومن الدلائل الأخرى التي يدونّها بيبرس المنصوري عن اهتمام قلاوون في مماليكه ذكره أن قلاوون قبيل وفاته أحضر ولده الأشرف خليل وأوصاه بالإحسان لمماليكه، وحفظهم، وابقائهم على أقطاعاتهم ووظائفهم بمصر والشام[(5)].

أما بقية المعلومات التي دونّها بيبرس المنصوري عن حياة قلاوون، فقد سلك فيها عدة اتجاهات هي:

1. التأريخ لحالات زواج السلطان وأبنائه:

ن بيوّرس المنصوري في هذا الجانب ستة حالات زواج لقلاوون وأبنائه ، ففي سنة 664هـ/1265م تزوج قلاوون من ابنة سيف الدين كرمون التتري، وقد وصف بيبرس المنصوري كيفية احتفال السلطان الظاهر بذلك :"وقدم السلطان للأمير المخدوم [بمناسبة زواجه] تقدمة خيل، وتعابي قماش وعشرة مماليك من

(1) المنصوري، زبدة الفكرة، ص176 -177.
(2) المصدر نفسه، ص177.
(3) المصدر نفسه، ص177.
(4) المصدر نفسه، ص178.
(5) المصدر نفسه، ص272.

المماليك السلطانية... وقدم كل أمير من الأمراء ثلاثة أروس [رؤوس] خيلاً، وثلاثة بقج قماشاً"[1].

أما الزواج الثاني، فقد ذكر بيبرس المنصوري أنه كان أيام سلطنة قلاوون سنة 681هـ/1282م، وقد تزوج فيه من ابنة سكتاي بن قراجين[2].

أما حالة الزواج الثالث، فقد كانت سنة 687هـ/1288م، وقد تزوج فيها قلاوون من ابنة الأمير شمس الدين سنقر التكريتي[3].

وبالنسبة لزواج ابنائه، فقد سجل بيبرس المنصوري ثلاثة حالات، الحالة الأولى عقد الملك الصالح علي بن قلاوون من ابنة الأمير سيف الدين نوكيه سنة 681هـ/1282م "وحضر السلطان العقد ووكل الأمير حسام الدين طرنطاي نائب السلطنة، ووكل عن الزوجة سيف الدين أيدمر استاذ الدار، و تقرر الصداق على خمسة الآف دينار"[4].

أما الحالة الثانية، فهي زواج الملك الأشرف بن قلاوون من ابنة الأمير سيف الدين نوكيه سنة 682هـ/1283م[5]. كما تزوج مظفر الدين أمير موسى بن الملك الصالح علاء الدين علي بن الملك المنصور قلاوون سنة 704هـ/1304م من ابنة الأمير سيف الدين سلار نائب السلطنة[6].

(1) المنصوري، زبدة الفكرة، ص102.
(2) المصدر نفسه، ص229.
(3) المصدر نفسه، ص264.
(4) المصدر نفسه، ص228 -229.
(5) المصدر نفسه، ص232 -233.
(6) المصدر نفسه، ص382.

2. التأريخ لحالات الإنجاب.

سجل بيبرس المنصوري حالة واحدة، وهي ولادة الملك الناصر محمد سنة 684هـ/1285م أيام فتح المرقب[1].

3. التأريخ لرحلات السلطان وأبنائه.

لم يسجل بيبرس المنصوري معلومات كثيرة عن هذا الجانب، فقد ذكر أشارتين الأولى خروج السلطان إلى الكرك سنة 685هـ/1286م للصيد[2]، والثانية خروج ولديه الصالح علي والاشرف إلى جهة العباسة للصيد سنة 682هـ/1283م[3].

4. التاريخ لوفاة السلطان قلاوون.

اقتضب بيبرس المنصوري في هذا الجانب، وذكر أن السلطان قلاوون توفي في طريقه لفتح عكا سنة 689هـ/1290م، بعد وعكة صحية أصابته[4].

4.4 السياسة تجاه الخلافة العباسية بعد إحيائها عام 659هـ/1260م

لم يترك بيبرس المنصوري موضوع السياسة المملوكية تجاه الخلافة العباسية بعد إحيائها عام 659هـ/1260م دون أن تأخذ جانباً من كتبه، فقد أورد معلومات مفصلة عن الخطوة الهامة التي اتخذها الملك الظاهر في أعقاب اعتلائه السلطنة عام 658هـ/1259م، وأعني بذلك إحيائه الخلافة العباسية بعد سقوطها على يد المغول عام 656هـ/1258م، فقد بدأ يؤرخ لهذه السياسة منذ وصول الأمام أبو العباس أحمد بن الأمام الظاهر بالله بن الأمام الناصر لدين الله للديار المصرية عام659هـ/1260م[5] دون أن يولي عنايته بتتبع المراسلات التي كانت بين الإمام أبي العباس أحمد والسلطان الظاهر قبيل وصوله مصر من جهة، وكيفية تنقله في بلاد الشام حتى قدومه مصر من جهة أخرى كما فعل غيره من المؤرخين.

---

(1) المنصوري، زبدة الفكرة، ص252.

(2) المصدر نفسه، ص 255.

(3) المصدر نفسه، ص236.

(4) المصدر نفسه، ص270-271.

(5) المصدر نفسه، ص60؛ المنصوري، التحفة، ص47؛ المنصوري، مختار، ص15.

بعد وصول الأ مام أبي العباس أحمد مصر، يورد بيبرس المنصوري معلومات مهمة عن كيفية احتفاء السلطان الظاهر بالإمام أبي العباس "وكان وصوله إلى الباب السلطاني في التاسع من رجب، وركب السلطان للقائه في موكب مشهود، ومحفل محفود، وأنزله في القلعة، وبالغ في إكرامه "[1]. كما أضاف معلومات مهمة عن المراسيم التي تمت في أعقاب استقباله للتأكد من صحة نسبته للخلفاء العباسيين في العراق أ و تقاليد المبايعة له بالخلافة "فأحضر [السلطان] الأمراء الأكابر ومقدمي العساكر والوزير وقاضي القضاة ونواب الحكم والفقهاء والعلماء والصلحاء وأكابر المشائخ وأعيان الصوفية، فاجتمع المحفل بقاعة الأعمدة بقلعة الجبل المحروسة، وحضر الخليفة وتأدب السلطان معه في الجلوس بغير مرتبة ولا كرسي، وأمر بإحضار العربان الذين حضروا مع الخليفة من العراق، فحضروا، وحضر خادم من البغاددة فسئلوا عنه هل هو الإمام أحمد ابن الظاهر بن الناصر؟ فقالوا: أنه هو، فشهدت جماعة الاستفاضة ... عند قاضي القضاة تاج الدين عبدالوهاب، فأسجل على نفسه بالثبوت، فقام قاضي القضاة قائماً فأشهد على نفسه بثبوت النسبة، فسمى الإمام أحمد باسم أخيه وهو المستنصر بالله، وبايعه السلطان على كتاب الله وسنة رسول الله"[2]. كذلك قدم معلومات عن الإجراءات التي أعقبت مبايعة الخليفة البيعة الخاصة، فذكر أن الخليفة قام فقلد السلطان البلاد الإسلامية وما يضاف إليها وما سيفتحه الله على يده من بلاد الكفار [3]، ناهيك عن أخذ البيعة للخليفة من العامة على اختلاف طبقاتهم، وكتابة السلطان إلى الولايات الإسلامية بأخذ البيعة للخليفة [4]،

---

(1)المنصوري، زبدة الفكرة، ص 60المنصوري، التحفة، ص 47 المنصوري، مختار، ص15.

(2)المنصوري، زبدة الفكرة، ص 60-61المنصوري، التحفة، ص 47؛المنصوري، مختار، ص15-16.

(3)المنصوري، زبدة الفكرة، ص 61المنصوري، التحفة، ص 47 المنصوري، مختار، ص16.

(4)المنصوري، زبدة الفكرة، ص 61المنصوري، التحفة، ص 47 المنصوري، مختار، ص16.

فضلاً عن إصدار السلطان أمراً بأن يخطب باسم الخليفة على المنابر وأن تنقش السكة باسمه واسم الخليفة،[1] ثم أورد بيبرس المنصوري أن الخليفة " لما كان يوم الجمعة سابع عشر رجب خطب...بالناس في جامع القلعة"[2].

يسلط بيبرس المنصوري أثر الإجراءات السابقة الضوء بشكل مفصل على التقاليد و العادات التي قام بها السلطان الظاهر كتمهيد لقراءة المرسوم الذي أصدره الخليفة بتقليده البلاد الإسلامية، فقد بيّن أن السلطان ركب يوم الاثنين الرابع من شعبان إلى خيمة ضربت بالبستان الكبير بظاهر القلعة، ولبس الأهبة العباسية وهي الجبة السوداء، والعمامة البنفسجية والطوق، وتقلد سيف[3]، وحملت خلفه عدة سيوف، ولواءان وسهمان كبيران وترس، وغير ذلك مما جرت به العادة، وقدم له فرس أشهب برقبة سوداء وكنبوش أسود[4]، ثم جلس مجلساً عاماً، وخلع على الأمراء والوزير وقاضي القضاة وصاحب ديوان الإنشاء فخرالدين بن لقمان الذي أنشأ التقليد، وطلع على المنبر فقراءه على الناس كافة[5].

أما عن المرسوم الذي أصدره الخليفة المستنصر بالله بحق السلطان الظاهر، فقد احتفظ بيبرس المنصوري بنسخه منه أبرز من خلالها السياسة المستقبلية التي رسمها الخليفة للسلطان الظاهر ودولته، وفيما يلي بيان ذلك:

1. ابتدأ الخليفة في مرسومه بالحمد والثناء على الله، ليتدرج بعدها لذكر فضل السلطان الظاهر في إحياء الخلافة العباسية "وكيف لا وقد أقام الدولة العباسية بعد أن أقعدتها زمانة الزمان"[6].

---

(1) المنصوري، زبدة الفكرة، ص61؛ المنصوري، التحفة، ص 47 المنصوري، مختار، ص16.

(2) المنصوري، زبدة الفكرة، ص 61 المنصوري، التحفة، ص 47 المنصوري، مختار، ص16.

(3) المنصوري، زبدة الفكرة، ص61؛ المنصوري، مختار، ص16 -17.

(4) المنصوري، مختار، ص16 -17.

(5) المنصوري، زبدة الفكرة، ص16؛ المنصوري، مختار، ص17.

(6) المنصوري، زبدة الفكرة، ص62.

2. ينتقل الخليفة بعد ذلك لمنح السلطان الظاهر الصبغة الشرعية بتقليده البلاد الإسلامية" وقد قلدك الديار المصرية والبلاد الشامية والديار بكرية والحجازية واليمنية والفراتيه، وما يتجدد من الفتوحات غوراً ونجداً"[1].

3. ثم يرسم الخليفة السياسة الداخلية التي يجب على السلطان السير عليها لتوطيد أركان دولته "وهذه الأقاليم المنوطة بك تحتاج إلى نواب وحكام وأصحاب رأي من أصحاب السيوف والأقلام، فإذا استعنت بأحد منهم في أمورك فنقب عليه تنقيباً، واجعل عليه في تصرفاته رقيباً وسل عن أحواله..."[2].

4 أما بالنسبة للسياسة الخارجية فقد حرض الخليفة السلطان على متابعة حركة الجهاد، طالباً منه إعادة الخلافة العباسية لمقرها في العراق " وبك يرجى أن يرجع مقر الخلافة إلى ما كان عليه في الأيام الأول"[3].

بعد ذلك يفصل بيبرس المنصوري في الحديث عن الحملة العسكرية التي أعدها السلطان الظاهر بقيادة الخليفة لاستعادة العراق من المغول، مورداً الاستعدادات التي تم تجهيزها للخليفة، وكيفية مسيرها إلى بلاد الشام، فالعراق واصطدامها مع المغول، ومقتل الخليفة المستنصر[4].

يتعقب بيبرس المنصوري بعد فشل السياسة المملوكية في إعادة الخلافة إلى العراق أثر استشهاد الخليفة المستنصر بالله كيفية قيام السلطان الظاهر باختيار خليفة جديد عام 660هـ/1261م، فقد وضح في البداية اسم الخليفة وسلسلة نسبه حتى العباس بن عبدالمطلب بن هاشم[5]، لينتقل بعدها لإبراز المراسيم التي تمت للتأكد من صحة نسبه للعباسيين أو تقاليد مبايعته بالخلافة، وقد كانت المراسيم في خطواتها شبيه بالمراسيم التي تم فيها اختيار المستنصر بالله[6]. كذلك يوضح كيفية

---

(1) المنصوري، زبدة الفكرة، ص62.
(2) المصدر نفسه، ص63.
(3) المصدر نفسه، ص64.
(4) انظر تفصيل ذلك في السياسة المملوكية تجاه المغول الإيلخانيين.
(5) المصدر نفسه، ص78.
(6) المصدر نفسه، ص78؛ المنصوري، التحفة، ص51.

قيام الخليفة بعد أطلاق لقب الحاكم بأمر الله عليه بتقليد السلطان الظاهر البلاد الإسلامية كما فعل سلفه[1].

بعد ذلك يسلط بيبرس المنصوري الضوء على الخطب التي ألقاها الخليفة الحاكم بأمر الله أثر مبايعته بالخلافة، فقد بيّن في الخطبة الأولى كيفية مطالبته بإذكاء روح الجهاد[2]، أما الخطبة الثانية، فقد طالب بها بطاعة الله ورسوله وأولي الأمر، وفي نهايتها البس الخليفة السلطان الفتوة[3].

وإذا كان بيبرس المنصوري قد وضح أن السياسة المملوكية تجاه الخلافة العباسية في مصر قد كانت قائمة على الصداقة والود في عهد السلطان الظاهر، فأنه يذكر أن تلك السياسة تغيرت تجاهها بعد تقلد أعقابه السلطنة، فقد ذكر أن الخليفة الحاكم بأمر الله كان قد سجن في برج القلعة إلى أن أعتلى المنصور حسام الدين لاجين السلطنة عام 696هـ/1296م، حيث أطلق سراحه، " وأنزله بمناظر الكبش، وأجرى عليه أرزاقاً وراتباً مدراراً، ووصله بصلات جزيلة له ولأولاده ونسايهم، وصار يركب معه في الموكب، ويخطب في الجُمع، والتمس الحجّ إلى بيت الله الحرام، فبلغه هذا المرام، وجهزه بالمال والزاد والموكب"[4].

توفي الخليفة الحاكم بأمر الله عام 701هـ/1301م، حيث بيّن بيبرس المنصوري مراسيم دفنه "فحمل إلى مشهد السيدة نفيسة، وصلى عليه الشيخ كريم الدين عبد الكريم الآملي شيخ الصوفية، ودفن بجوار مشهد السيدة نفيسة رضي الله عنها، ومشى الآمرا [الأمراء]والكبراء والقضاة والحكام والسادة والأعيان في جنازته إكراماً لمحله، وقياماً بلازم حقه"[5].

---

(1) المنصوري، زبدة الفكرة، ص78؛ المنصوري، التحفة، ص51.

(2) المنصوري، زبدة الفكرة، ص78-79.

(3) المصدر نفسه، ص80.

(4) المصدر نفسه، ص315.

(5) المصدر نفسه، ص362.

يعقب بيبرس المنصوري أثر ذلك أن الخليفة الحاكم بأمر الله هو أول من دفن بمصر من الخلفاء العباسيين[1].

خلف الخليفة الحاكم بأمر الله في الخلافة ولده أبي الربيع سليمان المستكفي بالله[2] الذي كان موجوداً في الأيام الظاهرية والمنصورية في سجن برج القلعة مع والدة[3]، وقد رسم بيبرس المنصوري بشيء من الاقتضاب السياسة التي اتبعها السلطان الناصر محمد تجاهه "وخطب له على المنابر، واستمر في صحبة السلطان والركوب معه كأنهما أخوان واللعب بالصوالجة في الميدان، والتفرج معه في الصيد كل أوان وأجزل له الإكرام والإحسان"[4].

كما يبرز بيبرس المنصوري كدليل على سياسة السلطان الناصر الودية تجاه الخليفة المستكفي بالله أنه كان يصطحبه معه في المعارك، كمعركة مرج الصفر عام702هـ/1302م، وقد كان ذلك على سبيل التبرك به[5]، كذلك أبرز سياسة السلطان تجاهه بعد العودة من مرج الصفر مع المغول " ولما عاد السلطان، صار الخليفة يركب معه الميدان، ويحضر معه لعب الصولجان"[6].

5.4 الخاتمة

تحرت هذه الدراسة الكشف عن دور بيبرس المنصوري في التأريخ لدولة المماليك البحرية، وقد خلصت إلى النتائج التالية:

1. عاصر بيبرس المنصوري العقد الأول من عهد دولة المماليك البحرية، وشهد خروج الحملة العسكرية التي أعدها السلطان الظاهر برئاسة الخليفة أبي

---

(1) المنصوري، التحفة، ص362؛ المنصوري، مختار، ص118.
(2) المنصوري، التحفة، ص362؛ المنصوري، مختار، ص118.
(3) المنصوري، مختار، ص118.
(4) المنصوري، زبدة الفكرة، ص364.
(5) المنصوري، مختار، ص127.
(6) المصدر نفسه، ص127.

القاسم أحمد عام 659هـ/1260م لاستنقاذ العراق من المغول، وإعادة الخلافة العباسية إلى مقرها بعد سقوطها عام 656هـ/1258م.

2. أمضى بيبرس المنصوري سنيه الأولى برفقة سيده الأمير سيف الدين المخدوم قلاوون، وقد تمكن نتيجة لذلك من المشاركة معه في الكثير من الحملات العسكرية الموجهه نحو الصليبين والأرمن والمغول وسلاجقة الروم.

3. أما الجزء الآخر من حياته الذي يبدأ بتولي سيده الأمير سيف الدين قلاوون السلطنة عام 678هـ/1279م - فقد أمضاه في التنقل في مناصب الدولة المملوكية إلى أن بلغ ذروتها عند توليه نيابة السلطنة بمصر، أضف إلى ذلك أنه شارك خلال هذا الجزء مع دولة المماليك البحرية في الكثير من حروبها مع المغول والصليبيين والأرمن، فضلاً عن دوره الفعال في حل الكثير من القضايا السياسية والاجتماعية التي كانت تواجه دولة المماليك البحرية.

4. اعتمد بيبرس المنصوري في تدوين مادته التاريخية منهجاً تاريخياً سليماً، يقوم على الإحاطة بمصادرها المتعددة، والتحقق من رواياتها وتقييمها قبل تسجيلها، إضافة إلى أنه كان شاهد عيان في جوانب كبيرة منها.

5. كما اعتمد بيبرس المنصوري في تأليف مادته التاريخية أسلوباً أدبياً، استخدام فيه السجع الذي لم يخل بالمعنى.

6. ركز بيبرس المنصوري في مادته التاريخية على التأريخ لعصره، ولمنطقة بلاد الشام ومصر أبان الحكم المملوكي بشكل خاص.

7. جاءت المادة ا لتي دونها بيبرس المنصوري عن السياسة المملوكية الخارجية في مقدمة اهتماماته، ثم تلاها السياسة المملوكية الداخلية.

المراجع

ابن الأثير، علي بن محمد بن محمد بن عبد الكريم الشيباني . (ت630هـ)، (د.ت)، **الكامل في التاريخ**، دار صادر، (د.ط)، بيروت.

ابن العماد الحنبلي، أبو الفلاح عبدالحي (ت1089هـ)، (د.ت)، **شذرات الذهب في أخبار من ذهب**، دار إحياء التراث العربي، (د.ط)، بيروت.

ابن الغزي، شمس الدين محمد بن عبدالرحمن (ت1167هـ)، (1990م)، **ديوان الإسلام**، تحقيق سيد كسروي حسن، ط1، بيروت.

ابن الفرات، ناصر الدين محمد بن عبدالرحيم (ت682هـ)،(1939م)، **تاريخ ابن الفرات**تحقيق قسطنطين زريق ونجلا عز الدين، الـ مطبعة الأميركانية، (د.ط)، بيروت.

ابن الوردي، زين الدين عمر (ت749هـ)،(1969م)، **تاريخ ابن الوردي**، منشورات المطبعة الحيدرية، (د.ط)، النجف.

ابن إياس، محمد بن أحمد الحنفي. (ت930هـ)،(1982م)، **بدائع الزهور في وقائع الدهور**، الهيئة المصرية العامة للكتاب، طبعة ثانية مصورة عن الطبعة الأولى، القاهرة.

ابن أيبك الدواداري، عبدالله (ت736هـ)،(1960م)، **كنز الدرر وجامع الغرر الدر الفاخر فيسيرة الملك الناصر**، تحقيق هانس روبرت رويمر، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، (د.ط)، ج9، القاهرة.

ابن تغري بردي، جمال الدين أبو المحاسن يوسف (ت874هـ)،(1998م)، **الدليل الشافي على المنهل الصافي**تحقيق فهيم محمد شلتوت، مطبعة دار الكتب المصرية، ط2، القاهرة.

ابن تغري بردي، جمال الدين أبو المحاسن يوسف (ت874هـ)، (1985م)، **المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي**،تحقيق نبيل محمد عبدالعزيز، مطبعة دار الكتب، (د.ط)، مصر.

بن تغري بردي ، جمال الدين أبو المحاسن يوسف (ت874هـ)، (د.ت)، **النجـوم الزاهرة فيملوك مصر والقاهرة**، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب، مطابع كوستاتسوماس، (د.ط)، القاهرة.

ابن حبيب، حسن بن عمر بن الحسن بن عمر (ت779هـ)،(1982م)، **تذكرة النبيه في أيام المنصور وبنيه**، تحقيق محمد محمد أمين، مطبعة دار الكتب، (د.ط)، (د.م).

ابن حجر العسقلاني، شهاب الدين أحمد (ت852هـ)،(1966م)، **الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة**تحقيق محمد سيد جا د الق، مطبعة المدني، ط 2، مصر.

ابن خلدون، عبدالرحم ن بن محمد (ت808هـ)،(1988م)، **تاريخ ابـن خلـدون**، تحقيق خليل شحادة، دار الفكر، ط2، بيروت.

ابن دقماق، إبراهيم بن محمد العلائي (ت809هـ)،(1985م)، **الجوهر الثمين فـي سير الملوك والسلاطين**تحقيق محمد كمال الدين عز ا لدين علي، عـالم الكتب، ط1، بيروت.

ابن سباط، حمزه بن أحمد بن عمر الغزبي (ت926هـ)،(1993م)، **صدق الأخبار المعروف بتاريخ ابن سباط**، عنى به وحققه عمر عبدالسلام تدمري، دار جروس برس، ط1، طرابلس (لبنان).

ابن عبدالظاهر، محي الدين عبدالله (ت692هـ)،(1976م)، **الروض الزاهـر فـي سيرة الملك الظاهر**، تحقيق عبدالعزيز الخويطر، ط1، الرياض.

ابن فهد، عمر بن محمد . (ت885هـ)، (د.ت)**إتحاف الورى بأخبـار أم القـرى**، تحقيق فهيم محمد شلتوت، دار المدني، (د.ط)، جدة.

بن كثير، أبو الفداء إسماعيل الدمشقي (ت774هـ)،(1993م)، **البداية والنهايـة**، حققه ودقق أصوله وعلق حواشيه مكتب تحقيـق التـراث، دار إحيـاء التراث العربي، (د.ط)، بيروت.

ابن منظور، جمال الدين أبي الفضل محمد بن مكرم (ت711هـــ)، (د.ت)،**لسان العرب**،حققه وعلق عليه ووضع حواشيه عامر أحمد حيدر، دار الكتب العلمية، (د.ط)، بيروت.

أبو الفداء، إسماعيل بن علي بن محمود بن عمر بن شاهنشاه بن أيوب (ت732هـ)،(1997م)،**المختصر في أخبار البشر**، علق عليه ووضع حواشيه محمود أيوب، ط1، بيروت.

إقبال، عباس،(2000م)،**تاريخ المغول منذ حملة جنكيزخان حتى قيام الدولة التيمورية**، ترجمة عبدالوهاب علّوب، المجمع الثقافي، (د.ط)، أبو ظبي.

بروكلمان، كارل،(1995م)، **تاريخ الأدب العربي**، نقله إلى اللغة العربية محمود فهمي حجازي بالتعاون مع حسن محمود إسماعيل، مطابع الهيئة العامة للكتاب، (د.ط)، مصر.

البغدادي، إسماعيل باشا، (1990م)،**هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين من كشف الظنون**، دار الفكر، (د.ط)، بيروت.

البغدادي، صفي الدين عبدالمؤمن بن عبدالحق (ت739هـ)، (1992م)، **مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع**، تحقيق وتعليق علي محمد البجاوي، دار الجيل، ط1، بيروت.

البقلي، محمد قنديلي، (1983م)،**التعريف بمصطلحات صبح الأعشى**، الهيئة المصرية العامة، (د.ط)، (د.م).

حاجي خليفة، مصطفى بن عبدالله القسطنطيني (ت1067هـ)، (1982م)، **كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون**، دار الفكر، (د.ط)، (د.م).

حسن، علي إبراهيم،(د.ت)، **تاريخ المماليك البحرية**، مكتبة النهضة المصرية، (د.ط)، القاهرة.

حمدي، حافظ أحمد، (1949م)، **الدولة الخوارزمية والمغول**، دار الفكر العربي، (د.ط)، القاهرة.

الحموي، شهاب الدين أبي عبدالله ياقوت بن عبدالله البغدادي (ت626هـ)،(1979م)، **معجم البلدان**، دار صادر، (د.ط)، بيروت.

الداري، تقي الدين بن عبدالقادر التميمي الغزي (ت1005هـ)، (1983م)، **الطبقات السنية في تراجم الحنفية**، تحقيق عبدالفتاح محمد الحلو، دار الرفـاعي، ط1، الرياض.

الذهبي، أبو عبدالله شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان (ت748هـ)، (1985م)، **العبر في خبر من غبر**، تحقيق محمد السعيد بن بسيوني زغلـول، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت.

الذهبيأبو عبدالله شمس الدين محمد ب ن أحمد بن عثمان (ت748هـ)، (1988م)، **دول الإسلام**، تحقيق فهيم محمد سكتوت ومحمد مصطفى إبراهيم، عنـي بطبعه ونشره عبدالله بن إبراهيم الأنصاري، مطابع قطر الوطنية، (د.ط)، ج2، قطر.

الزركلي، خير الدين، (1984م)، **الأعلام**، دار العلم، ط6، ج2، بيروت.

زيدان، جرجي، (1992م)**تاريخ آداب اللغة العربية**، منشورات دار مكتبة الحياة، (د.ط)، بيروت.

السخاوي، محمد بن عبدالرحمن (ت902هـ)، (1349هـ)، **الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ**، عني بنشره القدسي، مطبعة الترقي، (د.ط)، دمشق.

السخاوي، محمد بن عبدالرحمن (ت902هـ)، (د.ت)،**الضوء اللامع لأهل الـ قـرن التاسع**، منشورات دار مكتبة الحياة، (د.ط)، (د.م).

سرور، محمد جمال الدين ، (د.ت)،**دولة الظاهر بيبرس فـي مصـر**، دار الفكـر العربي، (د.ط)، القاهرة.

سليم، محمود رزق، (د.ت)،**عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي والأدبي**، مكتبة الآداب، ط1، القاهرة.

السيوطي جلال الدين عبدالرحمن (ت911هـ)، (1967م)، **حسن المحاضرة فـي تاريخ مصر والقاهرة**، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، ط1، القاهرة.

شبارو، عصام محمد، (1994م)**السلاطين في المشـرق العربـي**، دار النهضـة العربية، (د.ط)، بيروت.

الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك (ت764هـ)، (1998م)، **أعيان العصر وأعوان النصر**، تحقيق علي أبو زيد ونبيل أبو عمشه ومحمد موعد ومحمود سالم محمد، دار الفكر، ط1، دمشق.

الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك (ت764هـ)، (1991م)، **الوافي بالوفيات**، اعتناء جاكلين سوبله وعلي عمارة، ط2 ، (د.م).

الصياد، فؤاد عبد المعطي، (1980م)، **المغول في التاريخ**، دار النهضة العربية، (د.ط)، بيروت.

عاشور، سعيد عبدالفتاح، (1976م)، **العصر المماليكي في مصر والشام**، دار النهضة العربية، ط2، القاهرة.

العبادي، أحمد مختار، (1969م)، **في أيام دولة المماليك الأولى في مصر والشام**، دار النهضة العربية، (د.ط)، بيروت.

العريني، السيد الباز، (د.ت)، **المماليك**، دار النهضة العربية، (د.ط)، بيروت.

العيني، بدر الدين محمود (ت855هـ)، (1988م)، **عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان**، تحقيق محمد محمد أمين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ج 2، (د.ط)، القاهرة.

الغامدي، عبدالله سعيد محمد، (د.ت)، **جهاد المماليك ضد المغول والصليبيين في النصف الثاني من القرن السابع الهجري**، مركز بحوث الدراسات الإسلامية، (د.ط)، مكة المكرمة.

القلقشندي، أحمد بن علي (ت821هـ)، (1987م)، **صبح الأعشى في صناعة الانشا**، تحقيق محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت.

ليوث، مارجو،(د.ت)، **بيبرس المنصوري**، **دائرة المعارف الإسلامية**، أصدرها باللغة العربية أحمد الشنتاوي وإبراهيم زكي يونس، (د.ط)، مج4، (د.م).

مجهول (منسوب لابن الفوطي)، (1933م)، **الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة**، تحقيق مصطفى جواد، المكتبة العربية، (د.ط)، بغداد.

المقري، أحمد بن محمد التلمساني، (1988م)، **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب**، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، (د.ط)، بيروت.

المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي (ت845هـ)، (1970م)، **السلوك لمعرفة دول الملوك** قام بنشره محمد مصطفى زيادة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ط2، القاهرة.

المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي (ت845هـ)، (1991م)، **المقفى الكبير**، تحقيق محمد اليعلاوي، ط1، بيروت.

المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي (ت845هـ)، (1998م)، **المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف بالخطط المقريزية**، تحقيق محمد زينهم ومديحة الشرقاوي، مكتبة مدبولي، ط1، القاهرة.

المنصوري، بيبرس الدوادار (ت725هـ)، (د.ت)، **التحفة الملوكية في الدولة التركية**، تحقيق عبدالحميد صالح حمدان، الدار المصرية اللبنانية، (د.ط)، (د.م).

المنصوري، بيبرس الدوادار (ت725هـ)، (1998م)، **زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة**، تحقيق دونالد س ريتشارد، مطبعة مؤسسة حسيب درغام وأولاده، ط1، بيروت.

المنصوري، بيبرس الدوادار (ت725هـ)، (د.ت)، **مختار الأخبار [الجزء الخاص بتاريخ الدولة الأيوبية ودولة المماليك البحرية حتى سنة 702هـ]**، حققه وقدم له ووضع فهارسه عبد الحميد صالح حمدان، الدار المصرية اللبنانية، (د.ط)، (د.م).

المولى، سالم، (1989م) **العراق في السياسة المملوكية**، رسالة ماجستير غير منشورة، إشراف أحمد الحسّو، جامعة الموصل.

النويري، شهاب الدين أحمد بن عبدالوهاب (ت733هـ)، (2004م)، **نهاية الأرب في فنون الأدب**، تحقيق إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت.

هنتس، فالتر، (د.ت)، **المكاييل والأوزان الإسلامية وما يعادلها في النظام المتري**، ترجمة كامل العسلي، منشورات الجامعة الأردنية، ط2، (د.م).

اليونيني، موسى بن محمد (ت726هـ)، (1961م)، **ذيل مرآة ألزمان**، صحح بعناية وزارة التحقيقات الحكمية والأمور الثقافية للحكومة العالية الهندية، ط1، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر أباد.

ملحق (أ)

نسخة المرسوم الذي أصدره السلطان المنصور قلاوون عام 682هـ/1283م بحق بيبرس المنصوري منح بموجبه خمسة عشر طواشياً وبعض الإقطاعات، إضافة إلى لقب أمير، وهو من إنشاء المؤرخ ابن عبدالظاهر

ملحق (أ)

نسخة المرسوم الذي أصدره السلطان المنصور قلاوون عام 682هـ/1283م بحق بيبرس المنصوري منح بموجبه خمسة عشر طواشياً وبعض الإقطاعات، إضافة إلى لقب أمير، وهو من إنشاء المؤرخ ابن عبدالظاهر

قال الراوي عفا الله عنه :-في هذه السنة انعم الـ سلطان عليّ بعدة خمسة عشر طواشيةًوأهلتني سعادة آرائه بأن صيرتني من جملة أمرائه ، وكان هذا دأبه في سائر خدّامه أن يرفع مراتبهم في أيامه.

بسم الله الرحمن الرحيم. أما بعد:

حمد الله الذي علم بالقلم ، ولجعهؤاخى السيف في مهمات الأمم و طاول به السمهري فنصب هذا لرفع العلم وهذا لجّر العلم والصلاة والسلام على سيدنا محمد المخصوص بأنواع الحكم صلى الله عليه وعلى آله وصحبه امتبسمت ثغور الديم و شابت بالأنوار لمم الظلم فانه لما كان المجلس السامي الأمير الأجل الكبير المختار المجاهد الأوحد الأعز المرتضى الأكمل ركن الدين مجد الإسلام شرف الخواص بهاء الأمة غرس الدولة واسطة المملكة اختيار الملوك والسلاطين بيبرس الدوادار المنصوري أدام الله رفعته و سموه ممن رتبه النعماء في حجرها وصرفته الآلاء في نهيها وأمرها وأنشأته المملكة تحت جناحها ورتبته السلطنة في حمل ما هو أفخر وأفخم من حمل سلاحها وحبته كل ما يستدعي عطفها ويستديم شكرها له ووصفها يكون أحد معقباتها التي له ما بين يديها من الأمر ولسواه من ذوي الأسلحة ما خلفها وله نباهه تقدمه وجاهة تفخمة وقدم خدمة ترشحه وعظم حرمه توسعه لمجال الاصطفاء وتفسحه اقتضى حسن الرأي الشريف أن ينمي هلاله ويدرج إقباله و يقرب مناله، فلذلك خرج الأمر العالي المولوي السلطاني الملكي المنصوري السيفي لا برح يجود و باستخلاصه يسود من الأولياء من يسود أن يجري في إقطاعه رسلم به الآن من الإقطاع لخاصه و لمن يستخدمه من الأجناد الجياد المعروفين بالخدمة وبالبرك التام وبعدةالكاملة على ما يأتي بيانه والعدة خاصه و خمسة عشر طواشياً.

وكان تاريخ هذا المنشور المبارك رابع عشر ربيع الأول سنة اثنتين وثمانين وستمائة، فقابلت ذلك بالقبول، وشكر الله على نعمه التي تجاوزت حدّ المأمول(1).

(1) المنصوري، زبدة الفكرة، ص247.

ملحق (ب)

نسخة المرسوم الذي أصدره السلطان المنصور قلاوون عام 683هـ/1284م بحق الأمير بيبرس المنصوري، مُنح بموجبه إمرة طبلخاناة بخمسين فارساً، وإقطاع الأمير عز الدين أيبك الأفرم الصالحي أمير جاندار.

ملحق (ب)

نسخة المرسوم الذي أصدره السلطان المنصور قلاوون عام 683هـ/1284م بحق الأمير بيبرس المنصوري، مُنح بموجبه إمرة طبلخاناة بخمسين فارساً، وإقطاع الأمير عز الدين أيبك الأفرم الصالحي أمير جاندار.

قال الراوي: "في هذه السنة انعم السلطان عليّ بإمرة طبلخاناة بخمسين فارساً، وأعطاني إقطاع الأمير عز الدين أيبك الافرم الصالحي أمير جاندار، ونقله إلى مائة فارس، وكتب لي منشور بالخبز المذكور تاريخه الخامس من شوال منها.

بسم الله الرحمن الرحيم . الحمد لله مجزل العطاء، ومجدد النعماء، وممطر ديم الجود المستهلة الأنواء الذي شيد الإسلام ركناً، وبلغ كلا من أولياء الدولة ما كان يتمنى نحمده حمداً يستغرق أنواع المحامد لفظاً ومعنى ونشهد أن لا الله إلا الله وحده لا شريك له شهادة تحل قائلها من الكرامة بالمقام الأعلى والمحل الاسنى، ونشهد أن محمداً عبده ورسوله الذي كان من ربه كقاب قوسين أو ادني صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه صلاة تتوالى، وتتكرر فرادى ومثنى، وبعد:

فأولى من خُص من النعم بأحسنها و من قُلد من العقود النفيسة بأزينها وأثمنها من نشأ على طاعة الدولة الشريفة وغُذي بلبابها و إذا عد الأبطال كان من اكبر فرسانها وشجعانها ولسان المملكة المأمون على الأسرار ووليها الذي لا تتوارى شمس إخلاصه بحجاب ولا بدره بسرار ، ولما كان المجلس السامي الأمير الأجل الكبير الأوحد المؤيد النصير العضد الاسفهسلار الغازي ركن الدين عز الإسلام مجد الأنام نصرة المجاهدين لسان المملكة عضد الملوك و السلاطين بيبرس الدوادار الملكي المنصوري أدام الله تمكينه وفي طراز هذه الحلة ونتيجة هذه الأدلة وفارس هذا المضمار و لركنه في المهام يستند وإليه في مواقف الحروب يشار خرج الأمر العالي المولوي السلطاني الملكي المنصوري السيفي أعلاه الله وشرفه أن يجري في إقطاعه ما رسم به الآن من الإقطاع والجهات الديوانية لخاصه ولمن يستخدمة من الأجناد ، وذلك لاستقبال مغل سنة اثنتين وثمانين وستمائة"[(1)].

---

(1) المنصوري، زبدة الفكرة، ص250-251.

ملحق (ج)

نسخة المرسوم الذي أصدره السلطان المنصور قلاوون عام 685هـ/1286م بحق الأمير بيبرس المنصوري، مُنح بموجبه ثمانين فارساً، وإقطاع الأمير علم الدين سنجر الدوادار الصالحي.

ملحق (ج)

نسخة المرسوم الذي أصدره السلطان المنصور قلاوون عام 685هـ/1286م بحق الأمير بيبرس المنصوري، مُنح بموجبه ثمانين فارساً، وإقطاع الأمير علم الدين سنجر الدوادار الصالحي.

قال الراوي: "أنعم السلطان عليّ بثمانين فارساً، بإقطاع الأمير علم الدين سنجر الدوادار الصالحي على عادته في الدربستية، وأرسل إليّ المنشور الشريف على البريد، وأنالني من إحسانه فوق المزيد.

بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله ذي الفضل الجم والامتنان الذي عمّ و الجميل الذي تم نحمده حمد من قدم من شكر مننه الأهم، ونشهد أن لا اله إلا الله وحده لا شريك له شهادة ينجلي بها عن قلب الموحد الغم ونشهد أن محمداً عبده و رسوله الذي جمع الله بنبوته شمل الأيمان ولمّ صلى الله عليه وعلى آله وعترته وصحبه صلاة نأتمن بها و نأتم، وبعد:

فإن خير من سمت به حدوده و اتسمت بشجاعته سعوده، وخفقت برياح النصر بنوده وعمرت بالخير معاهده وربعيت عهوده من زكت مغارسه و ضفت بالإحسان ملابسه، وكثرت عند الاعتداد ذخائره من الخدمة ونفائسه وقصر عن طول طوله مقائسه، ولما كان المجلس السامي الأمير الأجل الاسفهسلار الأوحد المجاهد العضد ركن الدين فخر الإسلام شمس الأنام شرف الأمراء المقد مين عضد الملوك والسلاطين بيبرس الدوادار الملكي المنصوري نائب السلطنة بالكرك المحروس هو أسارير هذا الجبين، وفحوى هذا اليقين اقتضى حسن الرأي الشريف أن خرج الأمر العالي المولوي السلطاني الملكي المنصوري السيفي زاده الله علاءً ونفاداً ومضاءً أن يجري في إقطاعه ما رُسم به له الآن من القطاعات بالإعمال الشامية لخاصه ولمن معه و لمن يستخدمه من الأجناد الجياد المعروفين بالخدمة بالبرك التام و العدة الكاملة بعد ارتجاع ما بيده بالديار المصرية والعدة خاصه وثمانون طواشياً خارجاً عن المال الموقف عن الأمير علم الدين سنجر الدوا دار الصالحي على عادته في الدربستيه، وذلك لاستقبال مغل سنة خمس وثمانين وستمائة"[1].

---

(1) المنصوري، زبدة الفكرة، ص256- 257.

ملحق (د)

نسخة المرسوم الذي أصدره الملك الناصر محمد عام 693هـ/1293م بحق الأمير بيبرس المنصوري، مُنح بموجبه مائة فارس وتقدمة ألف وديوان الإنشاء.

ملحق (د)

نسخة المرسوم الذي أصدره الملك الناصر محمد عام 693هـ/1293م بحق الأمير بيبرس المنصوري، مُنح بموجبه مائة فارس وتقدمة ألف وديوان الإنشاء.

قال الراوي: "تعطَّفَ السلطان عليّ بمائة فارس وتقدمة ألف و سُلم إلــيّ ديــوان الإنشاء، والنظر عليه و الحديث فيما يصدر منه، ويرد إليه، وكتب لي بهذا الإقطــاع منشور حسب الأمر المطاع نسخة خطبته بعد بسملته:

الحمد لله الذي آوى مصالح دولته الشريف من الكفاة إلى ركن شديد و خصــها منهم بكل ذي فعل حميد، ورأي سديد و جعل معروفها إليهم يعيد أحسن مــا يبــدئ ويبدئ أحسنها يعيد نحمده على نعمة أولاها ومنّه ناسب بــين أُخراهــا و أولاهــا، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة تجلو القلوب ، ويتكفل من الغفران بكل المطلوب، ونشهد أن محمداً عبده ورسوله خير نبي أُرسل إلى خير أمــة ، وبُعــث بأنوار الهداية وليالي الكفر مدلهمة صلى الله عليه وعلى آله وصحبه صلاة لا ينقطع مددها ولا ينحصر عددها وسلم تسليماً كثيراً، وبعد:

فإن لقِدَم الهجرة في الموالاة حقوقا تُرعى و حرمة تستحق تخويل النعماء وتــرا وشفعا، ولا سيما من ربي في حجر المملكة أحسن مربى ، واتصــف مــن الــ صــفات الجميلة بما أرضى به مخدوماً وربّاً و اجتهد في تشييد مباني الدولة الزاهــرة عنــد الاحتياج إليه، ووفّى المقصود من المناصرة والموازرة و المضافرة عند الاتكال عليه، وقام في وجه من خرج عن الطاعة ولم تأخذه لومة لايم فيه وشدّ عضد وليذه بانضمامه إليه والمرء كثير بأخيه ووفي وغيره قد غدر و عفى اثر من أراد إفســاد ذات البين وما عفا عندما قدر ، وكان المجلس العالي الأميري الاجلي العالمي العادلي العضدي النصيري الذخري الظهيري الركني عز الإسلام و المسلمين شرف الأمراء في العالمين ذخر الغزاة لسان الدولة سفير المملكة عضد الملوك و السلاطين بيبرس الدوادار الملكي المنصوري الناصري ضاعف الله نعمته وسعادته هــو بيــت هــذا القصيد وواسطة عقد هذا التنضيد و الذي اومى إليه بنان هذه المدائح وتغنى بوصف مناقبه الغادي و الرائح إن ذُكرت البلاغة فهو إمامها و الكتابة فبيــده زمامهــا ، وان

امتطتامله جواد القلم فهو به المجيد أو اشتملت راحته على السيف فمن ذا عن فتكه يحيد أو اعتقل رمحاً فلا يحمى منه حصن مشيد و لا عمر حديد يقول فتطرب الأسماع عند مقاله ، ويؤدي الرسايل فتعجب الأفكار من حسن استرساله لا يخرج فيها عما اعتاده من صدق اللسان و لاتميله منها إلا ما جمع بين الحسن و الإحسان قد تنزل من المملكة منزلة اليد الباطشة إلا أنها اليمين واللسان الناطق إلا أنه لا يمين يتحمل الدست منه بخير أمير آمر والدولة بأجل مناصل مناظر والكتايب باشجع الشجعان و الكتب بما يضمنها من اللفظ الذي طالما قام فيه تأثر اللسان عن تأثير السنانولهو علمت الأقلام ما استوجبه عليها من حقوق ، وتحققت من فضله ما إخفاؤه طرف من العقوق أت مفترض حمده في محراب هذا الطرس راكعة ساجدة ووفت ديون تقريظه وكيف لا و هي بالاستمداد منه واجدة ، فخرج الأمر الشريف العالي المولوي السلطاني الملكي الناصري لا زال يضايف للأولياء التحويل ، ويجزل لهم التنويل أن يجري في إقطاعهه رُسم له به الآن من الإقطاع والجهات الديوانية لخاصه ولمن يستخدمه من الأجناد الجياد المعروفين بالخدمة"[1].

(1) المنصوري، زبدة الفكرة، ص298-299.

السيرة الذاتيـــــــة

- **الاسم:** وائل عبدالحق عبدالله الضمور.
- **الكلية:** العلوم الاجتماعية.
- **التخصص:** التاريخ.
- السنة: 2008م.
- **العنوان البريدي:** الكرك – مرود.
- **العنوان الألكتروني:** -
- **الهاتف الأرضي:** -
- **الهاتف الخلوي:** 0779770553